الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
كلية الآداب والحضارة الإسلامية

قسم: اللغة العربية

المستوى: السنة الأولى ماستر

التخصص: أدب عربي قديم

السداسي: الثاني

مطبوعة بيداغوجية في مادة

# بنية الخطاب النثري القديم

من إعداد الدكتور(ة): شافية هلال



السنة الجامعية: 2025/ 2026م


بسم الله الرحمن الرحيم

## معلومات أساسية:

- اسم ولقب الأستاذ: **د. شافية هلال**
- بيانات الاتصال الخاصة به: البريد الإلكتروني: Chafia.helal@ gmail.com
- وسيلة التواصل معه: البريد الإلكتروني أو رقم الهاتف: **0672688430.**

## المقرر البيداغوجي

- عنوان الوحدة: وحدة التعليم الأساسية
- اسم المادة الدراسية: بنية الخطاب النثري القديم
- السداسي: الثاني
- الرصيد: 05
- معامل التقييم: 03
- طرق تقييم: التقييم يقوم وفق مرحلتين؛ أولا امتحان مقرر في المعارف المقدمة للطالب على شكل محاضرات، ثانيا تقييم العمل الشخصي الذي يقدمه الطالب
- عدد الأسابيع: 13 أسبوعا
- مفردات المادة:

| |
|---|
| 1- مَدْخَلٌ نَظَرِيٌّ إِلَى الفُنُونِ النَّثْرِيَّةِ القَدِيمَةِ |
| 2- الفُنُونُ النَّثْرِيَّةُ القَدِيمَةُ وَإِشْكَالِيَّةُ الأَسْبَقِيَّةِ |
| 3- فَنُّ الخَطَابَةِ فِي العَصْرِ الجَاهِلِيّ |
| 4- فَنُّ الخَطَابَةِ فِي عَصْرِ صَدْرِ الإِسْلَامِ وَالخِلَافَةِ الرَّاشِدَةِ |
| 5- فَنُّ الخَطَابَةِ فِي العَصْرِ الأُمَوِيّ |
| 6- فَنُّ الخَطَابَةِ فِي العَصْرِ العَبَاسِيّ |
| 7- فَنُّ الخَطَابَةِ فِي عَصْرِ المَمَالِيكِ |
| 8-فَنُّ الترسُّلُ فِي العَصْرِ الجَاهِلِيّ |
| 9- فَنُّ التَرَسُّلُ فِي عَصْرِ صَدْرِ الإِسْلَامِ وَالخِلَافَةِ الرَّاشِدَةِ |
| 10- فَنُّ التَرَسُّلُ فِي العَصْرِ الأُمَوِيّ |
| 11- فَنُّ التَرَسُّلُ فِي العَصْرِ العَبَاسِيّ |
| 12- فَنُّ التَرَسُّلُ فِي عَصْرِ المَمَالِيكِ |
| 13- فَنُّ الوَصَايَا |
| 14- فَنُّ المُعَاهَدَاتِ |

## مقدمة:

يشكّل الخطاب النَّثري العربيّ القديم مادَّة خصبةً ثريّة، تعدّدت صورها وتنوّعت أجناسها، ممّا يفتح آفاقًا واسعةً للبحث والدراسة والتحليل، ويتيح للباحث سُبلًا متعدّدةً لاستكشاف مضامينه واستجلاء خصائصه وسماته الفنيّة.

ويُعدّ مفهوم الخطاب النثري مفهومًا متداولًا يُستعمل للدلالة على النثر في مقابل الخطاب الشعري، ويُعنى البحث في بنية هذا الخطاب بوصفها دعامةً أساسيةً من دعائم العمل النثري من حيث فنيّته ودقّته، بما يمنح النص وحدته الفنية والدلالية ويُبرز انسجامه العام، كما يُعدّ البناء الفني في الخطاب النثري أساسًا تشكيليًا وجماليًا من أسس العمل الأدبي، إذ لا وجود لعمل فني من دون بناء فني، ولكل نص أدبي خصوصية، بنائية تتلاءم مع طبيعته وغاياته التعبيرية.

تندرج مادة بنية الخطاب النثري القديم ضمن وحدة التعليم الأساسية، إذ تُسهم في تمكين الطالب من تكوين تصوّرٍ واضحٍ وعميقٍ لأبرز أشكال الخطاب النثري القديم، والوقوف على بنيته ، بما يُمكّنه من فهم خصائصه وسماته الفنية وتحليل تحولاته عبر مختلف العصور الأدبية: الجاهلي، والإسلامي، والعباسي، والمملوكي. واكتساب مهارات قراءة النصوص النثرية القديمة واستيعاب خصائصها الأسلوبية والبلاغية، مع تعزيز مهارات النقد والتحليل والاستنتاج من خلال دراسة نماذج من النثر العربي القديم.

واستندت هذه المطبوعة البيداغوجية على مكتسباتٍ قبليّة تمثّلت في معرفةٍ عامةٍ بأبرز أشكال الخطاب النثري القديم، والإلمام بعصور الأدب العربي القديم وتطوّرها، إلى جانب امتلاك رصيدٍ أوّلي من المصطلحات الأدبية والنقدية، فضلًا عن القدرة على فهم النصوص النثرية وتحليل أفكارها العامة.

واحتوت هذه المطبوعة على محاور شكلت أهم موضوعات الخطاب النثري القديم بدءا بمدخلٍ نظريٍّ يتناول الفنون النثرية القديمة وإشكالية الأسبقية بينها، قصد الإحاطة بمختلف القضايا المرتبطة بنشأة النثر العربي القديم وتطوّره وأشكاله الفنية.

كما أولت المطبوعة عنايةً خاصةً لفنَّي الخطابة والترسّل ،بوصفهما مرتكزًا رئيسًا في بناء هذا الخطاب؛ وذلك من خلال دراسة مراحل تطور هما وتحولاتهما في الأدب العربي القديم، مع إبراز أهم سماتهما وخصائصهما الفنية ،وتحديد أبرز موضوعاتهما ووظائفهما في كل عصر، بما يكشف عن طبيعة التحولات الثقافية والفكرية التي عرفها المجتمع العربي عبر مختلف الحقب التاريخية.

ولم تغفل المطبوعة كذلك فنَّي الوصايا والمعاهدات باعتبارهما من أبرز تجليات الخطاب النثري القديم ،وأكثرها ارتباطًا بالقيم الفكرية والاجتماعية والسياسية في الثقافة العربية القديمة.

وعليه، تسعى هذه المطبوعة إلى تحقيق جملةٍ من الأهداف، من أبرزها:

- أن يتعرّف الطالب على أهمّ الفنون النَّثريّة في الأدب العربيّ القديم.

- الإلمام بأسباب نشأة هذه الفنون، وأهمّ خصائصها، وعوامل تطوّرها.
- استكناه أهمّ إشكالات النَّثر العربيّ القديم، والوقوف على أبرز قضاياه.
- التعرّف إلى أهمّ أعلام النَّثر العربيّ القديم، ومساهماتهم الفاعلة في تطويره.
- تمكين الطالب من استقراء النصوص النَّثريّة القديمة المختلفة، ودراسة مضامينها وبنيتها الفنيّة.

وقد حاولت هذه الدروس أن تجمع في منهجها بين العرض التاريخي والنظر التحليلي النقدي؛ إذ تناولت تطور الخطاب النثري القديم في سياقه التاريخي من حيث نشأته وتطوره عبر مختلف العصور الأدبية، كما عملت على تحليل نصوصه والكشف عن بنيتها اللغوية والأسلوبية والبلاغية، بما يسمح بفهم أعمق لخصائصه وسماته الفنية.

قد اعتمدت هذه المطبوعة على مجموعةٍ مهمّةٍ من المصادر والمراجع التي تفاوت حضورها؛ ومن أمات هذه المصادر: كتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، وزهر الآداب وثمر الألباب للحصري، وصبح الأعشى في صناعة الإنشاء للقلقشندي، إلى جانب كتاب الوزراء والكتّاب للجهشياري...

أمّا المراجع، فقد كان من أبرزها: كتب شوقي ضيف، ولاسيما الفن ومذاهبه في النثر العربي وتاريخ الأدب العربي، إلى جانب كتاب النثر الفني في القرن الرابع لزكي مبارك، وكتاب نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي لحسين نصار، فضلًا عن جمهرة خطب العرب في العصور العربية الزاهرة، وجمهرة رسائل العرب في العصور العربية الزاهرة لأحمد زكي صفوت.

إنّ هذه المطبوعة البيداغوجية تصبو إلى تحقيق قراءةٍ واعيةٍ لبنية الخطاب النَّثري العربيّ القديم، بحيث يتشكّل لدى الطالب رصيدٌ معرفيّ يمكّنه من التعرّف على طبيعة هذه المادَّة الغنيّة والخصبة، ويُيسّر عليه تجاوز العديد من الصعوبات التي قد تعترض مسار بحثه، في إطارٍ يجمع بين الوضوح والعمق.

كلّ الطموح أن تحتل هذه المطبوعة الموقع المناسب للجهد المبذول فيها وأن ينتفع بها طلبة الأدب العربيّ القديم والله تعالى من وراء القصد.

**د. شافية هلال**

# مَدْخَلٌ نَظَرِيٌّ إِلَى الفُنُونِ النَّثْرِيَّةِ القَدِيمَةِ

- ماهية بنية الخطاب النثري القديم
- تطور الخطاب النَّثري العربيّ القديم
- ألوان النَّثر الفني العربيّ القديم

الحصة 1

إن المتصفح للمدونة الأدبيّة العربيّة القديمة سيجد أن النَّثر لم يحظ بمثل ما حظي به قسيمه الشعر من عناية واهتمام، على الرغم من أنه أقرب من الشعر في التعبير عن الجماهير؛ لأنه أكثر ميلاً إلى السهولة في الأداء والتعبير؛ ولأنه يمثل لغة الجماهير فهو أكثر سهولة في التلقي والفهم، ومن هنا لا بد لنا من تحديد ماهية بنية الخطاب النثري القديم.

## 1. ماهية بنية الخطاب النثري القديم

### أ. مفهوم البنية:

قبل الخوض في تفكيك أنساق الخطاب النثري القديم وتبيان آلياته التكوينية، يقتضي المنهج التأسيسي البدء بتحديد مفهوم "البنية" (Structure) من منظور لغوي؛ إذ يُعد هذا المفهوم حجر الزاوية في فهم كيفية انتظام النصوص، حيث ينقلنا البحث في أصل المصطلح من الدلالة المادية المباشرة إلى دلالة الانتظام والتشكيل، وهو ما يمهد الطريق لاستكشاف المعنى الاصطلاحي الذي سيقوم عليه تحليلنا للنص النثري.

**لغة:** جاء في تعريفها: "البُنْيَة والبِنْيَة بضم الباء وكسرها وما بنيته، وهو البُنى والبِنى يقال بنيته وهي على نحو رشوة ورشاً كأن البنية الهيئة التي بنى عليها مثل المشية والركبة والبنى بالضم مقصور مثل البِنى يقال بُنيته وبُنى وبِنيته وبِنى بكسر الباء مقصور مثل جِرية، وجرى وفلان صحيح البنية أي الفطرة وأبنية الرجل أعطيته بتاء وما يبنى به داره" [1].

أما بالنسبة لأصل كلمة البنية فهي: «تشتق من الأصل اللاتيني الذي يعني البناء أو الطريقة التي يقام بها مبنى ما ثم امتد مفهوم الكلمة ليشمل وضع الأجزاء في مبنى ما [2].

**أما البنية في وضعها الاصطلاحي**؛ «هي ترجمة لمجموعة من العلاقات الموجودة بين عناصر مختلفة وعمليات أولية تتميز فيها بينهما بالتنظيم والتواصل بين عناصرها المختلفة [3].

وهذا المفهوم يتوقف على السياق بشكل واضح، فنجد نوعاً أول تستخدم فيه البنية عن قصد، ولهذا تقوم فيه بوظيفة حيوية مهمة، وسياق آخر تستخدم فيه بطريقة عملية فحسب، وما هو مؤكد أن البنية لا توجد مستقلة عن سياقها المباشر الذي تتحدد في إطاره.

يرى جيرالد برنس (**Gerald Prince**) صاحب "قاموس السرديات" «**أن البنية هي شبكة من العلاقات الخاصة بين المكونات العديدة وبين كل مكون على حدة والكل**" [4]

---

[1]- ابن منظور: لسان العرب، ج:14،ص:94 (مادة بَنَى)

[2]- فضل صلاح، نظرية البنائية في النقد الأدبي، ص:120.

[3]- المرجع نفسه،.ص:122.

[4]- جيرالد برنس: قاموس السرديات، ص:191.

إن كلمة بنية تحمل في أصلها معنى المجموع أو الكل المؤلف من عناصر متماسكة يتوقف كل منها على ما عداه ، ويتحدد من خلال علاقته بما عداه «**فهي نظام أو نسق من المعقولية التي تحدد الوحدة المادية للشيء ، فالبنية ليست هي صورة الشيء أو هيكلة أو تصميم الكلف الذي يربط أجزاءه فحسب ، و انما هي القانون الذي يفسر الشيء ومعقوليته**" [1]

وبذلك فالبنية: هي البحث عن العلاقات الداخلية التي تكوّن الظاهرة المدروسة، فهي شبكة علائقية تتكوّن من مفاصل متداخلة، وهذه المفاصل تكوّن علاقات مع الكل فهي قابلة للتفكيك والتركيب. كما تعتبر البنية وحدة مستقلّة بمعنى أنّها متكوّنة من علاقات مترابطة، وكلّ عنصر مرتبط بالآخر في سياق الكل وفي نفس الوقت تمثّل تنظيماً خاصاً بها. [2]

## ب. ماهية الخطاب:

الخطاب مصطلح ألسني حديث في الفرنسية Discourse، في الإنجليزية Discourse ،ويعني( حديث، محاضرة، خطاب، حادث، حاضر،ألقى محاضرة، وتحدث إلى...) [3].

وهو مأخوذ من **الجذر اللغوي لمادة "خطب"**؛ «الخَطْبُ: الشَّأْنُ أَو الأَمْرُ، صَغُر أَو عَظُم؛ وقيل: هو سَبَبُ الأمر. يقال: ما خَطْبُك؟ أَي ما أَمْرُكَ؟ وتقول: هذا خَطْبٌ جليلٌ، وخَطْبٌ يَسير. والخَطْبُ: الأَمر الذي تَقَعَ فيه المخاطَبة، والشأْنُ والحالُ؛ ومنه قولهم: جَلَّ الخَطْبُ أَي عَظُم الأَمرُ والشأْن. وخَطَبَ الخاطِبُ على المِنْبَرِ خَطَابَةً، بالفتحِ، وخُطْبَةً، بالضمِ، وذلك الكلامُ: خُطْبَةٌ أيضاً، أو هي الكلامُ المَنْثُورُ المُسَجَّعُ ونحوهُ. ورجلٌ خطيبٌ: حَسَنُ الخُطْبَة » [4]

ويرى **الزمخشري(ت:538هـ)** في قوله تعالى: ﴿**فَصْلَ الخِطَاب**﴾؛ «القصد الذي ليس فيه اختصار مخل ولا إشباع ممل» [5].

**يعرف الخطاب اصطلاحا:** مجموعة من النصوص (الشفوية أو المكتوبة) التي يتم تحليلها ليس فقط من حيث بنيتها اللغوية، بل أيضا من حيث سياقها الاجتماعي، والثقافي، والتاريخي.

ويعرفه **ميشال فوكو (Michel Foucault)** على أنه: «**شبكة معقدة من النظم الاجتماعية والسياسية والثقافية التي تبرز فيها الكيفية التي ينتج فيها الكلام كخطاب.** » [6]

---

[1]-مرشد أحمد، البنية والدلالة في الرواية ،إبراهيم نصر الله، ص:19.

[2]- التلازم الوثيق بين البنى: بنية المجتمع وبنية النص المكتوب (بحث منشور).

[3]-إلياس أنطوان إلياس: قاموس إلياس العصري، ص:191.

[4]- ينظر: ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، ص: 478 (مادة خطب)/ والجوهري: الصّحاح تاج اللغة وصحاح العربيّة، ص:327 (مادة خطب)

[5]-الزمخشري، أساس البلاغة، ص:125.(مادة خطب)

[6]-نعمان بوقرة: المصطلحات الأساسية في علم النص وتحليل الخطاب -دراسة معجمية-، ص:13.

فالخطاب عند فوكو مرتكز على نظم مختلفة؛ فهو شبكة تتكون من مجموعة نظم اجتماعية وسياسية وثقافية من شأنها أن تبرز لنا الكيفية التي ينتج فيها الكلام على شكل خطاب.

وهناك من يحدد الخطاب بأنه؛ «**حوار متبادل بين شخصين على الأقل، فهو عملية تلفظية حيوية في الزمان والمكان يديرها شخصان أو أشخاص بالكلام أو بغير الكلام.** »[1]

أما إيميل بينفينيست (Émile Benveniste) يعرفه بأنه: «**كل تلفظ يفترض متحدثا وسامعا تكون للطرف الأول نية التأثير في الطرف الثاني بشكل من الأشكال**، ومن ثمة فهو يميز بين نظامين من التلفظ هما الخطاب والحكاية التاريخية، وقوام الخطاب جملة الخطابات الشفوية، المتنوعة ذات المستويات العديدة وجملة الكتابات التي تنقل خطابات شفوية أو تستعير طبيعتها. »[2]

فالخطاب بوصفه مصطلحا؛ يشير إلى البنية المعقدة للغة، لا كوسيلة تواصل فحسب، بل كنظام محدد تاريخيا واجتماعيا، ويعتبر الخطاب أكثر من مجرد الكلمات الموجهة إلى الجمهور؛ بل هو ممارسة اجتماعية تشمل انتاج وتوزيع و استهلاك المعرفة والسلطة.

### ج: الخطاب النثري:

النَّثر لغة من مادَّة نثر؛ وهو رمي الشَّيء متفرقا وعكسه النَّظم وهو الضم والتَّأليف، جاء في معجم لسان العرب «**النَّثر ونثرك الشَّيء بيدك ترمي به متفرقا... والنَّظم التَّأليف، وكل شيء قرنته بآخر أو ضممت بعضه إلى بعض فقد نظمته**» [3].

والنَّثر هو الكلام الذي لا يتقيد بوزن وقافية، يقول مسكويه (421ه): «**فكذلك النَّظم والنَّثر يشتركان في الكلام الذي هو جنس لهما، ثم ينفصل النَّظم عن النَّثر بفضل الوزن الذي به صار المنظوم منظوما**»[4].

ويطلق عليه النَّثر الفني، تميزا له عن الكلام العادي، المنطوق والمكتوب الذي لا يعدّ نثرا، فالنَّثر يكون على ضربين؛ أولهما النَّثر العادي: وهو لغة الخطاب اليومي للتواصل بين الناس بكل خصائصها وسماتها المعروفة (وظيفة اتصالية إبلاغيه)، وهذا النوع من النَّثر لا يمت بالتعبير الأدبيّ لسبب بسيط أن هذه اللغة -في سياقها اليومي- لغة استهلاكية فقدت حرارتها الإبداعية وقدرتها على الاندهاش والتأثير، ومن ثم وصفها القدامى بأنها لغة سوقية/ باردة/ مبتذلة أي مألوفة ومستهلكة. وثانيهما: النَّثر الفني: وهو لغة الأدب التي تتحقق بها جماليات التأثير والاستجابة في المتلقي (الوظيفة الأدبيّة أو الشعرية) [5].

وعليه؛ **فالخطاب النَّثري فن أدبي يسمو عن لغة التبادل النفعي ليعبر عن معناة نفسية، وتجارب**

---

[1]-خليفة الميساوي: المصطلح اللساني وتأسيس المفهوم، ص:178.

[2]-محمد الباردي: إنشائية الخطاب في الرواية العربية الحديثة (دراسة)، ص:8.

[3]- ابن منظور: لسان العرب، 6/ 578 (مادة نثر) ، و6/ 667 (مادة نظم) .

[4]- أبو حيان التوحيدي ومسكويه، الهوامل والشوامل، ص: 275.

[5]- ينظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربيّ، ج:1، ص398.

**فكرية، ببيان مؤثر، وأسلوب فني جميل، فهو بذلك تشكيل لغوي خاص يتجاوز الإفهام إلى التأثير.**

ومن كل ما سبق ذكره يمكننا القول أن بنية الخطاب النثري القديم يقصد بها **النظام الذي تنتظم وفقه عناصر النص النثري وعلاقاته الداخلية بما يحقق للخطاب وحدته وتماسكه.**

إن تتبّع تطوّر أشكال الخطاب النثري القديم وتحولاتها عبر مختلف العصور الأدبية، وربطها بالسياقات الثقافية والفكرية والاجتماعية التي نشأت فيها، يتيح فهمًا أعمق لطبيعة الأدب العربي القديم وقيمه الجمالية والفكرية.

## 2. تطور الخطاب النَّثري العربيّ القديم

انطلاقا من أن الخطاب النَّثري فن أدبي يتفاعل، بطريقة أو بأخرى، مع عوامل الزمان ومعطيات الواقع، والبيئة فهو بلا ريب سيظلُّ دائما قابلا للتطور والتغير؛ وفي محاولة للتتبع مسارات الخطاب النَّثري العربيّ القديم تشير بداياته أنه لم يصل عن العرب القدامى إلا القليل منه، يقول الجاحظ (255هـ) « ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ من المنثور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره» [1].

فلم يصلنا من نثر الجاهليّين إلا النزر اليسير ناهيك ما لحق نصوصه من تحريف، ومع ظهور الإسلام الذي أحدث فتحا جديد في حياة الأمة العربيّة وقوة هائلة دفعها إلى تطور عميق، شمل جميع مناحي الحياة، فقد تطور الخطاب النَّثري تطورا محسوسا ووضحت أثار هذا التطور عمقا واتساعا، على اعتبار أن النَّثر بطبيعة بعض أجناسه الكتابيّة يُعدُّ الوجه الأنسب للحضارة التي بدأت تلقي بظلالها على المجتمع العربيّ منذ أواخر العصر الأموي [2]، إنه مما لاشك فيه أن النَّثر في عصر بيني أمية وإن كان قد احتفظ بعض الشَّيء في صدر هذه الدولة بمنهجه القديم من حيث الجزالة والقوة والبعد التكلفة والزخرف إلا أنه تعرض في كنف هذه الدولة لألوان مختلفة من التطور، أعطته طابعا متميزا، وكان نتيجة لاحتدام الفتن السياسية و الحزبية والمذهبية والدينية، وتكاثر التيارات الأجنبية التي بدأت تأخذ خطاها سريعا إلى البيئات العربيّة منذ عصر الفتوحات. [3]

وما يمكن أن نسجله بوجه عام أن المؤثرات القوية العميقة التي غيرت ملامح النَّثر العربيّ تغيرا مس شكله وموضوعه، لم تكن تظهر بشكل محسوس إلا في إبان القرن الثاني الهجري أو بالأحرى في ظل الخلافة العباسية، حينما أخذت الحياة العربيّة تتجه نحو منحنا جديد، فبدأ العرب يأخذون أنفسهم وحياتهم بأبهة الملك، وينهلون من فيض هذه العلوم الكثيرة والآداب الغزيرة التي رفدتها جداول أجنبية بعد اتساع حركات الترجمة والتدوين وامتزاج العرب امتزاجا وثيقا بالأعاجم وغيرهم، حينئذ تفاعل النَّثر تفاعلا حضاريا شديد وانعطف نحو ألوان من الفكر والعلم والثقافة بصفته الجنس الأدبيّ الأقدر على استيعاب تلك المعارف والتعبير عنها، وإيذانا بتحول

---

[1]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج: 1، ص: 186.

[2]- ينظر: زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، ص: 57.

[3]- نادية عطا خميس، النثر الفني في عهد النبوة، ص: 136.

حاسما في مساره؛ يقول شوقي ضيف: «وكل ذلك معناه أن النَّثر تهيأت له أسباب كثيرة في هذا العصر لكي ينمو ويزدهر، فقد أخذ يمتد ليستوعب العلوم والفلسفة، كما يستوعب مادَّة عقلية عميقة حتى في المجال الأدبيّ ... وكان ذلك إيذانا بتعدد شعب النَّثر العربيّ وفروعه، فقد أصبح فيه النَّثر العلمي والنَّثر الفلسفي، وأصبح فيه أيضا النَّثر التاريخي، على شاكلة ما كان عند الأمم القديمة، وحتى النَّثر الأدبيّ الخالص أخذ يتأثر بملكات اللغات الأجنبية وخاصة اللغة الفارسية» [1]

وقد وصل الخطاب النَّثري العربيّ إلى أعلى ذروته في العصر العباسي الأول في القرن الثاني الهجري لاسيما عند أعمدة الأدب العربيّ، على رأسهم عبد الحميد الكاتب (132هـ) وعبد الله بن المقفَّع ( 142هـ) وهما وإن لم يخلقا النَّثر الفني خلقا، فأنهما كان أول من وطد أسلوبه، وأجرى قواعده، ونظم منهجه، وقدمه كاملا واضحا بينا لهذه الأسباب عرف الأقدمون لهما هذه الميزة، وأشادوا بأثرهما بعد أن استطاعا بعد وقت طويل امتد من العصر الجاهليّ حتى نهاية الدولة الأمويَّة، أن يقدما لنا نثرا بعيد عن لغة التخاطب والعلم والفلسفة والتاريخ؛ نثر فني، يلذ القارئ في أسلوبه طراوته وجمال تعابيره، كما يدعوه إلى التفكير بالمعنى السامي والفكر الخلاق الذي يكمن في توليفه [2].

## 3. ألوان النَّثر الفني العربيّ القديم

لعلنا لا نجانب الصواب إذا أقررنا أن الخطاب النَّثري العربيّ القديم عرف تطورا وتحولا شملا أجناسه وموضوعاته، بدءا بالأمثال، وسجع الكهّان، والخطابة، والمنافرات، والمراسلات، والوصايا، والأخبار، والقصص والحكايات، والطُّرف والنوادر، المقامات، والمنامات، ومروراً بالمناظرات، وانتهاء بنصوص الرحلات، وأدب السّيرة.

إلا أننا ما يمكن أن نسجله أن ألوان النَّثر العربيّ القديم الأكثر حضورا وتميزا هي الخطب والرسائل، فإذا ما ذكرا، انصرفت الأذهان إليهما دون غيرهما، فأجناس الكلام حسب أبي هلال العسكري (ت395هـ) ثلاثة وهي: الرسائل والخطب والشعر، وجميعها تحتاج إلى حسن التَّأليف وجودة التركيب [3]، نظرا إلى ما اضطلعا به من أدوار ووظائف في الحياة الأدبيّة والاجتماعية والدينية والسياسية والإدارية.

إن تحديد النَّثر في الخطب والرسائل، مرده إلى عدة عوامل ساهمت بطريقة أو بأخرى في ذلك وهي:

أ. الأول عامل إداري وسياسي إذ اتخذت السلطة السياسية من الخطب و الرسائل وسيلة لتمرير خطاباتها، ولتدبير شؤون العباد والبلاد.

ب. أما العامل الثاني فذو طابع تداولي، ويتمثل في شيوع وانتشار هذين الجنسين من أجناس النَّثر وهيمنتهما على باقي الأجناس.

---

[1]- ينظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ج: 3، ص: 242، 248 .

[2]- ينظر: آثار ابن المقفع: قدم للطبعة وأشرف عليها: عمر أبو النصر، ص: 7.

[3]- أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، ص: 167.

ج. ويرجع العامل الثالث إلى الجوانب الوظيفية في الخطب والرسائل إذ تتميزان بفعاليتهما في تبليغ الخطابات، وكفاءتهما وقدرتهما على تحقيق الأهداف المتوخاة منهما.[1]

هذا وتتميز الرسائل الفنية من بين ألوان النَّثر الفني الأخرى بالمرونة الفنية والأسلوبية التي تتيح لمنشئها مجالا واسعا لإظهار مقدرته على التفنن في أسلوبها والارتقاء به إلى درجة تجعلها شعرا منثورا، ذلك أن تلك المرونة تسوغ للرسالة الفنية قبول خصائص الشعر من خيال وتصوير وتعبير عاطفي، وعناية بالزخارف المعنوية واللفظية، عدا الوزن والقافية.

إذا خلاصة ما تقدّم؛ يُعرف النثر الفني العربي القديم بأنه تشكيل لغوي جمالي يتجاوز الوظيفة الإبلاغية إلى التأثير، محققاً بنيته من خلال علاقات داخلية مترابطة. وقد تطور هذا الخطاب عبر العصور من البساطة الجاهلية إلى التعقيد العباسي متأثراً بالتحولات الحضارية والترجمة. وتعد الخطابة والرسائل أهم فنونه؛ نظراً لدورهما السياسي والإداري، ومرونتهما في استيعاب التعبيرات الأدبية والجمالية التي تمنحهما طبيعة فنية متميزة.

[1]- ينظر: حسن بن يخلف: إشكالات النثر العربي القديم و خصائصه ( بحث منشور)

## الفنون النثرية القديمة وإشكالية الأسبقية

آراء النقّاد حول أسبقية الوجود النثري

أسباب ضياع الخطاب النثري الجاهلي

الحصة 2

ممَّا لا ريبَ فيه أنَّ الخطاب النَّثري العربيّ القديم تعرض لجملة من الإشكالات التي مست كيانه وأثرت على صورته وحددت وظائفه منها ما أثاره جملة من الباحثين والدراسين للأدب العربيّ حول أسبقية الوجود والظهور أهي للخطاب النَّثري أم للخطاب الشعري؟ وهل يمكننا القول بوجود نثر فني في العصر الجاهليّ؟.

## 1. آراء النقّاد حول أسبقية الوجود النثري:

يعد المستشرق الألماني" **كارل بروكلمان"** من الأوائل الذي أثاروا هذه الفكرة في أدبنا العربيّ عندما قال: « ينبغي أن يكون أقدم القوالب الفنية العربيّة هو السجع، أي النَّثر المقفى المجرد من الوزن». [1]

وهذ الرأي يحدد ان السجع الشفهي يمثل البدايات الأولى لظهور الشعر العربيّ، وعليه يكون النَّثر الشفهي العربيّ سابق في الوجود على الشعر العربيّ، بينما ذهب فريق من المستشرقين مذهبا مخالفا لرأي بروكلمان مضمونه أن النَّثر مرحلة متأخرة جدا من مرحلة الشعر عند الشعوب، وهذا ينطبق على النَّثر العربيّ؛ فالنَّثر لا ينشأ إلا وقت بلوغ الأمم درجة أعلى في سير رقيها في المدينة والآداب [2].

وقد تبعهم في هذا التوجه عميد الأدب العربيّ "**طه حسين"** الذي يرى أن العرب في الجاهليّة كانوا يعيشون عيشة بدائية أولية، والحياة الأولية لا تتطلب النَّثر الفني، لأنه لغة العقل بقدر ما تتطلب الشعر لأنه لغة العاطفة والخيال، وعليه فالنَّثر« لا يظهر حتى تقوى هذه الملكة المفكرة التي نسميها عقل، وحين تظهر وتشيع هذه الظاهرة الاجتماعية التي نسميها الكتابة.» [3]

وقد ترتب عن هذه الآراء والاحتمالات إلى الذهاب للقول بأن النَّثر الفني العربيّ وجوده ارتبط بالإسلام، بل تعداه إلى نفي وجود نثر فني عربي قبل العصر العباسي الأول على يدي **عبد الله بن المقفع**، وهذا ما نجده ماثلا في محاضرات المستشرق الفرنسي وليم مارسيه المعنونة: **"أصول النَّثر الأدبيّ العربيّ"** [4]، إلا أن المتصفح للمدونة النَّثرية العربيّة القديمة يثبت عكس هذه الفرضيات، ويرجح أسبقية وجود الخطاب النَّثري على الخطاب الشعري سواء أكان هذا الوجود تاريخيا أو منطقيا وعقليا ليمتد إبداعيا.

فعلى المستوى التاريخي النَّثر هو الأصل في الكلام، ولم تتكلم العرب أولا إلا به، فهو أسبق من الشعر، يقول الباقلاني (403ه): « والعرب لم تتكلم أولا إلا بالمنثور بلا وزن ولا تقفية لأغراضها في ذلك وتفاهمها...» [5]، كما أن عبد الكريم النهشليّ (405ه) يمدنا هو الآخر بنص آخر مواز له، يقول: « أصل الكلام منثور، ثم تعقبت العرب

---

[1]- كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية: عبد الحليم النجار، ج: 1، ص: 51/ ومن الباحثين العرب المؤيدين له: أحمد حسن الزيات في كتابه (تاريخ الأدب العربي) ومحمد هاشم عطية في كتابه (الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي)

[2]- ينظر: زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، ج: 1ص: 35 وما بعدها/ كارلو نالينو: وتاريخ الآداب العربية (من الجاهلية حتى عصر بني أمية)، ص: 79.

[3]- طه حسين، في الأدب الجاهلي، ص: 286

[4]- ينظر: وليم مارسيه: أصول النثر الأدبي العربي"، ص: 96 وما بعدها.

[5]- الباقلاني: نكت الانتصار لنقل القرآن، ص: 270.

واحتاجت إلى الغناء بأفعالها وذكر سابقيها ووقائعها، وتضمين مآثرها...» [1]، وفي نفس المسار نقف أيضا عند نص صاحب كتاب العمدة، الذي يشير فيه إلى هذا السبق، يقول: « كان الكلام كله منثورا فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها....فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام، فلما تم له وزن سموه شعرا لأنهم شعروا به، أي فطنوا...» [2].

والأمر ليس متوقف على الناحية التاريخية فحسب فالعقل والمنطق يرجح أسبقية النَّثر على الشعر فيما تعلق بلغة الإنسان، ونلمس ذلك في قول أبو حيان التوحدي (414ه): «ألا ترى الإنسان لا ينطق في أول حاله من لدن طفولته إلى زمن مديد إلا المنثور... وليس كذلك المنظوم، لأنه صناعي داخل في حصار العروض، وأسر الوزن وقيد التَّأليف.» [3]، ومادام الشعر صناعي فهو فرع لاحق عن النَّثر الطباعي الأصل السابق.

أما على المستوى الإبداعي فإن القدامى ينظرون في أغلب الأحيان إلى النَّثر على أنه أصل العملية الإبداعية الشعرية، وإن جعلوا الشعر والنَّثر في تزامن وجودي، فالشاعر أثناء عملية الخلق الشعري لا يفكرا إلا نثرا، ثم يحول ما يجول بخاطره من معان ويصيغها شعريا، أي يبدع في البداية نثرا؛ وهذ ما يجسده قول ابن طباطبا العلوي (322ه): « فإذا أراد الشاعر بناء قصيدة مخض المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره نثرا وأعد له ما يلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه، والقوافي التي توافقه، والوزن الذي يسلس له القول عليه...» [4]،

وما يثبته أيضا صاحب الصناعتين بقوله: « وإذا أردت أن تعمل شعرا، فأحضر المعاني التي نظمها فكرك، و أخطرها على قلبك، وأطلب لها وزنا، يتأتى فيه إيرادها، وقافية يحتملها...» [5]

ولاريب أن هذه الطريقة في التفكير ستؤدي لامحالة إلى انشطار العملية الإبداعية إلى مضمون سابق وشكل لاحق؛ وهذا سيفضي بدوره إلى مطب اعتبار المعنى نواة للمنثور، واللفظ نواة للمنظوم [6].

## 2. أسباب ضياع الخطاب النثري الجاهلي:

وبغض النظر عن ما دار حول مسألة الأسبقية للخطاب النَّثري أم لا، فإن من الحقائق التي لا تحتاج إثباتها إلى دليل أن العرب في جاهليتهم، كان لهم نثر أدبي ضاع معظمه؛ وعن أسباب ضياعه منها شيوع الأمية، وندرة التدوين، وميل الذاكرة لحفظ عن حفظ المنثور إلى حفظ المنظوم؛ يقول زكي مبارك: «كان للعرب قبل الإسلام نثر فني يتناسب مع صفاء أذهانهم، وسلامة طبائعهم، ولكنه ضاع لأسباب أهمها شيوع الأمية وقلة التدوين،

---

[1]- النهشليّ، الممتع في صناعة الشعر، ص: 11.

[2]- ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج: 1، ص: 10.

[3]– أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، تحقيق: هيثم خليفة الطعيمي، ج: 1، ص: 250.

[4]- ابن طباطبا العلوي: عيار الشعر، ص: 43.

[5]- أبو هلال العسكري: الصناعتين الكتابة والشعر، ص: 157.

[6]- ينظر: توفيق الزيدي: مفهوم الأدبية في التراث النقدي إلى القرن الرابع الهجري، ص: 95.

وبعد ذلك عن الحياة الجديدة التي جاء بها الإسلام ودونها القرآن [1]. وما وصل إلينا من نثر فني جاهلي على قلّته؛ فقد أثر عن الجاهليّين صور نثرية منها فن الخطابة رأسها خطب الوفود في بلاط كسرى، وهي خطب طويلة أثبتها صاحب العقد الفريد في جزئه الأول، ناهيك عن سجع الكهان، كما أثير عنهم بعض الوصايا والأمثال والحكم، بالإضافة إلى بعض القصص التي يرونها في أسمارهم حول وقائعهم وأيامهم، مما هو مبثوث في مظان تراثنا الأدبيّ [2].

ثم إنّ المادَّة النَّثرية التي وصلت تبقى هي الأخرى مدعاة للشك والارتياب عند كثير من الباحثين والدارسين، بحجة مخالطة نصوصه الأصلية من نصوص ذكر أنها وضعت في العصر الأموي والعباسي، يقول شوقي ضيف: «إن ما يروى عن هشام بن محمد الكلبي من أنه رأى في بيع الحيرة بعض مدونات استخرج منها أخبار العرب فإننا لا نستطيع الاعتماد على روايته، لأنه متهم في كثير مما يرويه. حتى لو صحت روايته فأغلب الظن أن ما شاهده من تلك المدونات لم يكن مكتوبا بالعربيّة، وإنما كان مكتوبا بالسريانية التي كانت شائعة في الحيرة قبل الإسلام» [3].

ويبقى الخطاب النَّثري الفني الجاهليّ على قلته وضياعه، والارتياب الذي دار حول صحة نصوصه، لا يرقى إلى إلغاء وجوده الفاعل في حياة العرب الجاهليّين.

وعليه خلاصة ما أسلفناه؛ ثارت إشكاليات نقدية حول أسبقية الخطاب النثري أو الشعري، حيث ذهب بعض المستشرقين والحداثيين لنفي وجود نثر فني عربي قبل الإسلام، معتبرين الشعر أسبق لكونه لغة العاطفة. في المقابل، يؤكد التراثيون (كالباقلاني وابن طباطبا) أسبقية النثر تاريخياً ومنطقياً كأصل للفكر البشري وللعملية الإبداعية التي تسبق صياغة الشعر. ويعود ضياع معظم النثر الجاهلي إلى شيوع الأمية وندرة التدوين، إضافة إلى تفضيل الذاكرة العربية حفظ المنظوم، مما جعل ما وصل إلينا من نصوص قديمة موضع شك وارتياب، رغم كونه شاهداً على وجود فاعل لنثر فني سابق للإسلام.

---

[1]- ينظر: زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، ج: 1 ص: 39.

[2]- ينظر: مصطفى البشير قط، الخطاب النثري في النقد العربي القديم، ص: 16.

[3]- شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص: 17.

## فنّ الخطابة في العصر الجاهليّ

- دواعي الخطابة في العصر الجاهليّ
- أنواع الخطب في العصر الجاهليّ
- أشهر الخطباء في الجاهليّة وسننهم
- خصائص فن الخطابة في العصر الجاهليّ
- نموذج تطبيقي من فن الخطابة في العصر الجاهليّ: خطبة قُسُّ بن ساعدة الإيادي

الحصة 3

الخطابةُ لونٌ من ألوان النَّثر الفنّي، وهي فن قديم قدم الحاجة إلى الكلام والإقناع، عرفته معظم الشعوب، وانتشر في آداب الأمم قديما وحديثا، يقول أرسطو: «هي الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع في أي موضوع كان»[1].

فهي فن مخاطبة الجمهور بالاعتماد على الإقناع والاستمالة والتأثير، اشتقت لفظة الخطابة من الخطب أي: الأمر الجلل، لأنّ الخطابة تقوى إبان الخطوب بين القبائل جاء في لسان العرب: « الخطب الأمر الذي تقع فيه المخاطبة، ومنه قولهم: جلّ الخطب أي عظم الأمر والشأن»[2].

والخطابة تُثير عُقول النّاس، وتُلهب مشاعرهم، وتستنفر طاقاتهم الكامنة في الوجدان، وأكثر ما كانت تقال في المواسم والمجامع والأسواق، وكان للخطابة في العصر الجاهليّ شأن أي شأن، يقول أبو عمرو بن العلاء: «كان الشاعر في الجاهليّة يقدم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم، ويفخم شأنهم، ويهول على عدوهم ومن غزاهم، ويهيب من فرسانهم، ويخوف من كثرة عددهم، ويهابهم شاعر غيرهم، فيراقب شاعرهم، فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة رحلوا إلى السوقة وتسرعوا إلى أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر»[3].

وعلى هذا يقول الجاحظ: «كان الشاعر أرفع قدرا من الخطيب، وهم إليه أحوج لرده مآثرهم عليهم، وتذكيرهم بأيّامهم، فلما كثر الشعر صار الخطيب أعظم قدرا من الشاعر»[4].

## 1. دواعي الخطابة في العصر الجاهليّ

تهيّأت للخطابة أسبابها ودواعي في العصر الجاهليّ، وهي كالآتي:

أ. كثرة الخصومات وما تنتهي إليه من حرب أو سلم.

ب. وجود المجاميع على رأسها الأسواق التي أضحت مكانا خصابا للخطابة، ففيها يلتقون فيتفاخرون ويتباهون بأنسابهم وأحسابهم، وقد يدخل بعضهم في منافرة مع غيره.

ج. كثرة الوفادة والسّفارة بين رؤساء القبائل، وإلى الملوك خاص إمارة الغساسنة والمناذرة. قال أوس بن حجر يرثي فضالة بن كلدة الأسدي:

أبا دليجة من يكفي العشيرة إذ أمسوا من الأمر في لبس وبلبال

أم من يكون خطيب القوم إذ حفلوا لدى الملوك ذو أيد وإفضال[5]

د. عادات العرب في الجاهليّة التي وسعت نطاق الخطابة وأنواع الخطب؛ كأن يتقدم لخطبة المرأة نيابة عن

---

[1]- أرسطو طاليس، فن الخطابة، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، ص: 14.

[2]- ابن منظور: لسان العرب، ج 2، ص: 855 (مادة خطب) .

[3]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج: 1، ص: 241.

[4]- المرجع نفسه، ج: 4، ص: 83.

[5]- قدامة، نقد الشعر، ص140/ اللبس: الشبهة والإشكال وعدم الوضوح، البلبال: شدة الهم والوسواس، حفل القوم: احتشدوا.

الراغب في زواجها سيد من عشيرته؛ فيعدد مآثر الخاطب وخصاله، ذكر الجاحظ أن في مثل هذا الموقف أن يطيل الخاطب ويقصر المجيب [1].

## 2. أنواع الخطب في العصر الجاهليّ

عرف العصر الجاهليّ أنواع كثيرة من الخطب تختلف باختلاف الدواعي التي تستوجبها فقد كان العربيّ يلجأ إليها للمفاخرة والمنافرة، وللدّفاع عن نفسه وعن قبيلته وقومه، وإصلاح ذات البين، أو اشتعال نار الحرب وإثارة الحمية والحث على القتال والثأر، وللسّفارة بين رؤساء القبائل، وإلى الملوك كما احتاجوا إليها في خطب الزواج، والتهنئة، والمواعظ، وأشهر أنواع الخطب الجاهليّة:

أ. **خطب المنافرة:** المقصود بها الخطب التي تلقى بين يدي حكم يلجأ إليه المتخاصمان للحكم لاحدهما بالتفوق على الآخر، والمنافرة والمفاخرة بمعنى واحد، وهي المباهاة في الجمع المحتشد بفضائل الأصل والنسب وعلو المنزلة؛ وأشهر المنافرات منافرة علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل حينما تنازعا الرياسة حيث تنافرا إلى "أبي سفيان بن حرب"؛ قال علقمة لعامر: «إني أسمى منك سمة، وأطول منك قمة، و أحسن منك لمة، وأجعد منك جمة، وأسرع منك رحمة، وأبعد منك همة» [2].

ب. **خطب الوعظ:** وهي خطب تتسم بطابع الوعظ تحُثّ على التزام مكارم الأخلاق، والصفات النبيلة، والمحاسن التي يرقى بها المُجتمع، تلقى بعد تأمل عميق ومطول في شؤون الدنيا وتفضي إلى حقائق قد غفل عنها قومه فيحاول إرشادهم إليها، قعد المأمون الحارثي في نادي قومه؛ فنظر إلى السماء والنجوم، ثم أفكر طويلًا، ثم قال: « أرعوني أسماعكم، وأصغوا إلي قلوبكم؛ يبلغ الوعظ منكم حيث أريد، طمح بالأهواء الأشر، وران على القلوب الكدر، وطخطخ الجهل النظر، إن فيما ترى لمعتبرًا لمن اعتبر... عاجز مثر، وحول مكد، وشاب مختضر، ويفن قد غبر، وراحلون لا يئوبون، ...أيها العقول النافرة، والقلوب النائرة، أنى تؤفكون، وعن أي سبيل تعمهون، وفي أي حيرة تهيمون، وإلى أي غاية توفضون... » [3].

ج. **خطب الحرب:** وهي الخطب التي تلقى لإشعال نار الحرب وتأجيجها والحث على القتال، وبث روح الحماسة في النفوس، والتحفيز على الثبات والإقدام أمام العدو، خاصة وأن الصراع شبه دائم بين القبائل العربيّة الجاهليّة، وقد تتعدى الخطبة من إطار الصراع بين القبائل إلى إطار القومية العربيّة وإثارة الحمية.

من ذلك خطبة هانئُ بنُ قَبِيْصَةَ الشَّيْبَانِيُّ التي يُحَرِّضُ فيها قَومَهَ على قتال عدوهم الفارسي" **يوم ذي قار**" «

---

[1]- الجاحظ: البيان والتبيين، ج: 1، ص: 114.

[2]- أحمد زكي صفوت: جمهرة خطب العرب في العصور العربية الزاهرة، ج: 1، ص: 42.

السمة: القرابة. اللمة: الشعر المجاور للشحمة الأذن. الجمة: مجتمع شعر الرأس.

[3]- المرجع نفسه، ج: 1، ص: 39- 40.

طمح: ارتفع وعلا وذهب. ران: غلب. طخطخ: أظلم. وحول مكد: رجل حول: شديد الاحتيال، وأكدى: لم ينجح. وشاب مختضر الذي يموت حدثًا، وهو مأخوذ من الخضرة كأنه حصد أخضر. واليفن: الشيخ الكبير. النائرة النافرة، نارت نورًا بفتح النون، ونوارًا بفتحها وكسرها: نفرت. توفضون: تسرعون.

يا معشرَ بَكْرٍ، هَالِكٌ مَعْذُورٌ خيرٌ مِن نَاجٍ فَرُورٍ. إنَّ الحَذَرَ لا يُنْجِي مِن القَدَرِ، وإنَّ الصَّبرَ مِن أسبابِ الظَفَرِ. المَنِيَّةُ ولا الدَّنِيَّةُ، استقبالُ الموتِ خيرٌ مِن استدبارِه، الطَّعْنُ في ثُغَرِ النُّحورِ أَكْرَمُ مِنه في الأعجازِ والظهورِ. يا آلَ بكرٍ، قاتِلُوا فما للمنايا مِن بُدٍّ. »[1]

د. **خطب الزواج أو الإملاك:** وهذا النوع من الخطب يعد مظهر من رقي العرب، وشكل من أشكال التعبير عن تواصلهم الإنساني، ولبه في يعلن الخطيب مناقب الخاطب ليظفر بالقبول من أهل المخطوبة، وربما نهض خطيب من قوم المخطوبة فتكلم؛ فيكون كلامه ردا لبقا يؤلف الناس، ويبين مكارم الأخلاق؛ ومن أشهر خطب الزواج خطبة أبي طالب للسيدة خديجة رضي الله عنها لابن أخيه محمد صلى الله عليه وسلم: «الحمد لله الذي جعلنا من زرع إبراهيم وذرية إسماعيل، وجعل لنا بلدا حراما، وبيتا محجوجا، وجعلنا الحكام على الناس. ثم إن محمد بن عبد الله ابن أخي من لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح عليه برا وفضلا وكرما وعقلا ومجدا ونبلا...»[2]

هـ. **خطب الصلح:** وهي خطب تقام على إصلاح ذات البين بين المتخاصمين والمتنافرين وحل عقد النزاع وهذا بتدخل أصحاب الرأي الرزين والقول السديد وذوى العزم من أهل المكانة، فيقضون على العداوة التي كانت بين المتخاصمين، ويحثونهم على نبذ الصراع ولم الشمل وأن الصلح أجمل، ومن أشهر ما أوثر من خطب إصلاح ذات البين خطبة" **قيس بن خارجة** "التي قالها إثر حرب **"داحس والغبراء"** ويروى أنه ظل يخطب إلى الليل، وقد سماها العرب "**الخطبة العذراء**"[3]. ولم تصل إلينا هذه الخطبة شأنها في ذلك شأن كثير من الخطب المشهورة، وفي هذا المقام تعد خطبة مرثد الخير في سبيع بن الحارث وميثم بن مثوب اللذان تنازعا الشرف حتى تشاحنا، وتأجج الصراع بينهما فخيف أن ينتهي بإبادة حيهما، من أشهر خطب إصلاح ذات البين ومما جاء فيها: « إن التخبط وامتطاء الهجاج، واستحقاب اللجاج، سيقفكما على شفا هوة، في توردها بوار الأصلية، وانقطاع الوسيلة، فتلافيا أمر كما قبل انتكاث العهد، وانحلال العقد، وتشتت الألفة.. فقد عرفتم أنباء من كان قبلكم من العرب ممن عصى النصيح، وخالف الرشيد، وأصغى إلى التقاطع، ورأيتم ما آلت إليه عواقب سوء سعيهم وكيف كان صيور أمورهم، فتلافوا القرحة قبل تفاقم الثأي»[4].

و. **خطب التعزية والتهنئة:** كثر هذا النوع من الخطب عند عرب الجاهليّة نظر لطبيعة حياتهم القائم على الحزن والفرح، ففي خطب التعزية حاولوا أن يهونوا من شأن الدنيا، وأن يزهدوا في ترفها، لأنها إلى زوال؛ فقد عزى **أكثم بن صيفي** ملك **الحيرة عمرو بن هند** بفجيعة فقد أخيه فقال: « إن أهل هذه الدار سفر، لا يحلون عقد الرحال إلا في غيرها، وقد أتاك ما ليس بمردود عنك، وارتحل عنك ما ليس براجع إليك، وأقام معك من

---

[1]- أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في العصور العربية الزاهرة، ج: 1، ص: 37/ الثغر جمع ثغرة بالضم: وهي نقرة النحر بين الترقوتين والثغرة بالفتح: كل عورة منفتحة.

[2]- المرجع نفسه، ج: 1، ص: 77.

[3]- الجاحظ، البيان والتبين، ج: 1، ص: 348.

[4]- أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في العصور العربية الزاهرة، ج: 1، ص: 10/ الهجاج: ركوب الرأس. استحقاب: هذا مثل وهو من الحقيبة أو من الحقاب، وهو بريم تشد به المرأة وسطها, الأصيلة: الأصل. الثأي: الإفساد والجراح.

سيظعن عنك، ويدعك...» [1]

أما في التهنئة فكانوا يذكرون فضل المهنأ، ويذكرونه بفضل الله عليه، وكأنهم بذلك يكفونه عن الغرور، ومن نماذج هذه الخطب؛ تهنئة عبد الله بن هاشم سيف بن يزن باستعادة ملكه من الحبشة، يقول: : «إن الله تعالى- أيها الملك- أحلك محلا رفيعا، صعبا منيعا، باذخا شامخا، وأنبتك منبتا طابت أرومته، وعزت جرثومته. أشخصنا إليك الذي أبهجك بكشف الكرب الذي فدحنا، فنحن وفد التهنئة، لا وفد المرزئة» [2].

## 3. أشهر الخطباء في الجاهليّة وسننهم:

ومن أشهر خطباء العرب المفوهين في الجاهليّة قسّ بن ساعدة الإيادي خطيب عكاظ، وقيس بن خارجة بن سنان خطيب داحس والغبراء، هانئ بن قبيصة خطيب شيبان في يوم ذي قار، وعمرو بن كلثوم التغلبي، وأكثم بن صيفي التميمي، وغيرهم... [3].

وقد تعارف خطبائهم على جملة من السنن والتقاليد في خطابتهم، فكانوا يخطبون على رواحلهم في الأسواق والعظام والمجامع الكبار، وقد يضعون العمامة فوق رؤوسهم وكانوا إذا خطبوا في السلم وقفوا وفي أيديهم العصا، أما في الحرب فكانوا يحملون القوس، وأشار إلى ذلك لبيد بن ربيعة إذ يقول: «ما إن أهاب إذا السرادق عمّه قرع القسي وأُرعش الرعديد» [4].

وقد استحسنوا في الخطيب حضور البديهة، والقدرة على ارتجال الكلام، ورباطة الجأش، وسلامة النطق، وجلال الهيبة، وكانوا يعيبون فيه التنحنح والارتعاش والحصر والتعثر في الكلام، يقول أبو العيال الهذلي: «ولا حَصر بخطبته إذا ما عزّت الخطب» [5].

وممّا تجدر الإشارة إليه أن هذه السّنن كانت في بعض الأحيان السبب في رواج خطبة ما وتخليدها.

## 4. خصائص فن الخطابة في العصر الجاهليّ

- كانت الخطبة نظاما متميزا من الكلام تختار له الألفاظ بعناية ويحرص فيه الخطيب على تركيز المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة.
- اعتمادها على السجع، فمعظم ما وصلنا منها مسجوع، فقد كان الخطباء يستخدمون الأسجاع عند المنافرة والمفاخرة بينما كان يستعملون المنثور المرسل في خطب الصلح وسل السخيمة وعند المعاقدة والمعاهدة، وكأنهم عرفوا في الجاهليّة لونين من الخطابة لونا مسجوعا ولونا مرسلا.

---

[1]- أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في العصور العربية الزاهرة، ج: 1، ص: 37- 38.

[2]- المرجع نفسه، ج: 1، ص: 76.

[3]- ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، ج: 1، ص: 116، 308، 365.

[4]- المرجع نفسه، ج: 1، ص: 372.

[5]- السكري، شرح أشعار الهذليين، ج: 1، ص: 424.

- كثيرا ما تكون جمل الخطبة قصيرة لا تتجاوز فقرتين أو ثلاث فقرات قصار.
- كثرة الأمثال، وقلة الصور البيانية.
- الجهارة والمباشرة، وكثرة صيغ التفضيل.
- قد تطول الخطبة، وقد تقصر، ولكل منهما مقام وموضع وقدر من العناية.[1]

## 5. نموذج تطبيقي من فن الخطابة في العصر الجاهليّ: خطبة قُسُّ بن ساعدة الإيادي:

ونقدم خطبة قُسُّ بن ساعدة الإيادي التي ألقاها في سوق عكاظ كنموذج لأشهر خطب الجاهليّة، تركز على حتمية الموت، ودعوة للتأمل في آيات الكون للوصول إلى التوحيد. أثارت إعجاب النبي محمد صلى الله عليه وسلم الذي رآها قبل البعثة؛ وقال: "يرحم الله قسًا، أما إنه ليبعث يوم القيامة أمة وحده بعكاظ على جمل أحمر، فقال: «يرحم الله قُسًّا، إني لأرجو أن يبعث يوم القيامة أمة واحدة ».

أ. **نص الخطبة:** يقول *قُسُّ* بن ساعدة: «أيها الناس ! اسمعوا وعوا.. من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، ليلٌ داج، ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر، وجبال مرساة، وأرض مدحاة، وأنهار مجراه، إن في السماء لخبرا، وإنّ في الأرض لعبرا، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون؟ أرضوا فأقاموا أم تركوا فناموا؟... يقسم قس بالله قسما لا إثم فيه، أنّ لله دينا هو أرضى لكم وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه، إنكم لتأتون من الأمر منكرا، ثم أنشأ بعد ذلك يقول: «في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر ورأيت قومي نحوها تمضي الأكابر والأصاغر لا يرجع الماضي إليَّ ولا من الباقين غابر أيقنت أني لا محالة حيث صار القوم صائر»[2].

ب. **صاحب الخطبة:** قُسُّ بن ساعدة الإيادي هو خطيب العرب وشاعرها وحليمها وحكيمها وحكمها في عصره، ينتمي إلى قبيلة إياد بنجران، كان يؤمن بالبعث، ويدين بالتوحيد، ويدعوا الناس إلى نبذ عبادة الأصنام، وتوحيد الله بالعبادة، ضرب به المثل في البلاغة والموعظة الحسنة يقال: (ابلغ من قس)، يقال: إنه أول من علا على شرف وخطب عليه، وأول من اتكأ عند خطبته على سيف أو عصا، وهو أول من قال: «البينة على من ادعى واليمين على من أنكر». عمّر قس طويلا ومات قبل البعثة أي حوالي سنة 600م[3].

---

[1]- ينظر: عفت الشرقاوي: دروس ونصوص في قضايا الأدب الجاهلي، ص162- 163.

[2]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج: 1، ص: 308- 309/ داج: مظلم: ساج: ساكن، الأبراج: واحد الأبراج التي تقابلها الشمس في طريقها طول السنة، تزهر: تضيء وتتلألأ، مدحاة: مدحوة مبسوطة، لخبرا: الدليل على خالق عظيم..

[3]- ينظر: الأصبهاني، الأغاني، 11/ 5261.

يقول الجاحظ: «ولإياد خصلة ليست لأحد من العرب، لأن الرسول هو الذي روى كلام قُسُّ بن ساعدة وموقفه على جمله بعكاظ وموعظته، وهو الذي رواه لقريش وللعرب، وهو الذي عجّب حسنه وأظهر من تصويبه، وهذا إسناد تعجز عنه الأماني وتنقطع دونه الآمال»[1].

ج. **دراسة الخطبة:** تنتمي خطبة قُسُّ بن ساعدة الإيادي إلى خطب الوعظ التي تركز على تذكير الناس بحتمية الموت والفناء، وعظمة آيات الكون كدليل على وجود خالق واحد، وقد قامت الخطبة على ترتيب منطقي متدرّج يجعل السامع ينتقل من التنبيه إلى العبرة ثم الدعوة للحق.

بدأت الخطبة بدعوة الناس للإنصات فهي بداية صادمة توقظ العقل: "أيها الناس اسمعوا وعوا" بحقيقة الفناء وسرّ الوجود، وهو افتتاح إنشائي (نداء + أمر) يوقظ الانتباه ويهيئ النفوس لتلقي الرسالة، وفيه تقرير مباشر لمسؤولية السامع عن الفهم والعمل، ينتقل بعدها إلى عرض مشاهد الكون: " ليلٌ داج، ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، ... وأنهار مجراه "، في جمل قصيرة متوازنة الإيقاع، ليجعل من هذه المشاهد دلائل حسية على وجود مدبر واحد وقدرة إلهية عظيمة، ثم تستعرض فناء الأمم السابقة وزوال الملوك والأقوياء ة مهما بلغ سلطانهم (من بنى وشاد، ثمود، عاد، الفراعنة)، فيُظهر تناقض قوتهم السابقة مع ضعفهم بعد الموت، لتأكيد فكرة الفناء وزوال كل متكبر، وبناء حالة من الاتعاظ الداخلي عند السامع يلي ذلك توجيه السامعين لطلب الدين الحق، والتنبه من غفلة التعلّق بالدنيا، والتنبيه إلى أن لله دينًا أهدى وأرضى من دين الشرك الذي عليه العرب في زمانه، فتأتي الدعوة نتيجة منطقية لما سبق لا دعوة مفاجئة، فينسجم البناء الحُجّي للخطبة.

وتنتهي الخطبة بمقطوعة شعرية للتأكيد على حتمية الموت: " أيقنت أنّي لا محالة حيثُ صار القومُ صائر "، وهي نهاية حاسمة تلخص الفكرة المحورية (حتمية المصير) في صورة إيقاعية مؤثرة تجمع بين التأمل الذاتي والعظة العامة، فتغلق البناء بإحكام دلالي ونغمي.

- استعمال الجمل القصيرة الواضحة، والألفاظ الفصيحة المأنوسة، بحيث يتحقق مبدأ ما قلَّ ودلَّ مع قوة في السبك وسلامة في التركيب.
- تنوع الأساليب بين الخبر والإنشاء (نداء، أمر، استفهام، قسم)، مع كثرة أدوات التوكيد، مما يجمع بين الإقناع العقلي والتأثير العاطفي في آن واحد.
- إكثار من السجع، والطباق، والمقابلة، والجناس، في صورة غير متكلّفة، الأمر الذي صنع موسيقى داخلية جذابة رسّخت المعاني في أذهان السامعين.
- حضور الصور الحسية القريبة من بيئة العربيّ (ليل داج، نهار ساج، بحار ذات أمواج...) بما يمنح النص طابعاً تصويرياً وإيحائياً قويا.

---

[1]- الجاحظ: البيان والتبيين، ج: 1، ص: 52.

وعليه فخطبة قُسُّ بن ساعدة الإيادي تحقق وضوح الفكرة، وقوة الحجة، وروعة الإيقاع والتصوير، وهو ما جعلها مثالاً بارزاً لبلاغة الخطباء في الجاهليّة [1].

تُعد الخطابة في العصر الجاهلي لونا نثريا بارزا وفنا تواصليًّا يعتمد على الإقناع والتأثير، وقد ارتفعت مكانة الخطيب بمرور الوقت حتى فاقت مكانة الشاعر؛ نظراً لحاجة القبائل إليها في فض الخصومات، وإصلاح ذات البين، والسفارة بين الملوك، إضافة إلى أدوارها في المفاخرة والمنافرة والوعظ. اتسمت الخطابة الجاهلية بخصائص فنية فريدة؛ كقصر الجمل، واستخدام السجع غير المتكلف، وكثرة الأمثال، والاعتماد على الارتجال، مع التزام الخطباء بسنن وتقاليد محددة كحمل العصا في السلم والقوس في الحرب. وتعددت أنواعها لتشمل خطب الحرب، والزواج، والصلح، والتعزية، والتهنئة، مما يعكس نضجاً اجتماعياً وفكرياً. ويبرز "قُسّ بن ساعدة الإيادي" كأشهر خطباء عصره، حيث تعد خطبته في سوق عكاظ نموذجاً مثالياً للبلاغة الجاهلية؛ إذ وظّف فيها الأساليب الإنشائية والترتيب المنطقي المتدرج لإثارة العقول والنفوس حول حتمية الموت وضرورة التوحيد، مما جعلها نصاً خالداً في الذاكرة الأدبية العربية.

[1]- ينظر: سماح محمد سمير الجعبة، نماذج من الخطب والوصايا في العصر الجاهلي (دراسة بلاغية تحليلية)، ص: 42- 48.

فن الخطابة في عصر صدر الإسلام والخلافة الراشدة

- دوافع وادواعي ازدهار الخطابة في عصر صدر الإسلام والخلافة الراشدة
- أغراض فن الخطابة في عصر صدر الإسلام والخلافة الراشدة
- خصائص وسمات الخطابة في عصر صدر الإسلام والخلافة الراشدة
- أشهر الخطباء في عصر صدر الإسلام والخلافة الراشدة
- نموذج تطبيقي لفن الخطابة الإسلامية؛ خطبة حجّة الوداع

الحصة 4

يُقصد بعصر صدر الإسلام والخلافة الراشدة الفترة من بعثة النبي محمد ﷺ سنة 610م تقريبًا إلى نهاية حكم علي بن أبي طالب وتنازل الحسن لمعاوية سنة 41هـ/ 661م تقريبًا هذا العصر يُعد من أهم العصور في التاريخ الإسلامي من حيث التأسيس والتوسع.

تمتع فن الخطابة في عصر صدر الإسلام والخلافة الراشدة بدور ريادي حاسم بفضل مرونتها وقابليتها للحجج والبراهين والمناقشات وفاعليتها المتميزة بقوة تأثيرها في نشر تعاليم الدعوة ورسم معالم طريق جديد تحت راية الإسلام سواء في وجوده صلى الله عليه وسلم أو في رحاب خلفاؤه الراشدين.

## 1. دو افع ودواعي ازدهار الخطابة في عصر صدر الإسلام والخلافة الراشدة

انتشرت الخطابة في الإسلام انتشارا واسعا ونشطت نشاطا كبيرا فقد أتيح لها من الدوافع والدواعي ما لم يتح لها في العصر الجاهليّ؛، ذلك لأن الحياة العربيّة في الإسلام قد تغيرت سبلها واختلفت أوضاعها، حيث انتقل الناس إلى نظام جديد قد غير كثيرا من أحوالهم وشؤونهم العامة، كان يستدعي ألسنة قوية تعمل في النفوس عمل السحر حتى تستتب الأحوال، ويسقر الأمر نهائيا لهذا الدين الجديد، ويمكن أن نجملها فيما يأتي: [1]

أ. دين جديد يحتاج إلى الداعية والحماية ونشر تعاليمه وتبين أهدافه الكبرى وتغدية الشعور الديني، ومقاومة ومقارعة خصومه الذين ناؤوه .

ب. توحيد الأمّة بإرساء دعائم نظام اجتماعي جديد يحتاج إلى تثبيته وتوطيده.

ج. الفتوحات الواسعة تحت الراية الإسلام التي بدأت تتسع رقعها فأحتاج قادتها إلى بث روح الحماسة والشجاعة في صفوف الجيوش والفخر بالظفر بالنصر.

د. تسابق الوفود لإعلان ولائها وانضوائها تحت مظلة الإسلام على لسان خطبائها.

هـ. **اشتعال نار الفتن** والنزاعات بسبب الخلافة التي ما فتأت تنخر جسد الدولة الفتية وراحت تمزق الشمل مخلفة وراءها أحزاب وعصبيات و منافرات ومناقضات على المستوى السياسي والاجتماعي.

و. ما أسبغه الإسلام على المجتمع من حرية واسعة في ابداء الرأي والتعبير مما فتح باب النقاش والحوار والنقد والمراجعة، جاء في خطبة أبي بكر الصديق –رضي الله عنه- بعد مبايعة المسلمين له: « **أَمَّا بَعْدُ، أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنِّي قَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ ولَسْتُ بِخَيْرِكُمْ، فَإِنْ أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي، وإِنْ أَسَأْتُ فَقَوِمُونِي**» [2].

## 2. أغراض فن الخطابة في عصر صدر الإسلام والخلافة الراشدة

عملت فن الخطابة الإسلامية على تحقيق غايات أهمها [3]:

---

[1]- ينظر: واضح الصمد، أدب صدر الإسلام، ص: 148.

[2]- أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ج: 1، ص: 180.

[3]- ينظر: واضح الصمد، أدب صدر الإسلام، ص: 149.

أ. نشر الإسلام بدعوة الناس إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشره، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وشرح آداب الدين ونشر فضائله، وتوضيح أسراره وتبيان مزاياه، وتوجيه الناس إلى ما يصلحهم في دنياهم ويسعدهم في آخرتهم.

ب. الحث على الجهاد والاستشهاد في سبيل الله، لتكون كلمة الله هي العليا وبنشر دينه في جميع أنحاء المعمورة. من ذلك خطبة الإمام علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- المشهورة في الجهاد: «أما بعد، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة. فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل، وشمله البلاء، ولزمه الصّغار، وسيم الخسف، ومنع النّصف. ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلا ونهارا، وسرا وإعلانا، وقلت لكم: اغزوهم قبل أن يغزوكم، فو الله ما غزى قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا فتواكلتم وتخاذلتم، وثقل عليكم قولي واتخذتموه وراءكم ظهريّا، حتى شنّت عليكم الغارات...» [1].

ج. الحث على السعي في الحياة الدنيا لتأمين العيش الكريم إلى جانب الدعوة إلى الزهد وإلى ترك الانغماس في ملذات الدنيا ونعيمها فنعم الجنة خير وأبقى، من ذلك ما جاء في خطبة عثمان بن عفان- رضي الله عنه- لما تولى الخلافة، فبعد أن حمد الله وأثنى عليه قال: «إنكم في دار قلعة وفي بقية أعمار، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه، فلقد أتيتم صبحتم أو مسيتم، ألا وإن الدنيا طويت على الغرور فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور، واعتبروا بمن مضى ثم جدُّوا ولا تغفلوا فإنه لا يُغفل عنكم. أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها وعمروها ومتعوا بها طويلًا؟ ألم تلفظهم؟ ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها، واطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلًا، والذي هو خير، فقال عز وجل: ﴿**واضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرا**﴾ **[سورة الكهف الآية: 45]** [2].

د. توضيح نظم الحياة التي ينبغي أن تقوم عليه الدولة الإسلامية من مساواة في الحقوق وعدالة اجتماعية، وتعاون ضمن آداب سامية، وسلوكيات رفيعة تنشد الحق والخير، فكانت موضحة لأي الذكر الحكم وسنة النبي الكريم، وتحولت لشرح منهج سياسي معين بدفاع عن رأي أو تحمس لمبدأ.

## 3. خصائص وسمات الخطابة في عصر صدر الإسلام والخلافة الراشدة

بلغت الخطابة غايتها في الكمال جوهرا، ومضمونا في عصر صدر الإسلام والخلافة الراشدة وقد تميزت بسمات وخصائص، لعل أبرزها:

أ. سلكت مسلكا دينيا مفروضا مثلتها الخطابة الدينية لخطب الجمع والعيدين والحج والمناسبات، خدمة لدعوة الجديدة ونشرها والدفاع عن قيمها ومبادئها ومحاربة أعدائها.

---

[1]- أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ج: 1، ص: 180.

[2]- المرجع نفسه، ج: 1، ص: 270.

ب. حظيت الخطابة بسنن وتقاليد وأصول منها ما ثبت إلى يوم الساعة؛ كإلقاء التحية والسلام من الحطيب، وابتدائها بالحمد والثناء على الله .وإذا لم تستفتح الخطبة بالتحميد يسمونها بالبتراء، وإذا لم توشح بالقرآن وتزين بالصلاة على النبي سموها الشوهاء . ذكر الشهادة والتكبير في خطبة العيد، وانهاء الخطب بالدعاء؛ **يقول ابن قيم الجوزية في هدي خطب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «كان لا يَخطب خطبة إلا افتتحها بحمد الله والثناء عليه، وكان يختمها بالاستغفار، وكان كثيرًا ما يَخطب بالقرآن، بل كان مدار خطبه -صلّى الله عليه وسلّم- على حمد الله - تعالى- والثناء عليه بآلائه، وأوصاف كماله ومحامده...»** [1].

هذا من ناحية أولى، ومن ناحية ثانية، فقد لزم الخطباء الاتكاء على المخصرة أو القنا، ولزومهم العمائم، والقيام في جميع أنواع الخطب وجلوسهم في خطب الزواج، وقد يخطبون على رواحيلهم في المواسم العظام. ومن ناحية ثالثة فإن إعداد الخطب يكون وفق أصول متعارف عليها، مع مراعاة الحالة النفسية للسامعين ومدى استعدادهم للاستيعاب والابتعاد عن الغموض، ذكر صاحب البيان والتبين أن عبد الله بن مسعود: « **حدث الناس ما حدجوك بأسماعهم ولاحظوك بأبصارهم، فإذا رأيت منهم فترة فأمسك»** [2].

ج. من حيث البناء فالخطابة وحدة فنية متناسقة تميزت بوحدة الموضوع وترابط الفقرات والجمل والألفاظ، بعد أن كانت الحطبة في الجاهليّة جملة من الفقرات، فالخطابة الإسلامية مقسمة إلى أقسام واضحة تبدأ بمقدمة ثم الانتقال إلى الغرض، حيث عرض الأفكار والحجج والغايات، ثم الانتهاء بخاتمة تكون في أغلب الأحيان ملائمة الهدف الذي يرمي إليه الخطيب من خطبته وتذيل بالدعاء.

د. ميل الخطب إلى الإيجاز من غير عجز وقصر الفقرات، الأسلوب جزل قوي الأسر محكم البناء متين الصياغة، خال في عمومه من الصناعة اللفظية، التي يتكلف فيها السجع والبديع والزخرف، وتنتصب لها الحلى اللفظية، وإذا وقع فيه شيء من ذلك فهو غير متعمد، وإنما أت مع الطبع والفطرة. خطب عمر بن الخطاب بعد توليه الخلافة، فقال بعضهم: إنه صعد المنبر فقال: «**اللهم إني شديد فَلَيِّنْي، و إني ضعيف فقوني، و إني بخيل فَسَخِنِي**» [3]، وفي رواية أنه قال: «**إن الله ابتلاكم بي، و ابتلاني بكم بعد صاحبي، فو الله لا يحضرني شيء من أمركم، فيليه أحد دوني، ولا يتغيب عنى فالو فيه عن أهل الجزء- يعني: الكفاية – والأمانة. والله لئن أحسنوا، لأحسنن إليهم. ولئن أساؤوا؛ لأنكلن بهم. فقال من شهد خطبته، ورواها عنه: فو الله ما زاد على ذلك حتى فارق الدنيا**» [4].

---

[1]- ينظر: ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت. ج: 1، ص: 180 - 182

[2]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 70.

[3]- ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج: 3، ص: 199.

[4]- أبو نعيم الأصبهاني: الإمامة والرد على الرافضة، ص: 276.

هـ. استمدت الخطابة معانيها وأساليبها من القرآن الكريم وفقد كان المنبع الثر فهي زاخرة بمعاني القرآن، معبرة عن أغراضه الكريمة كيف لا وهم كانوا يخطبون من وحي روحه وفيض بلاغته، ناهيك عن حديثه صلى الله عليه وسلم، الذي كان له قوة التأثير اقتباسا ومحاكاة.

خطب أبو بكر فقال بعد أن حمد الله و أثنى عليه: « إني أوصيكم بتقوى الله العظيم في كل أمر وعلى كل حال، ولزوم الحق فيما أحببتم وكرهتم، فإنه ليس فيها دون الصدق مِن الحديث خير، مَن يكذب يَفجر، ومَن يفجر يهلك، وإياكم والفخَر، وما فخرُ مَن خلق مِن تراب وإلى التراب يعود، هو اليوم حي وغدًا ميت، فاعلموا وعدوا أنفسكم في الموتى، وما أشكل عليكم فردُّوا علمه إلى الله، وقدموا لأنفسكم خيرًا تجدوه مُحضرًا؛ فإنه قال - عز وجل -: ﴿ **يَومَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا ومَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَودُّ لَو أَنَّ بَيْنَهَا وبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ويُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ واللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ** ﴾**[ آل عمران: 30]**

فاتقوا الله - عباد الله - وراقبوه، واعتبروا بمن مضى قبلكم، واعلموا أنه لا بد من لقاء ربكم والجزاء بأعمالكم، صغيرها وكبيرها، إلا ما غفر الله، إنه غفور رحيم، فأنفسَكم أنفسَكم والمستعان الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ﴿ **إِنَّ اللَّهَ ومَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ **[الأحزاب: 56]** اللهم صلِّ على عبدك ورسولك محمد أفضل ما صلَّيتَ على أحد مِن خلقك، وزكِّنا بالصلاة عليه، وألحقنا به، واحشرنا في زمرته، وأوردنا حوضه، اللهم أعنَّا على طاعتك، وانصرنا على عدوك»[1]

## 4. أشهر الخطباء في عصر صدر الإسلام والخلافة الراشدة

امتاز صدر لإسلام والخلافة الراشدة بكثرة الخطباء فقد توفرت للخطابة أهم مقوماتها وأجل دواعيها، فلا عجب إذن أن تنهض وتقوى إذا كان لنا أن نذكر أشهر الخطباء في صدر الإسلام فإنه يجب أن نضع مقدمتهم وعلى رأسهم محمد؛ فهو أخطب العرب وأبينهم، أوتي جوامع الكلم، واختصر له الكلام اختصار، ثم يأتي بعده خلفاؤه الأربعة: أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم فهؤلاء من أشهر الخطباء الإسلاميين الذين لعبت خطبهم دورا حاسما في توطيد أركان الدولة الناشئة، والذين اختاروا ولائهم وقادتهم من الخطباء المصاقع ليكن لهم من قوة التأثير، وسداد الرأي، ما يساعدهم على أداء مهمتهم.

## 5. نموذج تطبيقي لفن الخطابة الإسلامية (خطبة حجّة الوداع)

تعد خطبة حجة الوداع من أشهر ما أثر عنه صلى الله عليه وسلم من خطب، وهي آخر خطبه فقد ألقها يوم عرفة من جبل الرحمة في التاسع من ذي الحجة في السنة العاشرة من الهجرة، بعد شعوره صلى الله عليه وسلم بدنو أجله.

---

[1]- أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ج: 1، ص: 184- 185.

وقد ورد نص الخطبة مبثوث في الصحيحين وفي كتب السّنة، و بروايات متعددة وكلها ثبت صحتها، بالإضافة إلى أمات كتب الأدب العربيّ القديم على رأسها البيان والتبين للجاحظ، والعقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي.

**نص الخطبة: قال صلّى الله عليه وسلّم:** « الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا. من يهد الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له. واشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

أما بعد، أيها الناس أسمعوا مني أبيّن لكم، فإني لا أدري، لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا .أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا.

ألا هل بلّغت؟ اللهم أشهد...

فمن كانت عنده أمانة فليؤديها إلى الذي ائتمنه عليها. وإن ربا الجاهليّة موضوع، وإن أول ربا أبدا به ربا عمي العباس بن عبد المطلب. وإن دماء الجاهليّة موضوعة، وإن أول دم نبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب. وإن مآثر الجاهليّة موضوعة، غير السدانة والسقاية، والعمد قود، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر، وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهليّة.

أيها الناس، إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه، ولكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم.

أيها الناس: إن النسيء زيادة في الكفر يضلّ به الذين كفروا يحلّونه عاما ويحرّمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله. إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض. وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حرم: ثلاثة متواليات وواحد فرد: ذو القعدة وذو الحجة والمحرّم، ورجب الذي بين جمادي وشعبان.

ألا هل بلّغت؟ اللهم أشهد...

أيها الناس إن لنسائكم عليكم حقا، ولكم عليهن حق. لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضربا غير مبرّح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف وإنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله. فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيرا.

ألا هل بلغت؟ اللهم أشهد...

أيها الناس، إنما المؤمنون أخوة، ولا يحل لأمرئ مسلّم مال أخيه إلا عن طيب نفس منه.

ألا هل بلغت؟ اللهم أشهد...

فلا ترجعنّ بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض، فإن قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده، كتاب الله.

ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد...

أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب. أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير. وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى.

ألا هل بلغت؟ اللهم أشهد! قالوا: نعم .قال: فليبلّغ الشاهد الغائب.

أيها الناس، إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، فلا تجوز لوارث وصية، ولا تجوز وصية في أكثر من الثلث. والولد للفراش، وللعاهر الحجر، من ادّعى إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ا يقبل منه صرف ولا عدل. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته» [1]

**دراسة الخطبة من حيث المضامين والسمات الفنية:**

تعد خطبة "حجّة الوداع" أعظم حجّةٍ في التاريخ، وسُمّيت بهذا الاسم؛ لأنّ النبيّ - عليه الصلاة والسلام- ودّع المسلمين فيها، ولم يحجّ بعدها، وتسمّى كذلك بحجّة الإسلام؛ لأنّ النبيّ لم يحجّ بعد فرض الحجّ غيرها، وتسمّى كذلك بحجّة البلاغ؛ لأنّ النبيّ - عليه الصلاة والسلام- بلّغ كلّ ما يجب تبليغه من شرع الله تعالى؛ وقد نزل فيه الوحي مبشراً أنه « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دين» سورة المائدة، الآية: 03.

وتعد هذه أطول خطبة وصلت إلينا من الرسول الله صلى الله عليه وسلم، وتتميز عن غيرها بكثرة ما تضمنته من الآداب والأحكام ووصايا بالغة الأهمية تنير مسالك المسلمين وتسدد خطاهم، **وتمحورت مضامين الخطبة حول ما يأتي:**

- ✓ الدعوة إلى التوحيد والإيمان الكامل.
- ✓ الإعلان عن حقوق المسلم، وأنه محرم الدم والمال والعرض.
- ✓ التحذير من الشيطان وغوايته وعدم التلاعب بالأشهر الحرم
- ✓ التأكيد عن حقوق المرأة وحفظ كرامتها وحقوق وواجبات كل من الزوجين، داعيا إلى الرفق و الإحسان في التعامل.
- ✓ التأكيد على أخوة المؤمنين وصيانة روابطها.

---

[1]- الجاحظ: البيان والتبيين، ج: 2، ص: 31.

السدانة: (بفتح السين وكسرها) خدمة الكعبة، وكانت الدانة واللواء لبني عبد الدار في الجاهلية فأقرها الرسول لهم في الإسلام. والسقاية: ما كانت قريش تسقيه الحجاج من الزبيب المنبوذ في الماء. قود: قتل القاتل بالقتيل. عوان: ج عانية: وهي الأسيرة، أي هن عندكم بمنزلة الأسرى.

- ✓ إقرار مبدأ المساواة بين البشر و إلغاء أي أساس للتفريق لاعتبارات العرق والجنس واللون، وأن أساس التفاضل هو التقوى.
- ✓ تقرير قانون التوارث كما في القران الكريم.
- ✓ إعلان قاعدة شرعية الأبناء، فالابن ينسب إلى أبيه الفعلي لا إلى غيره.

ليختم -صلَّى الله عليه وسلَّم- خطبته برا نفسه بعدما بيَّن للناس أهمَّ المبادئ والتوصيات التي شكلت دستورًا صالحا لكلِّ الأوقات والأزمان.

**أما عن أهم اللّمسات الفنية التي تضمنتها هذه الخطبة:**

أ. ترتيب أقسام الخطبة عبر مقدمة تمهيدية وموضوع تتدرج أجزاءه لتصل بشكل منطقي إلى نهاية الخطبة، كما اتسمت بتآلف وانسجام ألفاظها ومعانيها، حتى لكأن اللفظ يسري في المعنى سريان الروح بالجسد، وهو الذي حفظ للموضوع وحدته وتماسكه.

ب. البراعة في استخدام وسائل الاقناع والتأثير، مثل: تكرار عبارة ((ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد))، والتي التي ردَّدها - صلى الله عليه وسلم - آخِر كل مقطع مِن مقاطع هذه الخطبة؛ هي لازمة عظيمة الدلالة في مقامها ومعناها؛ لأنها لخَّصت حياة كاملة في ألفاظ معدودات، فما كانت حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - كلها بعملها وقولها وحركتها وسكونها إلا حياة تبليغ وبلاغ، وما كان لها من فاصلة خاتمة أبلغ من قوله - صلى الله عليه وسلم -: ((ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد)).

ج. الإكثار من استخدام أدوات النداء والأمر والنهي والاستفهام و حروف التوكيد والاستفتاح، وهذا ما تستدعيه مواضيع الخطب الدينية التي توضح التعاليم و المبادئ الشرعية.

د. اعتماد الترهيب والترغيب، أما الترهيب فلتحذير السامعين من: الشيطان، والكفر، الضلال، الموت و النار، أما الترغيب فربطه بالدعوة إلى تقوى الله وطاعته، وتطبيق أحكامه، والتذكير بثواب ونعيم الجنة.

هـ. اعتماد الأسلوب المرسل العفوي المجرد من الصور الخيالية، المنصرف عن السجع، وكان الايجاز البليغ الذي يرد في أقل عدد ممكن من اللفظ مع المحافظة على وضوحه التام.

و. التأثر بالقرآن الكريم من خلال الاقتباس منه لشرح أحكامه وتعاليمه، وتبسيط آياته عن طريق الإيجاز والإجمال، و عكست بذلك عناية الرسول صلى الله عليه وسلم الكبرى بتمكين الإسلام في نفوس الناس.

**يقول ابن قيم الجوزية في سرد خصائص كلام رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: « كان أفصح خلق الله، وأعذبهم كلامًا، وأسرعهم أداءً، وأحلاهم منطقًا، وحتى إن كلامه ليأخذ بمجامع القلوب، ويَسبي الأرواح، ويَشهد له بذلك أعداؤه، وكان إذا تكلَّم بكلام مفصَّل مبيَّن يَعدُّه العادُّ، ليس بهذا مسرعًا لا يُحفظ، ولا منقطعًا تتخلَّله السكتات بين إفراد الكلام، بل هديه فيه أكمل الهَدي»** [1].

---

[1]- ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدي خير العباد، ج: 1، ص: 175.

فقد شكّلت هذه الخطبة لبنة رائدة ففيها أسمى خطاب عرفه الوجود، وأكرم قانون عرفته البشرية، وهذا شيء طبيعي بالنسبة لرجل تزعم أكبر انقلاب عرفه تاريخ البشرية جمعاء.

يُعد عصر صدر الإسلام والخلافة الراشدة مرحلة مفصلية في تاريخ الخطابة العربية، حيث تحولت من فن قبلي إلى أداة ريادية لنشر الدعوة وتوطيد أركان الدولة الجديدة. ازدهرت الخطابة بفضل دوافع حيوية كالحاجة لحماية الدين، وتوحيد الأمة، وبث روح الحماس في الفتوحات، بالإضافة إلى ظهور روح الشورى وحرية التعبير. اتسمت الخطابة في هذا العصر بجزالة الأسلوب، والوحدة الفنية المتماسكة، والابتعاد عن التكلف اللفظي، مع الاعتماد العميق على القرآن الكريم والحديث الشريف كمصدر ثر للمعان والأساليب. وقد رسخ الخطباء تقاليد أصيلة لا تزال قائمة، كافتتاح الخطب بالحمد والثناء والختام بالدعاء. وتنوعت أغراضها لتشمل الدعوة للإيمان، والجهاد، والزهد، وإرساء مبادئ العدالة الاجتماعية. ويظل النبي –عليه السلام- أخطب العرب وأبينهم، وتعد "خطبة حجة الوداع" نموذجاً تطبيقياً فريداً؛ فهي دستور شامل نُظم في قالب بلاغي موجز ومؤثر. تميزت هذه الخطبة بترتيبها المنطقي، واستخدامها الفعال لأساليب الإقناع والترغيب والترهيب، وتكرار لازمة "ألا هل بلغت؟" لترسيخ قيم المساواة وحقوق الإنسان. لقد نجحت الخطابة الإسلامية في تقديم خطاب عقلي عاطفي متوازن استطاع قيادة المجتمع العربي نحو انقلاب حضاري وقيَمي شامل، مؤسسةً بذلك لأرقى أساليب التواصل الإنساني.

## فن الخطابة في العصر الأموي

- عوامل ازدهار الخطابة في العصر الأموي
- أنواع الخطب في العصر الأموي
- هيكل الخطبة في العصر الأموي
- هيكل الخطبة في العصر الأموي
- الخصائص والسمات الفنية للخطابة في العصر الأموي

الحصة 5

العصر الأموي هو فترة حكم الخلافة الإسلاميّة التي أسّسها "معاوية بن أبي سفيان" بعد الصراع على السلطة في الإسلام، وامتدّت فترة الخلافة الأمويّة من (41 - 132 هـ/ 662 - 750 م)، ويعدُّ هذا العصر مرحلة مفصلية في تاريخنا الإسلامي، ولقد بلغت الخطابة في رحاب الدولة الأمويَّة من القوة والنضج والاتساع ما لم تبلغه في أي عصر من قبل، إذ جارت الشعر وعلا شأنها؛ وتناولت شؤون العامة، ومثلت السياسية أصدق تمثيل.

## 1. عوامل ازدهار الخطابة في العصر الأموي:

وإذا كانت الخطابة قد نشطت ونهضت منذ عصر صدر الإسلام والخلافة الراشدة وذلك لتوفر دواعيها، وقوة أسبابها؛ فإن تلك الدواعي و هذه الأسباب، قد تضاعفت في العصر الأموي، و تهيأت للخطابة عوامل انتعاش قوية لأن تبلغ كل ما كان ينتظر لها من نشاط وازدهار، وأهم هذه العوامل [1]:

### أ. العوامل السياسية:

عرف العصر الأموي معارضة حادة دارت حول الخلافة ومن أحق بها، أ تقتصر على بني أمية أو تكون حقا شائعا للمسلمين جميعا، أو ترد إلى بني هاشم وأبناء على خاصة، أو تكون حقا للعرب، فلا تختص بها قريش، فانقسم المسلمون إلى أحزاب كل يدعو إلى فكرته، فواكبت الخطابة أحداث العصر وصراعاته وفتنه، و اتخذت منها الأحزاب المتصارعة (الخوارج، الشيعة، الزبيريين، الموالي) وسيلة للحفاظ على مكتسباتها وضرب الخصوم السياسيين في الصميم، إذ يمتشق الخطباء ألسنتهم في تصوير مذاهبهم السياسية كما يدعون لها، كما يدعون للانتقاض على حكم بني أمية، بتتبع سقطاته وتعريت عوراته واتهامهم بالاستلاء على الحكم غصبا وتحويله إلى ميراث عائلي وملكية خاصة، ويرمونهم بالخروج عن الدين مذكرين زعماؤهم بماضي أجدادهم في محاربة المصطفى صلى الله عليه وسلم، مما أحدث القلق وعكر الصفو وهيأة الأجواء للخصومات الشعواء، وبالمقابل رمى خطباء بني أمية المصاقع كل من عارضهم وتمرد عليهم بالبغي والخروج عن الطاعة.

كما يمكن أن نسجل أن الخلافة الأمويَّة أرخت العنان للمعارضة التي كانت تخالفهم، والخصومة التي كانت تواجههم، وتركهم زمام الحرية أن ينطلقوا في التنديد بهم، والنقد لهم، والزراية بهم، مما كان له أثره الواضح في تفتيق أكمام الخطابة، وهذا لا يلغ السياسة العامة فكانوا يبنون عدالة حكمهم ودرجة إحسانهم للناس إذا هم انقادوا لحكمهم وأطاعوا، لكنهم يرعدون ويهددون كل من سولت له نفسه الخروج عليهم.

### ب. العوامل الاجتماعية:

[1]- ينظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ج: 2، ص: 405- 409/ محمد عبد المنعم خفاجي: الحياة الأدبية عصر بني أمية، ص: 236- 238/ إبراهيم علي أبو الخشب: الأدب الأموي صورة رائعة من البيان العربي، ص: 129- 132

كان من الطبيعي أن تسفر الفتوحات الإسلامية إلى ظهور طائفة جديدة تحتاج إلى خطباء يعظونها ويشرحون لها أمور دينها ويبينون لها تعاليمه السمحة، مما نتج عنه نوع جديد من الخطب حمله الوافدون من البلاد المفتوحة إلى بلاط الحكم، وإن كانت هذه الوفود قليلة في عصر صدر الإسلام والخلافة الراشدة، ومع اتساع رقعة الدولة الإسلامية في عصر بني أمية، وفتحت الفتوح ومصرت الأمصار تتحول هذه الوفود إلى سيول تقصد قصور الخلفاء وقصور الولاة متحدثة في شؤون قومها، ونائبة عنهم في بيعة الخليفة الجديد وقد تبث شكواها حين يلم بها خطب ما، وقد عرفت هذه الوفود بالمقامات؛ وعادة ما تكون الوفود من المفوهين المتكلمين، يقول صاحب العقد الفريد: « **إنها مقامات فضل ومشاهد حفل، يتخير لها الكلام وتستعذب الألفاظ وتستجزل المعاني، ولا بد للو افد عن قومه أن يكون عميدهم وزعيمهم الذي من قوته ينزعون، وعن رأيه يصدرون، فهو واحد يعدل قبيلة ولسان يُعرب عن ألسنة.** »[1]

ومن الذين اشتهروا باستقدام الوفود من الأمصار معاوية بن أبي سفيان- رضي الله عنه- ، وقد يتوافق أن تجتمع وفود مختلفة بين يدي الخليفة، وحينئذ يتبارى هؤلاء الخطباء كل واحد منهم يحاور احراز السبق بيانا وفصاحة.

### ج .العوامل الدينية:

شكل الإسلام قوة دفع فاعلة لفن الخطابة بعد أن جعلها جزءا لا يتجزأ من صلاة الجمعة والعيدين، وكلما امتدت راية الإسلام إلى مكان نصبت المنابر كي يعظ الخطباء الناس ويساندهم في ذلك الخلفاء والولاة، بل إن الأمر تعداه إلى جماعة خصت حياتها لوعظ الناس مستلهمة هدى القرآن العظيم وتعاليم المصطفى صلى الله عليه وسلم، وإلى جانب هؤلاء الوعاظ ظهرت فئة من القصاص، وقد كان بعضهم يرافقون الجيوش الفاتحين للوعظ والتذكير وبث الحماس، ولم يقتصر الأمر على الحزب الحاكم بل تعداه إلى أحزاب المعارضة، وفي بيئة الوعظ والقصص الديني أخذت بوادر النضج العقل بالظهور و طغى الجدل خاصة حول المسائل العقدية التي سرعان ما مهدت لظهور الفرق (الجبرية/ المرجئة/ المعتزلة...) التي دار بينها جدال عنيف أفضى لظهور فن جديد هو المناظرات؛ ولم تكن هذه الفرق تجادل مع بعضها البعض بل إن الأمر امتد ليطال طوائف من أصحاب الديانات السماوية واستعانوا بالمنطق اليوناني وبشعب مختلفة من الفلسفة الأجنبية، وعلى هذا النحو انبثق علم الكلام في العصر الأموي، وانبثقت معه صور خطابية جدلية، ضمت إلى سائر موضوعات الخطابة في العصر الأموي.

[1]- ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ج: 1، ص: 274.

## 2. أنواع الخطب في العصر الأموي[1]

ارتقت الخطابة رقيا بعيدا في العصر الأموي، ونشطت نشاطا لعل العرب لم يعرفوه في عصر من عصورهم الوسيطة، إذ اتخذوها أداتهم للظفر في آرائهم السياسية، والانتصار في مجادلاتهم المذهبية، وعولوا عليها في قصصهم ومواعظهم، وفي وفادتهم على الخلفاء والولاة. وأهم أنواع الخطب:

### أ. خطب سياسة:

نمت الخطابة السياسية في العصر الأموي ونهضت نهوضا عظيما وانتشرت انتشارا واسعا، حيث كان الصراع على الخلافة محتدما بين المؤيدين والمعارضين، فليس هناك حزب ولا ثورة كبيرة أو صغيرة إلا خطباء كثر قد انبروا للترويج لذلك الحزب أو تلك الثورة، في محاولة مستميتة لاستمالة الناس إلى صفوفهم داحضين بكل ما وسعهم آراء خصومهم.

كثرت الأحزاب السياسية المعارضة لبني أميّة، وكثر مشعلو الفتن والحروب الداخلية، الذين تقوم خطابتهم على الدعوة لآرائهم السياسية، والالتفاف حولهم، ونقد خصومهم، وأن إسناد الأمو إليهم إحقاق للحق، ولعل حزبا لم يكثر خطباؤه كما كثر **خطباء الخوارج** إذ كانوا شديدي الحماسة لعقيدتهم، مجاهرين بالدعوة لها شاهرين سيوفهم في وجه بني أمية وباقي الأحزاب، والظاهر أن أغلب خطب الخوارج قد سقط، ويرجع إلى تحرج الناس لرواياتها لأنهم رأوا فيهم ثائرين خارجين، وحتى الخوارج أنفسهم لم يحرصوا على تسجيلها وروايتها، أما ما بقي منها فقد احتفظت به كتب التاريخ والأدب.

**ومن أشهر خطبائهم:** حيان بن ظبيان السلمى، نافع ابن الأزرق، الزبير بن علي، قطري بن الفجاءة، وعمران بن حطان، وأبو حمزة الشاري، وقد سارت خطبهم بنفس الروح التي لقيناها في شعرهم، من إقبالهم على الموت والاستمات في طلب الشهادة، حتى أضحى الموت في نظرهم ضربا من الغلبة على خصومهم، الذين غلبوا على الدنيا، وقد يضيفون إلى ذلك مواعظ تصور عمق تدينهم، وزهدهم في الحياة الدنيا، وتحفظ لنا كتب الأدب موعظة رائعة **لقطري بن الفجاءة** في ذم الدنيا والتحذير من بريقها الزائف، ومما جاء فيه قوله: «**أما بعد. فإني أحذركم الدنيا، فإنها حلوة خضرة، حفت بالشهوات، وراقت بالقليل وتحببت بالعاجلة، وحليت بالآمال، وتزينت بالغرور. لا تدوم نصرتها، ولا تؤمن فجعتها. غرارة، ضرارة، وخاتلة، زائلة ونافذة، بائدة، أكالة، غوالة...، ولم يمس منها امرؤ في جناح أمن إلا أصبح منها على قوادم خوف، غرارة: غرور ما فيها؛ فانية: فان من عليها، لا خير في شيء من زادها إلا التقوى**» [2]

---

[1]- ينظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ج: 2، ص: 410- 450/ محمد عبد المنعم خفاجي: الحياة الأدبية عصر بني أمية، ص: 236- 239/ محمد عبد المنعم الخفاجي: الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام، ص: 407- 408.

[2]- أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ج: 2، ص: 454- 455،

ومن أشهر خطبائهم المفوهين **أبو حمزة الشاري**، له خطبة طويلة بليغة ألقاه في المدينة المنورة، وهو يفتتحها بالحديث عن رسول الله وهديه، واقتداء أبي بكر وعمر به، أما عثمان فعنده أنه أتى بما أحبط به الأوائل، وأما علي فلم يبلغ - في رأيه- من الحق قصدًا، ثم اقتص خلفاء بني أمية خليفة خليفة يثلبه، إلا عمر بن عبد العزيز فإنه أعرض منه، ونراه ينحى باللائمة على من يتشيعون لآل البيت، ثم يصف أصحابه، ونضالهم دون عقيدتهم وصفا رائعا، يقول: « **شباب والله مكتهلون في شبابهم، غبية عن الشر أعينهم، ثقيلة عن الباطل أرجلهم، أنضاء عبادة وأطلاح سهر، ينظر الله إليهم في جوف الليل منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن، كلما مرّ أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقا إليها، وإذا مر بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنه. موصول كلالهم بكلالهم: كلال الليل بكلال النهار. قد أكلت الأرض ركبهم و أيديهم، و أنوفهم وجباههم، واستقلوا ذلك في جنب الله، حتى إذا رأوا السهام قد فوقت، والرماح قد أشرعت، والسيوف قد أنتضيت، ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت استخفوا بوعيد الكتيبة لوعد الله، ومضى الشباب منهم قدما حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه فأسرعت إليه سباع الأرض، و انحطت عليه طير السماء، فكم من عين في منقار طائر طالما بكى صاحبها في جوف الليل من خوف الله، وكم من كف زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها في جوف الليل بالسجود لله. ثم قال: آه آه (ثلاثا)، ثم بكى ونزل**»[1].

ولا يقل خطباء الشيعة كثرة عن خطباء الخوارج، وكانوا يكثرون من القدح في بني أمية، وأنهم اغتصبوا الخلافة من أصحابها الشرعيين، وساروا فيها سيرة جائرة عطلوا فيها أحكام الشريعة، وأن أبناء الإمام علي هم ورثة النبوة وأصحاب الخلافة الشرعيون، وأن على المسلمين نصرتهم والأخذ بثأر قتلاهم، ومن أعلام الخطابة الشيعية؛ الحسين بن علي بن أبي طالب، وعلي بن الحسين وزيد بن علي، والمختار الثقفي وسليمان بن صرد، وعبد الله بن مطيع وعبيد الله المري، ومنهم بنو صوحان: صعصعة وزيد وسيحان.

يقول الإمام **الحسين بن علي بن أبي طالب** حين اقترب من الكوفة ولقى مقدمات من جيش **عبد الله بن زياد**، وقد انصرف إلى القوم بوجهه: «**أمّا بعدُ. أيُّها الناس. فإنّكم إن تتّقوا وتَعرفوا الحقَّ لأهله يكنْ أرضى لله، ونحن . أهلَ البيت . أولى بولاية هذا الأمر عليكم مِن هؤلاء المُدّعين ما ليس لهم، والسائرين فيكم بالجَور والعُدوان، وإن أنتم كَرِهتمونا وجَهِلتُم حقَّنا، وكان رأيكم غيرَ ما أتَتْني كتبُكم وقَدِمتْ علَيّ رسلُكم، انصرفتُ عنكم** »[2].

---

[1]- الجاحظ: البيان والتبين، ج: 2، ص: 85- 86.

[2]- أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ج: 2، ص: 46- 47.

وتتطور الأحداث وتتصاعد بمقتل الحسين، ويتخذ الشيعة من مقتله حجة دامغة على استبداد بني أمية، معلنين توبتهم من السكون عن الثأر له والقعود عن نصرته، وتعد خطبة **عبيد الله بن عبيد الله المري** قائد حركة التوابين من الخطب التي لا تبارى في والتحريض على الانتفاض على الحكم الأموي، يقول:

**«هل خلق ربكم في الأولين والآخرين أعظم حقًّا على هذه الأمة من نبيها؟ وهل ذرية أحد من النبيين والمرسلين أو غيرهم أعظم حقًّا على هذه الأمة من ذرية رسولها؟ لا والله ما كان ولا يكون، لله أنتم! ألم تروا ويبلغكم ما اجترم إلى ابن بنت نبيكم؟... وترميلهم إياه بالدم، وتَجْرَارِهُمُوهُ على الأرض؟ لم ير اقبوا فيه ربهم ولا قرابته من الرسول صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ!... ابن أول المسلمين إسلامًا، و ابن بنت رسول رب العالمين، قلَّتْ حُماتُهُ، وكثُرتْ عُداته٥ حوله، فقتله عدُوه وخَذَلَهُ ولِيُّهُ، فويل للقاتل، وملامة للخاذل، إن الله لم يجعل لقاتله حجة، ولا لخاذله معذرة، إلا أن يناصح لله في التوبة، فيجاهد القاتلين، وينابذ القاسطين، فعسى الله عند ذلك أن يقيل العثرة... إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل بيته، وإلى جهاد المُحِلين والمارقين، فإن قتلنا فما عند الله خيرٌ للأبرار، وإن ظهرنا رددنا هذا الأمر إلى أهل بيتِ نبينا»** [1].

أما عن حزب الزبيرين وبالرغم أن مدته لم تطل فقد وصلتنا خطب رنانة على قلتها، ويعد **عبد الله بن الزبير** خطيب هذا الحزب وكان مفوها بليغا، اتسمت خطبه بقدح وتجريح بني أمية مستغلا قتلهم الإمام الحسين لبيان غدرهم وشناعة ما اقترفوا، ومن نماذج خطبه لما بلغه نعي أخيه مصعب واستيلاء عبد الملك بن مروان على العراق، يقول: **« إن يقتل فقد قتل أبوه وعمه و ابن عمه، وكانوا الخيار الصالحين، إنا والله لا نموت حتفا ولكن قعصا بأطراف الرماح وموتا تحت ظلال السيوف؛ وليس كما يموت بنو مروان، والله ما قتل رجل في زحف في الجاهليّة ولا في الإسلام قط، ، ألا وإن الدنيا عارية من الملك القهار الذي لا يزول سلطانه ولا يبيد ملكه، فإن تقبل الدنيا لا آخذها أخذ الأشر البطر، وإن تدبر لا أبك عليها بكاء الخرق المهين»** [2]، وكان أخوه مصعب، واليه على العراق خطيبا مفوها، وله خطبة جعلها كلها آيات قرآنية خالصة.

أما خطباء الثورات على بني أمية من أمثال: **عمر وبن سعيد بن العاص** الملقب **بالأشدق** لبلاغته في خطابته، **و ابن الأشعث** الذي كان مدرها مفوها، **يزيد بن المهلب** الخطيب البليغ، قد تناثرت خطبهم في ثنايا مصادر الأدب والتاريخ، وتدور كلها حول تحريك الناس إلى الثورة على بني أمية، وبيان ظلمهم وطغيان ولاتهم.

### ب. الخطابة في خدمة بني أمية:

وبالمقابل كان يقف في الصف الآخر للمعارضة خطباء بني أمية، يدعون الناس إلى التمسك بحبل الجماعة، وتأييد الأمويين في حقوقهم التي اكتسبوها عن آبائهم، وتقديمهم لهم فروض الطاعة والولاء، وكثيرًا ما يخلطون ذلك بالترهيب والترغيب، يتقدمهم الخلفاء والولاة والقادة، واشتهر من هؤلاء جميعا بالفصاحة وإحكام الصنعة

---

[1]- أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ج: 2، ص: 63- 64.

[2]- المرجع نفسه، ج: 2، ص: 176-177.

وحلاة الكلم؛ معاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان وعمر بن عبد العزيز، وتتسم خطب معاوية بتوزعها إلى صنفين؛ صنف سياسي، وصنف أخر وعظ وترغيب وترهيب، وتميزت خطبه السياسية بالدعوة إلى الطاعة والتلويح بما في يديه من قوة وهبات .في نفس المنحى تسير خطب عبد الملك المرواني، بينما الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز فخطبه كله مواعظ، من ذلك تذكيره في إحدى خطبه بما ينتظر الناس من موت وحساب، يقول« **أيها الناس إنكم لم تُخلَقوا عبثًا ولم تتركوا سدى، وإن لكم معادًا يحكم الله فيه بينكم، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء، وحرم الجنة التي عرضها السموات والأرض واعملوا أن الأمان غدًا لمن خاف ربه وباع قليلًا بكثير، وفانيًا بباقٍ، ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين، وسيخلفكم من بعدكم الباقون حتى تردوا إلى خير الوارثين؟»** [1]

أما خطب ولاتهم السياسية فغلب عليها وجوب الطاعة والولاء مع الوعيد والتهديد واستخدام القوة، ومن أشهر خطبائهم: **زياد بن أبيه، وخالد بن عبد الله القسري، والحجاج بن يوسف الثقفي**؛ هذا الأخير الذي تفوق عليهم فإنه لم يخمد ثورة العراق ويحبس أنفاسها إلا هذا الرجل بما أوتيه من فصاحة وقدرة على الكلام ومن خطبته العراقية نقتطف الآتي: «**أَمَا واللهِ إِنّي لأَحْمِلُ الشَّرَّ بِحِمْلِهِ، وأَحْذُوهُ بِنَعْلِهِ، وأَجْزِيهِ بِمِثْلِهِ، و إِنّي لأَرَى أَبْصارًا طَامِحَةً، وأَعْنَاقًا مُتَطَاوِلَةً، ورُؤُوسًا قد أَيْنَعَتْ وحانَ قِطَافُها، و إِنّي لَصَاحِبُها .... أَمَا واللهِ لأَلْحُونَّكم لَحْو العَصَا، ولأَقْرَعَنَّكم قَرْعَ المُرُوءَةِ، ولأَعْصِبَنَّكم عَصْبَ السَّلَمَةِ، ولأَضْرِبَنَّكم ضَرْبَ غَرَائِبِ الإبلِ؛...أَمَا واللهِ لَتَسْتَقِيمُنَّ على طريقِ الحَقّ أو لأَدَعَنَّ لكلِ رجلٍ منكم شُغْلاً في جَسَدِهِ!**» [2].

ومن قوادهم الخطباء المصاقع نجد **مسلم بن عقبة، والمهلب بن أبي صفرة**، الذي يقول حاثا جنده على قتال الأزارقة: « **يأيها الناس إنكم قد عرفتم مذهب هؤلاء الخوارج وأنهم إن قدروا عليكم فتنوكم في دينكم وسفكوا دماءكم فقاتلوهم على ما قاتل عليه**»[3].

ومن قادة الفتوح الخطباء المبرزين الذين سجلوا خطبا في حث جنودهم على الاستبسال والشجاعة والشهادة في سبيل الله، **قتيبة بن مسلم الباهلي** كبير مجاهدي الدولة الأمويَّة وقد تهيأ لفتح **طخارستان** سنة86هـ، يقول: «**إن الله أحلكم هذا المحل ليعز دينه ويذب بكم عن الحرمات ويزيد بكم المال استفاضة والعدو وقما ووعد نبيه صلى الله عليه وسلم النصر بحديث صادق وكتاب ناطق فقال: [هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون] ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب وأعظم الذخر عنده فقال [ ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ] ثم أخبر**

---

[1]- أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ج: 2، ص: 211-212.

[2]- المرجع نفسه، ج: 2، ص: 289- 290.

[3]- المرجع نفسه، ج: 2، ص: 448.

**عمن قتل في سبيله أنه حي مرزوق فقال[ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون] فتنجزوا موعود ربكم»** [1].

### ج. خطب الوفود والمحافل:

وإلى جانب خطب السياسة عرف العصر الأموي لونا آخر من الخطب حفلت به المجتمع؛ خطب الوفود التي تجيء إلى الخليفة من إحدى الجهات لترفع إليه مظلمة، أو تنهى إليه رغبة، أو تستحثه على المعروف، وقد نمت وازدهرت في هذا العصر بحكم نمو السلطان العربيّ، فقد أذكاها الأمويون بأن فتحوا أبوابها للعرب ليطمئنوا إلى ولائهم، وكانوا يغدقون على تلك الوفود عطاء واسعا.

و**معاوية بن أبي سفيان** هو أول من فتح أبوابه على مصاريعها لتلك الوفود، فكانت ترد تباعا الى ساحته، تعلن تارة ولاءها، وتارة تعرض ظلامة لها، وهو دائم الحفاوة بها، يضفي عليها من نواله الغمر، وتبعه الخلفاء الأمويون من بعده يستنون سنته.

وقد كان لهذا اللون من الخطابة أبطاله ورجاله، يتقدمهم **سحبان خطيب وائل، والأحنف بن قيس خطيب تميم، وصحار بن عياش العبدي** خطيب عبد القيس، ويروى أن **معاوية** قال له: **« ما هذا الكلام الذي يظهر منك؟ قال: شيء تجيش به صدورنا، فتقذفه على ألسنتنا»** [2]. ويقابل بني عبد القيس في براعتهم بنو تميم وعلى رأسهم **عمرو بن الأهتم** الذي قال فيه **الرسول صلى الله عليه وسلم** لما استمع إلى بعض كلامه: **«إن من البيان لسحرا»**، ومن الخطباء المصاقع الأبيان **عبد العزيز بن زرارة الكلابي**، وهو الذي خاطب معاوية قائلا: **« يا أمير المؤمنين لم أزل أستدل بالمعروف عليك، وأمتطي النهار إليك، فإذا ألوي بي الليل فقبض البصر وعفي الأثر أقام بدني وسافر أملي، والنفس تلوم والاجتهاد يعذر، وإذ قد بلغتك فيكفيني »** [3]

وكان للخطباء من جيد القول، ورائع البيان، ما حفلت به الكتب، وتناقلته الأجيال وهو لون من الأدب الذي كان أصحابه يستعدون له، ويجيدون فيه، وينخلونه قبل عرضه على الأسماع فيجئ على غرار رائع، ونمط جيد، وأسلوب ممتاز، وبلاغة نادرة، وبلغ من إحسانهم لمنطقهم أن كان شباب الكتاب في دواوين دمشق يحضرون مقاماتهم حريصين على استماعهم. وكانت هناك مواقف سياسية كثيرة تدعو هؤلاء الخطباء الى المنافسة الحادة بينهم وأن يحاول كل منهم إحراز الغلبة والفوز بإعجاب الخليفة .

وقد استحدثت هذه الوفود فنا جديدا من أبواب خطابة المحافل هو الجمع بين التهنئة والتعزية، وكان أول من فتح بابها **عبد الله بن همام السلولي الكوفي**، فقد دخل على **يزيد بن** معاوية حين استخلف والناس مجتمعون حول بابه متهيبون القول، فقال: **«يا أمير المؤمنين، آجرك الله على الرزية، وبارك لك في العطية،**

---

[1]- أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ج: 2، ص: 304- 305.

[2]- الجاحظ: البيان والتبيين، ج: 1، ص: 98.

[3]- المرجع نفسه، ج: 2، ص: 50.

**وأعانك على الرعية، فلقد رزئت عظيمًا، وأعطيت جسيمًا، فاشكر الله على ما أعطيت، واصبر له على ما رزيت، فقد فقدت خليفة الله، ومنحت خلافة الله، ففارقت جليلا، ووهبت جزيلا، إذ قضى معاوية نحبه، فغفر الله ذنبه، ووليت الرياسة، فأعطيت السياسة، فأوردك الله موارد السرور، ووفقك لصالح الأمور»** [1]

ونجد الوعاظ كثيرًا ما يلمون بمجالس الخلفاء ويعظونهم، على نحو ما كان يعظ **أبو حازم الأعرج** الخليفة **سليمان بن عبد الملك**، ولم تكثر وفود الوعاظ كثرتها على الخليفة **عمر بن عبد العزيز** الذي كان يقدم عليه النساك، والزهاد لوعظه، لما اشتهر عنه من نسكه وعبادته، من مثل **خالد بن صفوان**، **وعبد الله بن الأهتم**، وكان يلزمه **محمد بن كعب القرظي**، وله أخبار معه ومواعظ.

وكان هذا اللون من الخطب أكثر دورنا على ألسنة الناس وذيوعا في مجالسهم ومنتدياتهم لما كان فيه من جرأة وحرية وصراحة وتعبير صادق عن آمالهم وآلامهم من غير التواء ولا لف ولا دوران.

### د. خطب الوعظ والقصص:

نمت هذه الخطب في عصر بني أمية نموا واسعاا، فقد ظهرت نزعة دينية استدعت لونا خاصا من الخطب يتناسب معها، ويصور الاحساس بها، والاندفاع إليها في ظل انتشار الوعظ والقصص الديني الذي عرف في هذا العصر نشاطا عظيما إذ استخدمها الدولة كما استخدمها خصومها في الدعوة السياسية، ويرجع القصص إلى عهد **عمر بن الخطاب**، فكان هناك قصاص يقصون في المساجد، وآخرون يقصون في مقدمة الجيوش الفاتحة.

ومن أشهر القصاص الناسكين العابدين؛ **الأسود بن سريع**، وهو أول من قص بالبصرة، ويقابله في البصرة **زيد بن صوحان** في الكوفة، **وعبيد بن عمير** في المدينة، وكان **عبد الله بن عمر**، كثير التردد على قصصه ووعظه، ومنهم **إبراهيم التيمي** وكان الناس ينتفضون أمامه انتفاض الطير، و **سعيد بن جبير**، وكان يقص كل يوم مرتين بعد الفجر، وبعد العصر، **ومسلم بن جندب قاص** مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، **ويزيد بن أبان الرقاشي**، وكان قاصا مجيدا، ومن وعظه ما ذكره الجاحظ،: « **ليتنا لم نخلق، وليتنا إذ خلقنا لم نعص، وليتنا إذ عصينا لم نمت، وليتنا إذ متنا لم نبعث، وليتنا إذ بعثنا لم نحاسب، وليتنا إذ حوسبنا لم نعذب، وليتنا إذ عذبنا لم نخلد»**[2]

وإن اشتهر هؤلاء الوعاظ بالإكثار من القصص، فإنهم لم يكونوا يقصون إلا من أجل الوعظ، ومن كبار الوعاظ المشهورين، يتقدمهم **مالك بن دينار**، وكان يقول في قصصه: «**ما أشهد فطام الكبير**»، و **محمد بن كعب القرظي** واعظ **عمر بن عبد العزيز**، **وخالد بن صفوان**، ومما أثر عنه قوله: «**احذروا مجانيق الضعفاء**

---

[1]- أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ج: 2، ص: 263.

[2]- الجاحظ: البيان والتبيين، ج: 1، ص: 219.

**يعني الدعاء»، ومن قوله: « بت ليلتي كلها أتمنى؛ فملأت البحر الأخضر بالذهب الأحمر، فإذا الذي يكفيني من ذلك: رغيفان وكوزان وطمران»**[1]

أما كبير وعاظ العصر بلا منازع فهو **الحسن البصري، يقول الجاحظ: «أما الخطب فإنا لا نعرف أحدا يتقدم الحسن البصري فيها»** [2]، وقد كان في وعظه دائم التذكير بالبعث، ويوم الحساب مكثرا من الحض على التقوى والعمل الصالح الذي يبقى، من ذلك قوله: **«يا ابنَ آدمَ، بِعْ دنياك بآخرتكَ تَرْبَحْهُما جميعًا، ولا تَبِعْ آخرتَك بدُنياكَ فَتَخْسَرْهما جميعًا... يا ابنَ آدمَ، طَأِ الأرضَ بقدمِك؛ فإنَّها عن قليلٍ قَبْرُك، واعلمْ أَنَّك لم تَزَلْ في هَدْمِ عُمُرِكَ منذ سَقَطْتَ مِن بَطْنِ أُمِّكَ، رَحِمَ اللهُ رجلاً نَظَرَ فَتَفَكَّرَ، وتَفَكَّرَ فَاعْتَبَرَ، و أَبْصَرَ فَصَبَرَ، فقد أَبْصَرَ أَقوامٌ ولم يَصْبِرُوا فَذَهَب الجَزَعُ بقلوبِهم ولم يُدْرِكُوا ما طَلَبُوا ولم يَرْجِعُوا إلى ما فَارَقُوا.»** [3]، وقد كان القرآن الكريم المنبع الذي يستمد منه وعظه وخوفه ورجاءه، وحزنه العميق، ولعله من أجل ذلك كان يقول: **« والله يا ابن آدم لئن قرأت القرآن ثم آمنت به ليطولن في الدنيا حزنك، وليشدن في الدنيا خوفك، وليكثرن في الدنيا بكاؤك.»** [4].

ومن أشهر الوعاظ وأبينهم **واصل بن عطاء** رأس المعتزلة، الذي لم تؤثر عليه لثغته ولم تفسد بيانه إذ كان يتحاشاها في خطب طويلة، تفصح عن منتهى البراعة والجمال وقمة في الإبداع، من ذلك خطبته العتيدة المشهورة التي جانب فيها حرف الراء في مجلس والي العراق **عبد الله بن عمر بن عبد العزيز** في حضرة أعلام الخطابة وأرباب الفصاحة، هم **خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة والفضل بن عيسى الرقاشي** فبزهم واصل وتفوق عليهم جميعا، وهذه مقتطفات منها:

**«الحمد لله، القديم بلا غاية، والباقي بلا نهاية، الذي علا في دنوه، ودنا في علوه، فلا يحويه زمان، ولا يحيط به مكان... فسبحانه لا معقب لحكمه، ولا دافع لقضائه... وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا مثيل له، إلهاً تقدست أسماؤه وعظمت آلاؤه، .... يُعصى فيحلم، ويدعى فيسمع، ويقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات ويعلم ما يفعلون. وأشهد شهادة حق، وقول صدق، بإخلاص نية، وصدق طوية، أن محمد بن عبد الله عبده ونبيه، وخالصته وصفيه، ابتعثه إلى خلقه بالبينات والهدى ودين الحق، فبلغ مألكته، ونصح لأمته، وجاهد في سبيله، لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يصده عنه زعم زاعم، ماضياً على سنته، موفياً على قصده، حتى أتاه اليقين...**

**أوصيكم عباد الله مع نفسي بتقوى الله والعمل بطاعته، والمجانبة لمعصيته، فأحضكم على ما يدنيكم منه، ويزلفكم لديه، فإن تقوى الله أفضل زاد، وأحسن عاقبة في معادٍ. ولا تلهينكم الحياة الدنيا بزينتها**

---

[1]- الجاحظ: البيان والتبيين، ج: 3، ص: 174/ الطمر: الثوب البالي.

[2]- المرجع نفسه، ج: 1، ص: 285.

[3]- المرجع نفسه، ج: 3، ص: 90.

[4]- أحمد بن حنبل: كتاب الزهد، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى: 1420هـ، ص: 210.

**وخدعها، وفواتن لذاتها، وشهوات آمالها، فإنها متاع قليل، ومدة إلى حين، وكل شيء منها يزول... أين الملوك الذين بنوا المدائن، وشيدوا المصانع، وأوثقوا الأبواب، وكاثفوا الحجاب، وأعدّوا الجياد، وملكوا البلاد، واستخدموا التلاد. قبضتهم بمخلبها، وطحنتهم بكلكلها، وعضتهم بأنيابها، وعاضتهم من السعة ضيقاً، ومن العز ذلاً، ومن الحياة فناء، فسكنوا اللحود، وأكلهم الدود، وأصبحوا لا تعاين إلا مساكنهم، ولا تجد إلا معالمهم، ولا تحس منهم أحداً ولا تسمع لهم نبساً»** [1]

وهي نموذج بارع من خطب الوعظ الخالص في العصر الأموي، افتتحها بتحميد وتمجيد لعظمة الله وجلالته، وصلاة على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وأطال فيهما إطالة تفرد بها وتميز، حاثا على التقوى ومحذرا من مفاتن الدنيا، ومصورا لنهاية الحتمية للأحياء، منوها بفضل القرآن وما به من أحسس القصص وأبلغ المواعظ.

وفي مجالس الوعظ احتدم الجدال بين أرباب الفرق الدينية حول العقيدة **بين المعتزلة** بزعامة **واصل بن عطاء والقدرية** بزعامة **الحسن البصري والمرجئة** بزعامة **غيلان الدمشقي والجبرية** بزعامة **جهم بن صفوان، كما اشتعل بين الفرق السياسية من خوارج وشيعة وطال حتى خلفاء بني أمية.**

وتحتفظ لنا المظان جانب كبير من هذه الجدالات، من ذلك محاورة **واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد** أمام **الحسن البصري** في مرتكب الكبيرة، فالحسن يراه مؤمنا منافقا، بينما الخوارج يكفرونه، وتراه المرجئة مؤمنا غير منافق ولا كافر لأنهم يفصلون الإيمان عن العمل، وكان واصل يرى أنه في منزلة بين المنزلتين.

واستطاع **واصل بن عطاء** أن يقنع **عمرو بن عبيد** بوجهة نظره معتمدا القياس المنطقي، ولا ريب أن ما انتهى إليه، وهي أن مرتكب الكبيرة في منزلة بين منزلتي المؤمن، والكافر دقيق للغاية لا يصل إليه إلا عقل دعم بالثقافة، وتعود النظر العميق، والنفوذ إلى دقائق الأفكار والمعاني، واستحق بذلك زعامة المعتزلة.

ولا ريب أن هذه المحاورات والنقاشات العقلية المنطقية قد أثرت بشكل ملوحظ في تطور فن الخطابة، إذ دعمت فيها الأدلة ودققت المعاني هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية إن الوعاظ فتحوا الباب واسعا للأسلوب المولد الجديد، حين وازنوا بين جمهور مستمعين المختلط بين العرب والموالي والمولدين بأسلوب وسط عماده الفصاحة والوضوح، ومن ناحية ثالثة أن خطباء المواعظ كانوا يخطبون جالسين ومن حولهم تلامذتهم ومستمعيهم عكس خطباء السياسة والمحافل الذين كانوا وقوفا مما هيأ لهم شيئا من التمهل والتروي الذي له أثره في روعة الكلام ، ومن ناحية رابعة فقد قدم هؤلاء الخطباء الوعاظ للنثر العربيّ هدايا قيمة تمثلت في تلك الوصايا البليغة التي احتفى بها كتاب البيان والتبين، من ذلك أن سائلا سأل **عمرو بن عبيد** ما البلاغة؟ فأجاب: **« ما بلغ بك الجنة وعدل بك عن النار، وما بصرك مو اقع رشدك وعو اقب غيك»** [2].

---

[1]- أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ج: 2، ص: 501- 503.

[2]- الجاحظ: البيان والتبيين، ج: 1، ص: 112.

## 3. هيكل الخطبة في العصر الأموي[1]

اتبعت خطب العصر الأموي من حيث البناء في الغالب ما ورثوه عن النهج النبوي الذي أرسى دعائم الخطابة الإسلامية، فالخطابة مقسمة إلى أقسام واضحة:

أ. **الافتتاح:** الذي يكون بحمد الله والثناء عليه، والصلاة والسلام على رسوله، وهي السمة الغالبة على الخطبة الأمويَّة، من ذلك قول معاوية في إحدى خطبه: « **فقال: الحمد لله الذي أمرنا بحمده، ووعدنا عليه ثوابه، نحمده كثيرا، كما أنعم علينا كثيرا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله**» [2]، وقد تأتي افتتاحيتها خلافا لذلك، فبعض الخطب افتتحت بالتهديد والوعيد لتنبئ عن غضب صاحبها وترهب السامعين من عقابه الشديد، ، وقد تفتح بالشتم والتوبيخ لأن المقام مقام تأنيب وتقريع، ولعل خطبة زياد بن أبيه في البصرة عام 45هـ المعروفة بالبتراء من أبين النماذج في ذلك، وعلى شاكلتها خطبة "**عتبة بن أبي سفيان**" وكان عاملاً لأخيه معاوية على مصر، فبلغه أمور عن اهلها، فصعد عتبة المنبر مغضباً وقال: « **أيا حاملين ألأم أنوف ركبت بين أعين، إنما قلمت أظفاري عنكم ليلين مسي إياكم، وسألتكم صلاحكم لكم، إذ كان فسادكم راجعاً اليكم، فأما أذا أبيتم إلا الطعن في الولاة والتنقص للسلف، فو الله لأقطعنَّ على ظهوركم بطون السياط، فإن حسمت داءكم وإلا فالسيف من ورائكم، فكم من موعظة منا لكم مجتها قلوبكم، وزجرت صمت عنها آذانكم، ولست أبخل عليكم بالعقوبة إذا جدتم لنا بالمعصية** » [3]، وقد يبدأ بعضها بشعر يخبر عن صرامة صاحبها وغلظتها كما يبدو ذلك واضحا في خطبة الحجاج المشهور في العراق، يقول: "**أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني**"[4].

ب. **الأجزاء:** بنيت جل الخطب الأمويَّة على عرض الموضوع مباشرة، وإن كان بعضها قد قسم إلى أجزاء من مقدمة وعرض وخاتمة؛ أما المقدمة، فقد جاءت واضحة في بعض الخطب، كخطبة معاوية في التمهيد لتولية ابنه يزيد زمام الحكم من بعده بالإشارة إلى كبر سنه وضعف جسده، وقرب أجله، ثم انتقل إلى الموضوع، يقول بعد الافتتاح: « **أما بعد، فإني قد كبر سني، ووهن عظمي، وقرب أجلي، وأوشكت أن أدعى فأجيب، وقد رأيت أن أستخلف عليكم بعدي يزيد، ورأيته لكم رضا، و أنتم عبادلة قريش وخيارها، و أبناء خيارها، ولم يمنعني أن أحضر حسنا وحسينا إلا أنهما أولاد أبيهما علي على حسن رأيي فيهما، وشديد محبتي لهما، فردوا على أمير المؤمنين خيرا رحمكم الله**» [5].

---

[1]- ينظر: أحمد محمد الحوفي، أدب السياسة في العصر الأموي، ص: 340- 346.

[2]- ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ج: 1، ص: 139.

[3]- أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ج: 2، ص: 221.

[4]- المرجع نفسه، ج: 2، ص: 288.

[5]- ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، مج: 1، ص: 148.

**ومن مثله أيضا خطبة أبي حمزة الشاري في الدفاع عن أنصاره الشباب**، فقد مهد للموضوع بعرض عام لسياسة المصطفى صلى الله عليه وسلم وسياسة خلفائه الراشدين ثم انتقل إلى الحملة على معاوية ويزيد وخلص إلى الدفاع عن حزبه، ومما جاء فيها قوله: «**يا أهل المدينة قد بلغني مقالتكم لأصحابي ولولا معرفتي بضعف رأيكم وقلة عقولكم لأحسنت أدبكم، ويحكم، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزل عليه الكتاب وبين له فيه السنن وشرع له فيه الشرائع وبين له فيه ما يأتي وما يذر، فلم يكن يتقدم إلا بأمر الله ولا يحجم إلا عن أمر الله، حتى قبضه الله إليه صلى الله عليه وسلم، وقد أدى الذي عليه وعلم المسلمين معالم دينهم ولم يدعهم من أمرهم في شبهة، ... فأي هذه الفرق يا أهل المدينة تتبعون ؟ أم بأي مذاهبهم تقتدون؟، وقد بلغني أنكم تنتقصون أصحابي!، قلتم هم شباب أحداث وأعراب جفاة، ويحكم يا أهل المدينة، وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله، المذكورون في الخير إلا شبابا أحداثا ؟**»[1]

ج . **الخاتمة:** وإذ وصلنا إلى الخاتمة فقد كان تكون في أغلب الأحيان ملائمة الهدف الذي يرمي إليه الخطيب من خطبته، فقد تأت على شكل تهديد ووعيد، أو في شكل دعاء أو استغفار يخص به الخطيب نفسه وسامعيه، وقد تأت على شكل آية من الذكر الحكيم، أو أبيات من الشعر.

## 4. الخصائص والسمات الفنية للخطابة في العصر الأموي[2]

**أ. الإعداد:** لقد أولى الخطباء في العصر الأموي خطبهم من العناية بإعدادها، والتأني في صوغها، والتدبر في ترتيب أجزائها، وتنسيق أفكارها، والتأنق في أسلوبها الكثير، فظاهرة الإعداد المسبق عرفت قبل هذا العصر، فقد روي عن عثمان بن عفان - رضي الله عنه- صعد المنبر فارتج عليه فقال: « **إنا أبا بكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالا و أنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى الخطيب، وستأتيكم الخطب على وجهها وتعلمون إن شاء الله**» [3]، وتواردت أخبار كثيرة تؤكد نهج الخطباء الأمويين للإعداد المسبق، فقد قيل للخليفة **عبد الملك بن مروان:** « **عجل عليك الشيب يا أمير المؤمنين**، فقال: **وكيف لا يعجل علي و أنا أعرض عقلي على الناس في كل جمعة أو مرتين**».[4].

وقد علق الجاحظ على قول الكميت: «**إن للخطبة صعداء وهي على ذي اللب أرمى، فقال: ... و إنما يجترئ على الخطبة الغر الجاهل الماضي الذي لا يثنيه شيء أو المطبوع الحذق الواثق بغزارته و اقتداره**»[5]، ونتلمس أثار الإعداد المسبق في كثير من الخطب الأمويَّة كخطبة الحجاج بالكوفة، وخطبة أبي حمزة الشاري بالمدينة.

---

[1]- أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ج: 2، ص: 269.

[2]- ينظر: أحمد محمد الحوفي، أدب السياسة في العصر الأموي، ص: 338- 361.

[3]- الجاحظ: البيان والتبيين.ج: 1، ص: 345.

[4]- المرجع نفسه، ج: 1، ص: 135.

[5]- الجاحظ: البيان والتبيين، ج: 1، ص: 134.

ب. **العنف والتهديد:** تتسم أغلب الخطب الأمويَّة على اختلاف انتماءات أصحابها بالعنف والصرامة والانفعال من حيث ألفاظها وتراكيبه، كما تزخر بشن الحملات على الخصوم والتهجم عليهم، وسبهم واتهامهم بالظلال والكفر والفجور، والتعود بعقاب الله والتهديد بالثورة والانتقام، ومن ذلك قول **صالح بن مسرح** يدعوا الخوارج على الثورة: « **تيسروا رحمكم الله لجهاد هذه الأحزاب المتحزبة و أئمة الضلال المظلمة، للخروج من دار الفناء إلى دار البقاء»** [1]، ومنه أيضا تعريض **ابن الزبير** بـ"**يزيد بن معاوية**" في رثائه للحسين: «**أما والله ما كان يبدل بالقرآن الغناء، ولا بالبكاء من خشية الله الحداء، ولا بالصيام شرب الحرام، ولا بالمجالس في حلق الذكر الركض في طلاب الصيد»** [2]، وقد بلغ زياد بن أبيه والحجاج في خطبهما في البصرة والكوفة منتهى الصرامة في التهديد والوعيد وتجاوز الأمر عندهما القول إلى الفعل.

ولعل سمة العنف والتهديد يتجلى خاصة في الخطابة السياسية، بينما الخطابة الدينية والاجتماعية هادئة لينة تنساب جملها في هدوء، ورفق دون أن يكون لعباراتها وتراكيبها ذلك الانفعال، وذلك أن اختلاف طبيعة الموضوع يستتبع اختلافا في منهج الخطبة العام من حيث حرارة الجمل وانفعالها، أو هدوئها ولينه.

ج. **التخييل والتصوير**: وتتضمن الخطابة الأمويَّة ألوانا من الصور البيانية والمحسانات اللفظية من أجل إيصال أفكارهم وإقناع سامعيهم والتأثير فيهم بما يذهبون إليه من أراء، من ذلك تلك الاستعارات الجميلة في قول **الحجاج: « إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها... وإنَّ أميرَ المؤمنينَ أطالَ اللهَ بقاءَه نَثْرَ كِنَانَتَهُ بينَ يَدَيْهِ، فَعَجَمَ عِيدَانَها، فَوجَدَنِي أَمَرَّها عُودًا وأَصْلَبَها مَكْسَرًا»** [3]، ومن التشبيهات الماتعة قول: **عبد الملك المروا ني: «فأصمم تصميم الحسام المطرور، وأصول صيال الحنق الموتور »** [4]، ومن الكنايات النافذة قول **عتبة بن أبي سفيان: «لا تمدوا الأعناق إلا غيرنا فإنها تنقطع دوننا»**[5].

ومن ضروب التصوير المثير التي يلجأ إليه الخطيب للوصول أعماق النفوس قول أبو حمزة الشاري: « **فكم من عين في منقار طائر، طالما بكى بها صاحبها في جوف الليل من خوف الله، وكم من يد قد أبينت عن ساعدها، طالما اعتمد عليها صاحبها راكعا وساجدا، وكم من وجه رقيق وجبين عتيق قد فلق بعمد الحديد»** [6]، فهو يستشير السامعين ويدر عطفهم وحسراتهم على هؤلاء العباد الشجعان الذين كان جزاؤهم القتل والتمزيق.

ومن المقابلات الحسنة قول **زياد بن أبيه: « أما بعدُ، فإنَّ الجهالةَ الجهلاءَ، والضَّلالةَ العمياءَ، والغَيَّ المُوفِّيَ بأهلِه على النارِ ما فيه سفاؤكم، ويشتملُ عليه حُلَماؤُكم مِن الأمورِ العظامِ يَنْبُتُ فيها الصغيرُ، ولا**

---

[1]- أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ج: 2، ص: 460.

[2]– المرجع نفسه، ج: 2، ص: 169.

[3]- المرجع نفسه، ج: 2، ص: 289- 290.

[4]- المرجع نفسه، ج: 2، ص: 193.

[5]- المرجع نفسه، ج: 2، ص: 223.

[6]- أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ج: 2، ص: 467.

**يتحاشى عنها الكبيرُ كأنَّكم لم تقرؤوا كتابَ اللهِ ولم تسمعوا ما أَعَدَّ اللهُ مِن الثَّوابِ الكبيرِ لأهلِ طاعتِه، والعذابِ الأليمِ لأهلِ معصيتِه في الزَّمنِ السَرْمَدِيِّ الذي لا يزولُ»** [1]

د. **متانة التعبير وجودة السبك:** فقد وسم التعبير في الخطب الأمويَّة بعدة سمات منها:

- **قوة العبارة وجزالتها:** لأن جل تلك الخطب تعبر عن مشاعر جياشة ونفوس ثائرة، من ذلك قول عبد الملك بعد مقتل مصعب بن الزبير: «**إنَّ الحرب صعبة مرة، وإن السلم أمن ومسرة، وقد زبنتنا الحرب وزبناها، فعرفناه وألفناها، فنحن بنوها، وهي أمنا».** [2]

- **قصر الجمل:** وهي من مميزات اللسان العربيّ الفصيح منذ الجاهليّة، ليشتد وقع الجمل و يتلاحق تأثيرها، من ذلك قول الحسن لمعاوية: «**أنا الحسن، و أبي علي، و أنت معاوية، و أبوك صخر، وأمي فاطمة، وأمك هند، وجدي رسول الله، وجدك عتبة بن ربيعة»**[3].

- **العناية بالوقع والرنين:** ويتحقق ذلك إما عن طريق السجع أو عن طريق الازدواج، وقد يتحقق بواسطة التقسيم المتوازن في أحين أخرى، ويتجلى ذلك بوضوح في قول الحجاج: «**إن للشيطان طيفا وللسلطان سيفا، فمن سقمت سريرته، صحت عقوبته، ومن وضعه ذنبه، رفعه صلبه، ومن لم تسعه العافية، لم تضق عنه الهلكة»** [4].

- **الإيجاز المعتدل**: الطابع الغالب على الخطابة الأمويَّة الإيجاز دون أن يكون فيه إخلال أو قصور، وتنذر فيها الخطب المطولة المسهبة إلا إذا استدعي المقام الاسترسال دون حشو وفضول، وهي ظاهرة تعتبر امتداد لخطابة عصر صدر الإسلام والخلفاء الراشدين، ولعل أطول الخطب الأمويَّة خطبة أبي حمزة الشاري في المدينة، وتقل الخطب الموجز المتناهية في القصر؛ ومن نماذجها خطبة عبد الملك لما علم بثورة ابن الأشعث في سطرين، وخطبة ابن الزبير وقد بلغه خبر مقتل عمرو الأشدق في سطر واحد.

هـ. **التأثر بالقرآن الكريم:** يكثر في الخطابة العصر الأموي الاقتباس من القرآن الكريم، مع دقة متناهية في وضع الآيات في مواطنها الملائمة لمعاني الخطبة، حتى ليظن السامع أن الكلام كله للخطيب. وقد عمد الخطباء إلى الاقتباس، حتى ليكون لخطبهم من التأثير وشدة الوقع ما لآيات القرآن الكريم في نفوس الناس من القوة والقداسة، يقول الجاحظ: « **وكانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل وفي الكلام يوم الجمع آي من القرآن، فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والرقة وسلس الموقع»** [5].

---

[1]- المرجع نفسه، ج: 2، ص: 270- 271.

[2]- المرجع نفسه، ج: 2، ص: 194.

[3]- المرجع نفسه، ج: 2، ص: 14- 15.

[4]- المرجع نفسه، ج: 2، ص: 292.

[5]– الجاحظ، البيان والتبيين، ج: 1، ص: 115.

وقد قال أحد السامعين إلى "**عمران بن حطان**" بعد أول خطبة ألقاها: «**...هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن**»[1].

ويشيع الاقتباس من أي القرآن الكريم في الخطب الدينية و الوعظية التي تناسب مقام الخطبة من تذكير وتخويف، ووعد ووعيد، وترغيب وترهيب، وإذا خلت من القرآن سميت "شوهاء"، ومن تلك الاقتباسات قول الحجاج: ﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ**﴾ **[النحل 112]**[2].

وقول أبي حمزة الشاري في تزكية القتلى من أصحابه: « **فطوبى لهم وحسن مآب» من قوله تعالى: [ والذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب] [الرعد29]**.[3]

وإلى جانب الاقتباس فقد عمد كثير من الخطباء استمداد معانيهم من آيات القرآن الكريم، وهي كثيرة الدوران في جل الخطب الأمويَّة باختلاف توجهاتها، من ذلك قول سيدنا الحسن رضي الله عنه في رده على الذين استنكروا صلحه لمعاوية: «**إن الله لا معقب لحكمه، ولا رد لقضائه**»[4]، ففي هذه الجملة يتجلى قوله تعالى: **[والله يحكم لا معقب لحكمه]** الرعد31، وقوله: **[حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا]** الأنفال 42.

و. **الاستشهاد بالشعر:** تميزت خطب هذا العصر بكثرة الاستشهاد بالشعر الذي غلب على الخطب السياسية وخاصة الشعر القوي الذي يلهب العواطف، فقد كان الشعر أحد مكوناتهم الثقافية وكان تأثيره في الناس بعيد المدى آنذاك، وذلك كالشعر الذي ضمنه عبد الله بن الزبير في خطبته بمكة وهو محاصر من الحجاج:

**أبى لابن سلمى أنه غير خالد  ملاقي المنايا أي صرف تيمما**

**فلست بمبتاع الحياة بسبة  ولا مرتق من خشية الموت سلما**

ثم استلم الحجر، فتكاثروا عليه، فحمل عليهم وهو يقول:

**قد سن أصحابك ضرب الأعناق  وقامت الحرب بنا على ساق**

فأصابه حجر فأدمى جبينه، فقال:

**ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا  ولكن على أقدمنا تقطر الدما**[5]

---

[1]- المرجع نفسه، ج: 2، ص: 6.

[2]- أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ج: 2، ص: 290.

[3]- المرجع نفسه، ج: 2، ص: 476.

[4]- المرجع نفسه، ج: 2، ص: 16.

[5]- أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ج: 2، ص: 180- 181.

وهذه أبر الخصائص والسمات الفنية التي تمايزت بهذا خطب العصر الأموي والتي خطت خطوات واسعة في سبيل التطور و الازدهار، فلم يكن غريبا أن تحتل الخطابة المكان الأول من الفنون النَّثرية، ولم يكن غريبا كذلك أن يسم المؤرخون هذا العصر بأنه عصر الخطابة بلا منازع.

إذا يمكن تلخيص ما مضى في الفقرة التالية؛ بلغت الخطابة في العصر الأموي (41-132هـ) ذروة نضجها واتساعها، حيث تحولت إلى أداة سياسية وفكرية حاسمة واكبت الصراعات المحتدمة بين الأحزاب المتعددة (كالخوارج، والشيعة، والزبيريين، والأمويين). وتضافرت عوامل سياسية، واجتماعية، ودينية في ازدهارها؛ فقد حفزت الخلافات حول السلطة الخطباء على التنافس البليغ للترويج لمذاهبهم، كما ساهم اتساع الفتوحات واستقدام الوفود من الأمصار إلى قصور الخلفاء في إثراء فن "خطابة الوفود والمحافل"، وتنوعت أغراضها بين خطب سياسية حماسية، وأخرى وعظية زاهدة، وخطب مناظرات عقلية متأثرة بظهور علم الكلام، وتميزت الخطابة الأموية بمتانة التعبير، وقصر الجمل، وجزالة الألفاظ، مع الاقتباس المكثف من القرآن الكريم والاستشهاد بالشعر لتعزيز الحجة والتأثير في النفوس. اعتمد الخطباء نهج الإعداد المسبق والتأني في الصياغة، واتسمت لغة الخطب بالانفعال والعنف في المقام السياسي، وبالرقة واللين في المقام الوعظي.

كما برز أعلام كبار في هذا الفن، كالحجاج بن يوسف في الصرامة السياسية، والحسن البصري وواصل بن عطاء في الوعظ والجدل، حيث استطاعوا تطويع اللغة لخدمة قضاياهم. وقد حافظ الهيكل الفني للخطبة على التقاليد الإسلامية، من افتتاح بالتحميد والثناء وختام بالدعاء أو الحكمة، مع تكريس صور بيانية بليغة وتشبيهات قوية عززت من بلاغة النص الأموي، وبذلك لم تعد الخطابة مجرد وسيلة للتواصل، بل أصبحت مرآة تعكس نضج التجربة السياسية والاجتماعية للدولة، وميداناً للإبداع الأدبي الذي تبارى فيه الخطباء لإحراز الغلبة وإقناع الجماهير.

# فن الخطابة في العصر العباسي

- أسباب ضعف وتراجع فن الخطابة في العصر العباسي
- موضوعات فن الخطابة في العصر العباسي
- خصائص وسمات الخطابة في العصر العباسي

الحصة 6

يمثل العصر العباسي (132- 656هـ) ذروة النهضة الحضارية الإسلامية، امتد من تأسيس الدولة العباسية عام 132هـ/ 750م إلى سقوط بغداد عام 656هـ/ 1258م على يد التتار.

عرفت الخطابة في العصر العباسي الأول (132هـ/ 232هـ) عصر قوة الدولة وازدهارها، حظها المرجو من النضج والازدهار، فقد ظلت محتفظة بمقومات بقائها ونموها ونشاطها، فهذا العصر هو امتداد للعصر الذي سبقه من حيث بناء الخطبة وشدة إحكامها، وفضلا عن كثرة النصوص التي وصلت إلينا عن هذا العصر، كثر الخطباء المصاقع الفوهيين، الذين شهروا بالفصاحة والبلاغة، وإجاد القول، وحضور البديهة، والقدرة على الارتجال يتقدمهم خلفاء بني العباس الأوائل؛**كالمنصور والمهدي، والرشيد والمأمون**، ودعاتهم أمثال: **داود بن علي، وخالد بن صفوان، وشبيب بن شيبة**، فقد اعتمد البيت العباسي على فن الخطابة لترسيخ دعائم الملك، وتحميس الجند، واستقبال الوفود، لتبلغ أوجها في صدر هذا العصر أمدا قصيرا لقلة الدواعي إليها وضعف القدرة عليها.

## 1. أسباب ضعف وتراجع فن الخطابة في العصر العباسي [1]

أسهمت عوامل كثيرة وملابسات أحاطت بفن الخطابة في العصر العبّاسي أدت إلى تراجعها وضعفها بعد النهضة والمكانة التي عرفتها في بداية العصر، فقد بدأ (العدُّ التنازلي) للضعف الخطباء، وجمود فن الخطب، إلى حدٍ ما، من أواخر عصر الرشيد، وخلافة أبنائه: الأمين، والمأمون، والمعتصم (ت 227 هـ)، لعل من أهمها:

**أ. استقرار الدولة العباسية:** بعد استقرار الحكم العباسي وتوطيد ثوابت الملك لم تعد هناك حاجة داعية إلى فن الخطابة كما كان الأمر أوائل العصر.

**ب. غياب الحرية وتكميم الأفواه:** في هذا العصر صودرت الحريات وكممت الأفواه ومعروف أن الخطابة لا تنتعش وتزدهر إلا حين تكفل للناس حرياتهم السياسية، فقد أخذ العباسيين الناس بالبطش والقوة ولم يكن هناك إلاّ السيف أو الاذعان، فأفلت شوكة الأحزاب السياسية.

**ج. اسدال الحجب بين الخليفة والرعية:** لم يعد البيت العباسي مفتوحا للخطباء المفوهين ولم يعد بلاطهم يَلْقَى وفودها، واستغنى الخلفاء عن استدناء القلوب، وقلت الخطب بين أيديهم، وقُصِرت الخطب على مناسبات بعينها.

**د. غلبة العجمة وتقويض حكم العرب:** فقد أثرت العجمة بشكل كبير على فن الخطابة، فضلا عن الانحسار التدريجي للعنصر العربيّ، لحساب العناصر الأخرى، كالبرامكة، والصقالبة، والأتراك، والمماليك، وغيرهم، وفي ضعف العرب ضعف للخَطابة لأنهم أقدر الناس عليها، وليس العربيّ كالمتعرب، ولم يعد الخلفاء يخطبون إلا في الجمع والأعياد.

---

[1]- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي - العصر العباسي الأول-، ص: 448- 456.

**هـ. الابتعاد عن الشفوي المرتجل إلى الخطابة المكتوبة:** فقد فقدت الخطابة في العصر العباسي صفة الارتجال وملاءَمة الخطبة للظرف المحيط بالخطيب، وصارت الخطب تُنسخ نسخًا وتحفظ حفظًا، فيفيض سجعها غثاثة ويشبه أولها آخرها في قلة المعنى واتساق النباهة، وفي أخبار الرشيد أنه عهد إلى الأصمعي أن يحفظ ابنه الأمين خطبة يخطب بها في الناس يوم الجمعة.

**و. انتشار الفنون النَّثرية الكتابيّة:** فقد استطاع فن الكتابة أن يفرض نفسه بقوة وأن يحل محل الخطابة فانشغل أدباء هذا العصر بالرسائل والمنشورات في دفع العظائم وسل السخائم، ناهيك عن سيادة فن المناظرة في ذلك العصر، تبعا لرقي للحياة العقلية آنذاك .

## 2. موضوعات فن الخطابة في العصر العباسي [1]

**أ. الخطب السياسة:** عرفت الخطب السياسية في أوائل العصر العباسي نشاطا واسعا، فقد كانت الدولة العباسية في حاجة شديدة إلى ترسيخ دعائم ملكها وتوطيد أركانه وإثبات حق العباسيين في الخلافة بضغط على أبناء عمومتهم للاستئثار بها دونهم، فهم الذين قوضوا حكم بني أمية وحطموه في ثورتهم، على نحو ما يتضح في خطبة **أبو العباس السفاح** حين بويع بالخلافة في الكوفة، التي يتحدث فيها عن الخلافة، وعن حقهم الشرعي فيها الذي اغتصبه بنو أمية منهم، يقول: « **ثم وثب بنو حرب ومروان فابتزوها وتداولوها بينهم، فجاروا فيها، واستأثروا بها، وظلموا أهلها، فأملى الله لهم حينًا حتى أسفوه، فلما أسفوه انتقم منهم بأيدينا، ورد علينا حقنا، وتدارك بنا أمتنا، وولي نصرنا والقيام بأمرنا، ليمن بنا على الذين استضعفوا في الأرض، وختم بنا كما افتتح بنا، وإني لأرجو ألا يأتيكم الجور من حيث أتاكم الخير، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله**»[2].

وبموت السفاح تنساق الخلافة **لأبي جعفر المنصور**، الذي عمل ثبيت الدولة العباسية ووضع أساسها الراسخ، فهو لمؤسس الحقيقي لها، وأن ينصب نفسه سلطان الله في أرضه وحجته على خلقه، يقول: « **أيُّها الناسُ، إنما أنا سلطانُ اللهِ في أرضِه، أسوسُكم بتوفيقِه وتسديدِه وتأييدِه، وحارسُه على مالِه أَعْمَلُ فيه بمشيئتِهِ وإرادتِهِ وأُعْطِيه بإذنِهِ، فقد جعلني اللهُ عليه قُفْلاً إنْ شاءَ أَنْ يَفْتَحَنِي فَتَحَنِي؛ لإعطائِكم وقَسْمِ أرزاقِكم، وإنْ شاءَ أَنْ يُقْفِلَنِي عليها أَقْفَلَنِي فارْغَبُوا إلى اللهِ، وسَلُوه في هذا اليومِ الشريفِ الذي وهَبَ لكم مِن فَضْلِهِ ما أَعْلَمَكم به إذ يقولُ ﴿اليومَ أكملتُ لكم دينَكم و أتممْتُ عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام دينًا﴾ أَنْ يُوفِّقَنِي للرَّشادِ والصّوابِ، وأَنْ يُلْهِمَنِي الرَّأفةَ بكم والإحسانَ إليكم، أقولُ قولي هذا، وأستغفرُ الله لي ولكم**»[3].

---

[1]- ينظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ج: 3، ص: 448- 456/ عبد الحكيم بلبع، النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، ص: 136- 138.

[2]- أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ج: 3، ص: 8.

[3]- المرجع نفسه، ج: 3، ص: 27.

**وسعى العباسيون للقضاء على خصومهم الذين يتربصون بهم بالسيف والكلمة، من فلول الأمويين والخوارج والشيعة**، ولاسيما ثورة العلويين بقيادة محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب المعروف بالنفس الزكية، وأخيه إبراهيم، الذين اتخذوا من الخطابة معولا هداما لنقض ما أبرمه العباسيون، وإبطال ما ادعوه، وإثبات أحقية البيت العلوي بالخلافة، وإرثها عن الرسول صلى الله عليه وسلم، ، وإن كان **المنصور** والذي لم يكن في العباسيين أبينُ منه ولا أخطب، فإن **محمد بن عبد الله** لا يقل عنه سناً وفصاحة، من ذلك قول حين خرج على **المنصور: « أيها الناس: إنه قد كان من أمر هذا الطاغية أبي جعفر من بنائه القبة الخضراء، التي بناها معاندة لله في ملكه، وتصغيره الكعبة الحرام، و إنما أخذ الله فرعون حين قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: 24]؛ وإن أحق الناس بالقيام في هذا الدين أبناء المهاجرين الأولين، والأنصار المواسين، اللهم إنهم قد أحلوا حرامك، وحرموا حلالك وعملوا بغير كتابك، وغيروا عهد نبيك صلى الله عليه وسلم، وأمنوا من أخفت، وأخافوا من أمنت، فأحصهم عددًا، و اقتلهم بددًا، ولا تبق على الأرض منهم أحدًا»** [1].

ولم يلبث المنصور أن قضى على هذه الثورة قضاء مبرما، ففي هذا العصر أخذ العباسيين الناس بالشدة، ولم يكن هناك إلا السيف أو الإذعان، فضعفت الأحزاب السياسية وذابت حريتهم في سلطانهم الباطش بكل مَنْ تحدثه نفسه بالخروج عليهم، من ذلك خطبة المنصور وقد بلغه أن قوما أظهروا شكاة بني العباس، يقول: **« مهلاً مهلًا، روايا الإرجاف، وكُهوفَ النفاق، عن الخَوض فيما كُفيتم، والتَّخَطِّي إلى ما حُذِّرْتُم. قبل أن تَتْلف نفوس، ويقلّ عدد، ويدول عزّ، وما أنتم وذاك، ألم تَجدُوا ما وعَد ربكم من إيراث المُسْتَضعفين من مَشارق الأرض ومَغاربها حقاً والجَحْد الجحد. ولكن حِبِّ كامن، وحَسدٌ مُكْمِد، فبُعداً للقوم الظالمين»** [2].

وعلى شاكلتها جاءت خطبة **داود بن علي** بالمدينة، التي تقرع الأسماع، وتبث الرعب في القلوب، وترسم مبادئ السياسة الدولة العباسية القائمة على القوة، يقول: **«أيها الناس. حتّام يهتف بكم صريخكم؟ أما آن لر اقدكم أن يهب من نومه؟ كَلَّا بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ، أغركم الإمهال حتى حسبتموه الإهمال؟ هيهات منكم وكيف بكم والسوط في كفي والسيف مشهر»** [3]

وبعد استتباب الحكم العباسي واستقراره واخماد الفتن والقلاقل والصراعات الداخلية والثورات تراجعت الخطب السياسية ولم يعودوا في حاجة إليها، إلا أنها ما فتأت تظهر من جديد مصاحبة الصراع بين الأمين والمأمون إلا أنها في الحقيقية لم ترق إلى ما عرف عن الخطب السياسية السابقة تشكيلا وفنا.

**ب. خطب الوفود:** وإذا انتقلنا إلى خطب الوفود في العصر العباسي فهي الأخرى هفت برقيقها وبدأت بالتضاؤل فقد أغلقت الأبواب فلم تعد وفود العرب تفد على قصور ومجالس البيت العباسي، وأسدلت الحجب

---

[1]- أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ج: 3، ص: 38.

[2]- المرجع نفسه، ج: 3، ص: 16.

[3]- المرجع نفسه، ج: 3، ص: 15.

بين الخليفة والرعية وأصبحت خطب الوفود شيئاً نادراً يقال في الحيف الطويل بعد الحين، بعد أن كانت في صدر الدولة العباسية ونشوئها تدبج، واقتصرت خطب الوفود حينئذ على مناسبات معينة كالاستعطاف أو التعزية أو الجمع بين التهنئة والتعزية وغير ذلك...

ومن خطب الاستعطاف، خطبة **تميم بن جميل السدوسي للمعتصم**، وكان **تميم** قد خرج بشاطئ الفرات، واجتمع إليه كثير من الأعراب، فَعَظُم أمره، وبعد ذكره، فكتب **المعتصم** إلى **مالك بن طَوق** في النهوض إليه، فبدد جمعه، فظَفَر به، فحمله موثَقًا إلى المعتصم، فلما مَثَل بين يديه، دعا بالنطع والسيف فَأُحضرا، فجعل تميم بن جميل ينظر إليهما ولا يقول شيئًا، وجعل **المعتصم** يصعِّد النظر فيه ويصوبه، وكان جسيمًا وسيما، ورأى أن يستنطقه لينظر أين جَنَانه ولسانه من منظره، فقال: **يا تميم** إن كان لك عذر فأْتِ به، أو حجة فأَدْلِ بها، فقال: أما إذ قد أذن لي أمير المؤمنين فإني أقول: **«الحمد لله الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين "جَبَر بك سبل الحق، وأخمد بك شهاب الباطل، يا أمير المؤمنين إن الذنوب تُخْرِس الألسنة الفصيحة، وتُعْيِي الأفئدة الصحيحة، ولقد عظمت الجزيرة، و انقطعت الحجة، وكبر الذنب، وساء الظن، ولم يبقَ إلا عفوك أو انتقامك، وأرجو أن يكون أقربهما مني، وأسرعهما إليَّ، أَولَاهما بامتنانك، وأشبههما بخلافتك »** [1].

**وتمكن تميم من اقناع خصمه واستمالة عطفه بما أبداه من اعتذار ملفع باستعطاف أسر، فتبسم المعتصم وقال: « كاد الله يا تميم أن يسبق السيف العَذَل، اذهب فقد غفرت لك»** [2].

ومن خطب العزاء خطبة **يحي بن المنصور** التي عزى بها **سليمان بن علي الهاشمي** في وفاة ولده، وقد حزن عليه **سليمان** حزنا شديدا، وجعل الناس يعزونه فلا يحفل لذلك فدخل عليه **يحيى بن منصور** فقال: **«عليكم نزل كتاب الله فأنتم أعلم بفرائضه ومنكم كان رسول الله فأنتم أعرف بسنته ولست ممن يعلم من جهل ولا يقوم من عوج ولكني أعزيك ببيت من شعر قال: هاته قال:**

**وهون ما ألقى من الوجد أنني ..... أساكنه في داره اليوم أو غدا»** [3]

وقد يعمد الخطيب إلى الجمع بين التهنئة والتعزية من ذلك خطبة **ابن عتبة** التي ألقاها في مجلس **المهدي بن المنصور** وقد قدمت وفود الأمصار، يهنئه بالخلافة ويعزيه بموت أبيه **المنصور**: **«آجَرَ الله أمير المؤمنين على أمير المؤمنين قبله، وبارك الله لأمير المؤمنين فيما خلَّفه له أمير المؤمنين بعده، فما مصيبةٌ أعظم من فَقْدِ أمير المؤمنين، ولا عُقْبَى أفضل من وراثة مقام أمير المؤمنين، فاقبل يا أمير المؤمنين من الله أفضل العطية، واحتسب عند الله أفضل الرَّزية»**[4].

---

[1]- أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ج: 3، ص: 146

[2]- المرجع نفسه، ج: 3، ص: 147.

[3]- الجاحظ: البيان والتبيين.ج: 1، ص: 605.

[4]- أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ج: 3، ص: 77.

**ج. الخطب الدينية:** نشطت الخطابة الدينية في العصر العباسي واستطاعت المحافظة على استمراريتها بين العامة والخاصة، وهذا اللون من الخطب يقوم على أساس الوعظ والتذكير، وعلى نحو ما كان الخلفاء والولاة يشاركون فيها لعصر بني أمية كانوا يشاركون فيها أيضاً لهذا العصر، ومن جيد ما انتهى إلينا خطبة بارعة مأثورة **لهارون الرشيد**، جاء فيها: « **عباد الله؛ إنكم لم تخلقوا عبثا، ولن تتركوا سدى؛ حصّنوا إيمانكم بالأمانة، ودينكم بالورع، وصلاتكم بالزكاة؛ فقد جاء في الخبر أن النبي صلّى الله عليه وسلم قال«: لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له، ولا صلاة لمن لا زكاة له» .إنكم سفر مجتازون و أنتم عن قريب تنتقلون من دار فناء إلى دار بقاء؛ فسارعوا إلى المغفرة بالتوبة، وإلى الرحمة بالتقوى، وإلى الهدى بالأمانة، فإن الله تعالى ذكره أوجب رحمته للمتقين، ومغفرته للتائبين، وهداه للمنيبين»**[1].

وعلى نسقها جاءت خطبة المأمون العباسي في يوم الجمعة، المعروف بفصاحته وحلاوة لفظه وجودة سبكه، والتي استهلها بالتحميد، والتمجيد، ثم انتقل إلى موضوعها الرئيس وهو الحث على التقوى والعمل الصالح، والتنفير من الدنيا ومتاعها الزائل، والتذكير بالموت، يقول: « **أوصيكم عباد الله ونفسي بتقوى الله وحده، والعمل لما عنده، و التنجّز لوعده، والخوف لوعيده؛ فإنه لا يسلم إلا من اتقاه ورجاه، وعمل له وأرضاه. فاتقوا الله عباد الله وبادروا آجالكم بأعمالكم؛ و ابتاعوا ما يبقى بما يزول عنكم ويفنى، وترحلوا عن الدنيا، فقد جدّ بكم، واستعدّوا للموت فقد أظلّكم، وكونوا كقوم صيح بهم فانتبهوا، وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا؛ فإن الله عز وجل لم يخلقكم عبثا، ولم يترككم سدى، وما بين أحدكم وبين الجنة والنار إلا الموت أن ينزل به...»** [2]

ومن نموذخ خطب الولاة العباسيين، نأخذ خطبة **محمود بن سليمان الهاشمي** والي البصرة في خلافة **أبي جعفر المنصور**، وهي من خطب يوم الجمعة وكان لا يغيرها، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: « **من يعتصم بالله ورسوله، فقد اعتصم بالعروة الوثقى، وسعد في الأولى والآخرة، "ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالًا بعيدًا وخسر خسرانًا مبينًا، وأسأل الله أن يجعلنا و إياكم ممن يطيعه ويطيع رسوله، ويتبع رضوانه، ويتجنب سخطه، فإنما نحن له وبه...»** [3].

وقد كان بعض خلفاء بني عباس يستقبلون الوعاظ ويوسعون لهم في مجالسهم، يتقدمهم **عمرو بن عبيد المعتزلي** الزاهد المشهور واعظ **المنصور**، ومن مقامته المحمودة بين يدي **المنصور** قوله: «**إن الله أعطاك الدنيا بأسرها، فاشتر نفسك ببعضها، واذكر ليلة تمخّض عن يوم لا ليلة بعده؛ فوجم أبو جعفر من قوله؛ فقال له الربيع: يا عمرو، غممت أمير المؤمنين؛ فقال عمرو: إن هذا صحبك عشرين سنة لم ير لك عليه أن ينصحك يوما واحدا وما عمل وراء بابك بشيء من كتاب الله ولا سنّة نبيّه؛ قال أبو جعفر: فما أصنع؟ قد**

---

[1]- أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ج: 3، ص: 84.

[2]- المرجع نفسه، ج: 3 ص: 121.

[3]- المرجع نفسه، ج: 3، ص: 52.

**قلت لك: خاتمي في يديك فتعال وأصحابك فاكفني؛ قال عمرو: أدعنا بعدلك تسخ أنفسنا بعونك؛ ببابك ألف مظلمة اردد منها شيئا نعلم أنك صادق»**[1].

**وصالح بن عبد الجليل** الناسك المفوه واعظ **المهدي**، ومما يؤثر عنه أنه دخل عليه يوما، فسأله أن يأذن له بالكلام، فقال تكلم: « **فقد كان أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم- يقولون: " من حجب الله عنه العلم، عذَّبه على الجهل، وأشد منه عذابًا مَنْ أقبل إليه العلم وأدبر عنه، ومن أهدى الله إليه علما فلم يعمل به، فقد رَغِب عن هديَّة الله وقصَّر بها"، فاقْبَل ما أهدى الله إليك من ألسنتنا، قبولَ تحقيق وعمل، لا قبولَ سُمْعَة ورياء، فإنه لا يَعْدمك منا إعلامٌ لما تجهل، أو مواطأة على ما تعلم، أو تذكير لك من غفلة، فقد وطن الله - عز وجل- نبيه - عليه الصلاة والسلام- على نزولها، وتعزيةً عما فات، وتحصينًا من التمادي، ودلالة على المخرج، فقال: ﴿وإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فَأَطْلِع الله على قلبك، بما ينور الله به القلوب، من إيثار الحق، ومنابذة الأهواء فإنك إن لم تفعل ذلك يُرَ أثرك و أثر الله عليك فيه، لا حول ولا قوة إلا بالله»**[2].

**و ابن السماك** الواعظ المحدث الزاهد واعظ **الرشيد**، فيروى عنه أنه دخل عليه يوما، فقال له **الرشيد** عظني، فقال: «**يا أمير المؤمنين اتق الله وأحذره، لا شريك له، وأعلم أنك و اقف غداً بين يدي الله، ثم مصروف الى احد منزلتين. لا ثالث لهما؛ جنة او نار**»[3]، فما كان من هارون إلا أن بكى بكاء حاراً.

**وكان كثير من الوعاظ يمزجون وعظهم بالقصص الديني** ومن أشهر القصاص الناسكين العابدين **موسى بن سيار الأسواري، أبو العباس الضرير، وصالح المري** العابد البليغ، ومن وعظه قوله: « تغدو الطيور خماصا وتروح شباعا واثقة بأن لها في كل غدوة رزقا لا يفوتها، والذي نفسي بيده أن لو غدوتم على أسواقكم على مثل إخلاصها لرحمتم وبطونكم أبطن من بطون الحوامل »[4]

## 3. خصائص وسمات الخطابة في العصر العباسي

ويمكن ابراز أهم الخصائص والسمات الفنية لفن الخطابة في العصر العباسي بالآتي[5]:

**أ. بناء الخطبة:** سارت خطب العصر العباسي في بعض ما وصل إلينا من نصوص من حيث البناء على حذو سابقاتها من خطب بني أمية، فالخطابة مقسمة إلى أقسام واضحة:

---

[1]- أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ج: 3ص: 45.

[2]- المرجع نفسه، ج: 3ص: 79.

[3]- المرجع نفسه، ج: 3ص: 100.

[4]- الجاحظ: الحيوان، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثانية: 1387هـ-1986م، ج: 7، ص: 62.

[5]- ينظر: عبد الحكيم بلبع، النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، ص: 139- 142.

● **الافتتاح:** افتتحت الخطب العباسية على الغالب بمقدمات، كانت إرهاصاً بموضوعات الخطب، وجواهرها، مستهلة بحمد الله، والثناء عليه، من ذلك **خطبة هارون الرشيد**، التي افتتحها بقوله: « **الحمد لله نحمده على نعمه، ونستعينه على طاعته، ونستنصرُه على أعدائه، ونؤمن به حقًّا، ونتوكل عليه، مفوضين إليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمد عبده ورسوله، بعثه على فترة من الرسل، ودُرُوسٍ من العلم، وإدبار من الدنيا، و إقبال من الآخرة.**» [1]، وقد تأتي افتتاحيتها خلافا لذلك، فبعض الخطب افتتحت بآية من القرآن الكريم، وغالبا ما يختار الخطيب الآية التي يراها أكثر مناسبة من غيرها وأكثر تدليلا على موضوعه، من ذلك مقدمة خطبة **أبي العباس السفاح** التي ألقاها في الشام بعد قتل آخر خلفاء بني أمية **مروان بن محمد**، يقول: « **[أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وأَحَلُّوا قَومَهُمْ دَارَ الْبَوارِ، جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وبِئْسَ الْقَرَارُ]، نكص بكم يأهل الشام آل حرب وآل مروان، يتسكعون بكم الظلم، ويتهورون بكم مداحض الزلق، يطئون بكم حرم الله وحرم رسوله** » [2]، وقد يبدأ بعضها بشعر كما يبدو ذلك واضحا في خطبة **المنصور** حين خروجه إلى الشام، فإنه ابتدأ خطبته قائلا: « **شنشنة أعرفها من أخزم ... من يلق أبطال الرجال يكلم مهلا مهلا زو ايا الإرجاف، وكهوف النفاق عن الخوض فيما كفيتم، والتخطي إلى ما حذّرتم، قبل أن تتلف نفوس، ويقلّ عدد، ويدول عز...**» [3].

● **الغرض الرئيس:** بنيت جل الخطب العباسية على عرض الموضوع الرئيس الذي بنيت عليه الخطابة، حيث يعرض الخطيب أفكاره و يبرز حججه وغاياته، وخطب هذا العصر قد تنوعت أغراضها ومضامينها.

● **الخاتمة:** التي تلخص في أغلب الأحيان الجوانب الكبرى من هدف الخطيب، فقد يختم الخطيب خطبته بآي من الذكر الحكيم، كقول محمد بن سليمان الهاشمي: « **فإن تقوى الله أفضل ما تحاث الناس عليه، وتداعوا إليه، وتواصوا به، [فاتقوا الله ما استطعتم، ولا تموتن إلا و أنتم مسلمون]** [4]» أو أبيات من مأثور الشعر، من ذلك قول **داود بن علي** في نهاية خطبته التي خطبها بأهل المدينة:

**حتى يبيد قبيلة فقبيلة ... ويعض كل مثقف بالهام**

**ويقمن ربات الخدور حواسرًا ... يمسحن عرض ذوائب الأيتام** [5]

أو الاستغفار لنفسه ولصاح المؤمنين، على نحو ما جاء في خطبة **المهدي**: « أوصيكم عباد الله بما أوصاكم الله به، وأنهاكم عما نهاكم عنه، وأرضى لكم طاعة الله، وأستغفر الله لي ولكم.» [6] أو تذيل بالدعاء، من ذلك

---

[1]- أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ج: 3، ص: 83.

[2]- المرجع نفسه، ج: 3، ص: 12- 13.

[3]- المرجع نفسه، ج: 3، ص: 16.

[4]- المرجع نفسه، ج: 3، ص: 54.

[5]- المرجع نفسه، ج: 3، ص: 15.

[6]- المرجع نفسه، ج: 3، ص: 56.

قول المأمون وقد ختم خطبته يوم الجمعة: « نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن لا تبطره نعمة، ولا تقصّر به عن طاعة ربه غفلة، ولا يحل به بعد الموت فزعة، إنه سميع الدعاء، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، فعّال لما يريد.» [1]

ب. **جودة الأسلوب:** تتميز خطب العصر العباسي بالسهولة والجزالة والابتعاد عن التعقيد ووضوح الفكرة ومتانة السبك، وروعة الأداء، وجل خطباء هذا العصر يعنون بتنميق خطبهم وتدبيجها، والتأنق في صياغة أسلوبها، فكانوا ينتقون ألفاظها، ويجودون عباراتها، ويتوخون الدقة في اختيار معانيها، واختيار أفكارها وترتيبها، حتى يكون لها التأثير الذي يريدونه، يقول **الجاحظ**: «**وكانوا مع ذلك إذا احتاجوا إلى الرأي في معاظم التدبير و مهمات الأمور، ميّثوه في صدورهم، و قيدوه على أنفسهم، فإذا قومه الثقاف و أدخل الكير، و قام على الخلاص، أبرزوه محكما منقحا، و مصفى من الأدناس مهذبا.**» [2]

والنصوص الخطابية في هذا الباب كثيرة، من نماذجها خطبة **المأمون** حين أتاه نعي الرشيد: «**إن ثمرة الصَّبْر الأجر، وثمرة الجَزَع الوزْر، والتسليم لأمر الله عز، فائدة جليلة، وتجارة مُرْبِحة، فالموت حوض مورود، وكأس مشروب، وقد أتي على خليفتكم ما أتي على نبيكم صلى الله عليه وسلم، فإنا لله و إنا إليه راجعون، فما كان إلا عبدا دُعِيَ فأجاب، وأُمِرَ فأطاع، وقد سد أمير المؤمنين ثَلْمه، وقام مَقَامَه، وفي أعناقكم من العهد ما قد عرفتم، فأحسنوا العزاء على إمامكم الماضي، واغتبطوا بالنعماء والوفاء في خليفتكم الباقي، يأهل الدنيا، الموتُ نازل، والأجل طالبٌ، وأمسِ واعظٌ، واليوم مغتنَم، وغَدٌ منتظرٌ.**» [3]. الأسلوب جزل في غير توعر، وسهل في غير تمييع، ومنمق في غير إسراف.

ج. **الصور والخيال:** ادمج خطباء العصر العباسي على خطبهم ألوان من الصور البلاغية الرائعة التي تزيد المعنى وضوحا وجلاء وقوة، فتنوعت الصور القائمة على التخيل من تشبيه واستعارة وكناية هدفها التأثير في نفوس السامعين واقناعهم، ومن التشبيهات الماتعة قول **الفضل بن الربيع** يصف **الأمين** في غفلته وإهماله أمر الخلافة: «**ينام نوم الظربان، وينتبه انتباه الذئب** » [4]. ومن الاستعارات الجميلة قول **داود بن علي** يصف بني أمية: « **ومرحوا في أعنة المعاصي، وركضوا في ميادين الغي**» [5]، ومن ذلك قول **الطاهر بن الحسين**: « **الذين قدحوا زناد الفتنة، وصدعوا شعب الألفة**» [6]، ومن كناياتهم النافذة، قول **أبي العباس السفاح**: « **إن أهل بيت اللعنة والشجرة الملعونة في القرآن**». [7]

---

[1]- أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ج: 3، ص: 121- 122.

[2]- الجاحظ: البيان والتبيين.ج: 2، ص: 11.

[3]- أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ج: 3، ص: 120.

[4]- المرجع نفسه، ج: 3، ص: 109.

[5]- المرجع نفسه، ج: 3، ص: 9.

[6]- المرجع نفسه ج: 3، ص: 119.

[7]- المرجع نفسه، ج: 3، ص: 12.

د. **السجع:** تضمّنت الخطابة العباسية السجع الذي لا يأت إلا عفو الخاطر منقاد للمعنى لا كلفة فيه، أو استكراه، فإذا وقع في كلامهم سجع فهو من قبيل الطبع والفطرة لا من قبيل الصنعة والتكلف، فيجيء حينئذ جميلا مقبولا، وذلك كقول المهدي: **«أوصيكم عباد الله بتقوى الله, فان الاقتصار عليها سلامة، والترك لها ندامة، وأحثكم على اجلال عظمته، وتوقير كبريائه وقدرته, والانتهاء الى ما يقرّب من رحمته، وينجّي من سخطه، وينال به ما لديه من كريم الثواب، وجزيل المآب. فاجتنبوا ما خوفكم الله من شديد العقاب، وأليم العذاب، ووعيد الحساب، يوم توقفون بين يدي الجبار، وتعرضون فيه على النار»**[1].

بينما نجد أن الخطب الدينية وخاصة خطب الوعظ والقص على وجه التحديد قد لزموا السجع وأكثروا من استخدامه في خطبهم، فالخطباء في مثل هذا اللون حرصوا أشد الحرص على تنميق وتدبيج خطبهم أولوا عناية خاصة بجمال السبك وجودة الأسلوب مما أفضى بهم في أحايين كثيرة إلى استخدام السجع، وقد سئل عبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشي عن إيثار السجع: « لِمَ تؤثر السجع على المنثور، وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن؟ فأجاب: إن كلامي لو كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد لقلَّ خلافي عليك، ولكني أريد الغائب والحاضر، والراهن والغابر، فالحفظ إليه أسرع، والأذن لسماعه أنشط، وهو أحق بالتقييد وبقلَّة التفلُّت، وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ من المنثور عُشْره، ولا ضاع من الموزون عُشْر» [2].

ومن أمثلة ذلك قول الفضل بن عيسى الرقاشي، وقد كان سجاعا في قصصه: « سل الأرض: من غرس أشجارك، وشق أنهارك، وجنى ثمارك؟ فإن لم تجبك حوارا، أجابتك اعتبارا»[3].

**هـ. الاقتباس من القرآن الكريم:** يشيع الاقتباس من القرآن الكريم في خطب العصر العباسي، ومن تلك الاقتباسات، قول أبو العباس السفاح وقد بويع بالخلافة: «ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع، وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتابًا يتلى عليهم، فقال عز من قائل فيما أنزل من محكم القرآن: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أ هْلَ الْبَيْتِ ويُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾، وقال: ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾، وقال: ﴿وأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ وقال: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وِلِلرَّسُولِ ولِذِي الْقُرْبَى والْيَتَامَى﴾، وقال: ﴿واعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وِلِلرَّسُولِ ولِذِي الْقُرْبَى والْيَتَامَى﴾، فأعلمهم جل ثناؤه فضلنا، وأوجب عليهم حقنا ومودتنا، وأجزل من الفي والغنيمة نصيبنا... » [4]. وهذه بنصّها من القرآن الكريم.

وقد يدمج الخطيب ألفاظ القرآن الكريم بألفاظه في دقة متناهية، حتى ليظن السامع أن الكلام كله للخطيب. من ذلك قول عيسى بن علي عم السفاح: «وكان ربك بالمرصاد فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولا

---

[1]- أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ج: 3، ص: 55.

[2]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج: 1، ص: 287.

[3]- المرجع نفسه، ج: 1، ص: 308

[4]- أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ج: 3، ص: 7.

يخاف عقباها.» [1]؛ من قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَاهَا ولا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: 14- 15].

وقد يعمد كثير من الخطباء استمداد معانيهم من آيات القرآن الكريم، من ذلك قول داود بن علي: « فظن عدو الله أن لن يقدر عليه، فنادى حزبه، وجمع مكايده، ورمى بكتائبه.» [2]؛ ففي هذا النص يتجلى قوله تعالى: ﴿وذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنبياء: 87].

إذا؛ شهد العصر العباسي الأول ذروة نضج الخطابة، حيث اعتمد الخلفاء على هذا الفن لترسيخ دعائم الحكم، إلا أنه سرعان ما بدأ بالتراجع والجمود بدءاً من أواخر عصر الرشيد؛ نتيجة استقرار الدولة، وتكميم الأفواه، وغلبة العنصر الأعجمي، والاعتماد على الخطابة المكتوبة بدلاً من الارتجال. تراوحت موضوعات الخطابة بين السياسية لتثبيت شرعية البيت العباسي ومواجهة خصومه، وخطب الوفود التي تضاءلت مع إغلاق أبواب القصور، والخطب الدينية التي حافظت على استمراريتها عبر وعظ الخلفاء وتذكير العامة. تميزت الخطبة العباسية ببناء محكم يبدأ بالحمد والثناء وينتهي بالدعاء أو الحكمة، واتسم أسلوبها بالسهولة والجزالة مع جودة السبك، والاستعانة بالصور البيانية، والسجع غير المتكلف، والاقتباس المكثف من القرآن الكريم. ومع الوقت، حلّت الكتابة النثرية وفنون المناظرة محل الخطابة الشفهية، مما أدى إلى انحسار دورها كأداة سياسية حيوية، لتصبح ممارسة مقيدة بمناسبات محددة كالأعياد والجمع.

[1]- أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ج: 3، ص: 14.

[2]- المرجع نفسه، ج: 3، ص: 9.

## فن الخطابة في عصر المماليك

- وضع الخطابة العربيّة في العصر المملوكي وأبرز أعلامها
- ضروب فن الخطابة ونماذج منها في عصر المماليك
- خصائص وسمات فن الخطابة في عصر المماليك

الحصة 7

نسب عصر المماليك الذي نحن بصدد دراسة فن الخطابة فيه إلى **المماليكِ** الذين حَكَموا مصرَ وبلادَ الشَّامِ وجزاء كبيرًا من الجزيرةِ العربيّةِ، واتخذوا مدينة القاهرة عاصمة لهم، وقد أقاموا حكمهم على أنقاض الدولة الأيوبيَّةِ في مصر وامتد حكمهم حقبة زمنية طويلة استمرت إلى أكثر من قرنين و نصف من الزمن 274 سنة (**648 هـ- 923 هـ، 1250م- 1517م**) وانتهت على يَدِ العُثمانيّينَ. ويقسم المؤرخون المماليك إلى ط**المماليك البحريَّة**؛ الذين أسكنهم الملك الأيوبي الصَّالحِ نَجمِ الدِّينِ أيُّوبَ سَنةَ (647هـ)، في جزيرة الروضة في نهر النيل، استمرت من 650هـ/ 1252م إلى 784هـ/ 1382م وإلى **المماليك البُرجيَّة أو الشركسية**؛ الذين سكنوا أبراج قلعة الجبل في القاهرة، والتي انتهت بالفتح العثماني لمصر على يد السلطان سليم الأول في 923هـ/ 1517م[1]، وينتمى عصر المماليك إلى ما اصطلح النقاد على تسميته بعصر الفترة المظلمة، ووصفوه بالعقم و الجمود والتأخر وعدّوه عصر انحطاط وإعياء فكري للأمة العربيّة في جميع مجالاتها.

## 1. وضع الخطابة العربيّة في العصر المملوكي و أبرز أعلامها[2]

بلغ فن الخطابة أوج عظمته من الرُّقي والازدهار في عصر صدر الإسلام وعصر بني أمية وما إن ينتهي العصر العباسي الأول حتى يدبّ الضعف والاختلال في بعض أنواعها ولا نكاد نصل إلى عصر المماليك حتى يصابها الوهن ويضعف تأثيرها عمَّا كان عليه في العصور السابقة؛ فقد انتشرت العجمة واستفحل أمرها، بسبب اختلاط العرب بغيرهم من الشعوب، لم تعد للعرب سلائقهم اللغوية المعهودة فقد أصابها كثير من التشوهات القولية؛ فحرمت الفصاحة، وفقدت ملكة الارتجال، ومالت إلى الإسفاف، فضلا أن من تملك زمام الأمور ومقاليد الحكم أعجام لا يحسنون اللغة، ولا يستوعبون خطاباتها؛ هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية لم يكُنْ الحكام يَعنيهم الاتِّصالُ الجماهيريُّ الواسِعُ؛ فالشَّعبيَّةُ والجماهيريَّةُ لم تكُنْ مَقصِدَهم، وإنَّما يَستَمِدُّون قُوتَهم من عَدَدِ الجُندِ وقُوتِهم، وبَسْطِ نُفوذِهم على بقاعِ الأرضِ، لهذا لم يكُنْ للخُطَبِ الحماسيَّةِ مجالٌ في تعبئةِ الجُيوشِ وتحفيزِ النَّاسِ على الخُروجِ مع الجَيشِ، بالرغم من أنَّ الحُروبَ قد كَثُرت في عصرِ المماليكِ، وفي ذلك أرضٌ خِصبةٌ لنَماءِ الخُطَبِ السِّياسيَّةِ والجهادية –وازدِهارِهما، وفي هذا الصدد يرى أحد الباحثين: « أن هذا العصر كان عصر حروب، كثر فيه أعداء الأمة، الطامعون في افتراسها، مما يوحي بإمكانية ازدهار الخطابة...إلا أن هذا العامل فقد قوته وتأثيره؛ إذ كان للدولة جندها الخاص، وجيشها المتحفز للقتال... وكان جلّ هذا الجيش من المماليك، وقلما استعان السلاطين بعامة الشعب...فقد استعان السلاطين بكبار المشايخ والقضاة في ذلك

---

[1]- ينظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ص: 322/ كامل بن حسن الحلبي، نهر الذهب في تاريخ حلب، كامل بن حسين الحلبي، ج: 3، ص: 191.

[2]- ينظر: عامر فتحي محمد الشيخ أحمد، فإنَّ الخطابة في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول- دراسة تحليلية أدبية-، ص: 122- 130/ وحسين عبد العال اللهيبي، الخطابةُ العربية في العصر الوسيط (656- 1213هـ) - دراسة في الموضوع والفن، ص: 338.

الوقت لإصدار فتاوى عامة، أو توجيه رسائل تحفيزية للأمة، ومن هنا فقد قل الاعتماد علة الخطابة في الحض والحثّ على الجهاد أيضا» [1].

ومن بين الأسباب التي أدّت إلى ضعف الخطابة العربيّة في هذا العصر وتراجعها ارتفاع منزلة الشعر الذي قام بدور خطير في إذكاء الصراعات، وإثارة الحماس، وشحذ العزائم، على عكس ما كان عليه في العصور السابقة، إذ كانت الاستعانة بالخطابة خير وسيلة للحضِّ على القتال، والترغيب فيه، وإثارة العواطف، وتفنيد حجج الخصم.

لقد أدرك الشعر في هذا العصر حظّه المرجو من النضج والازدهار، فأخذ يصور الحياة في شتى مجالاتها؛ السياسية والاجتماعية، والاقتصادية، ولعل ارتفاع منزلة الشعر في هذا العصر إنما يعود إلى عناية سلاطين هذا العصر وملوكه بالشعر، وتشجيعهم له، ونثر الأموال على الشعراء الوافدين إليهم، فمضى الشعراء يسطّرون أمجادهم، ويخلّدون آثارهم، وكانوا يصحبونهم في حلّهم وترحالهم، ولاسيّما في حروبهم، فصور الشعراء تلك المعارك بكلّ جزئياتها الدقيقة؛ لذا يعدّ شعر هذا العصر وثيقة تاريخية مهمة يمكن الاعتماد عليها؛ على أن ذلك ترك تأثيره السلبي في الخطابة بنوعيها: السياسية والجهادية وبهذا بطلت الخطابة السياسية والجهادية وتقوضت أركانها ومقوماتها، وانعدمت عواملها ومحفزاتها؛ فلم يعد مبرر لوجودها، ما دام الشعر يؤدّي الغرض.

ومن مشاهير خطباء العصر المملوكي؛ الذين تمكنوا من الارتقاء والسمو بفن الخطبة نذكر منهم: [2]

- **ناصر الدين أحمد بن المنير الاسكندري (ت 688هـ):** قاضي الاسكندرية، وخطيبها وفقيهها الفاضل، وأديبها المفتق الكلام، والمشقق به ألسنة الأقلام، ولناصر الدين ديوان خطب، وقيل أن الشيخ العزّ بن عبد السلام كان يقول: (ديار مصر تفتخر برجلين في طرفيها ابن المنير بالإسكندرية، و ابن دقيق العيد بقوص)
- **ابن بنت الأعز (ت 695هـ):** تقي الدين عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن خلف المصري الشافعي قاضي القضاة المعروف بابن بنت الأعز، كان وزيرا فقيها، تولى الخطابة بالجامع الأزهر. وفي خُطَبِه يقول ابن فضل الله العمري (أينعت بها أعواد المنابر وأورقت، وأضاءت في المسامع وأشرقت)
- **ابن عبد الظاهر (692هـ):** عبد الله بن عبد الظاهر القاضي محي الدين السعدي المصري، شيخ أهل الترسل، ويعد من منشئي خطب الصداق.
- **ابن دقيق العيد (702هـ):** تقي الدين محمد بن علي بن وهب بن مطيع، الحافظ الفقيه المحدث البارع الأديب الشاعر النحوي المجتهد، له ديوان خطب مفرد معروف، وهو من الخطباء المصاقع الذين (لا يشقُّ له غبار، ولا يجري معه سواه في مضمار).

---

[1]- ينظر: جلال يوسف العطاري، النثر الفني في العصر المملوكيّ، ص: 173.

[2]- ينظر: عامر فتحي محمد الشيخ أحمد، فإنَّ الخطابةَ في العصرين الأيّوبي والمملوكي الأوّل- دراسة تحليلية أدبية-، ص: 132- 141/ وحسين عبد العال اللهيبي، الخطابةُ العربية في العصر الوسيط (656- 1213هـ) - دراسة في الموضوع والفن، ص: 338- 342.

- **الشهاب محمود (ت 725هـ):** شهاب الدين محمود بن سلمان بن فهد الحلبي الدمشقي الحنبلي، العلامة البارع البليغ الكاتب الحافظ، الذي نعت بقدوة الكتّاب، والذي لم يكن بعد القاضي الفاضل مثله في صنعة الإنشاء، وهو شيخ الخطباء، وتعد خطبته التي أنشأها في رامي النشاب، والتي سنقوم بتحليلها لاحقا من عيون الخطب في هذا العصر
- **جمال الدين التبريزي (ت740هـ):** عبد القاهر بن محمد بن عبد الواحد بن محمد بن موسى، الحراني الدمشقي الشافعي؛ القاضي الخطيب، أنشأ خطبا سماها "تحفة الألباء"؛ وهي على حروف المعجم، في مجلد.

## 2. ضروب فن الخطابة ونماذج منها في عصر المماليك

سبقت الإشارة إلى أن ضروباً من الخطابة العربيّة على رأسها الخطابة السياسية في عصر المماليك قد اختفيت وتلاشى ظلّها، ولم يعد لها أدنى تأثير؛ بسبب الإهمال الذي تعرّضت له، وضياع قسم لا يستهان به من خطب هذا العصر؛ ولم يبق إلاّ شذور من الخطابة الاجتماعية، أما الخطابة الدينية فقد ظلّت مزدهرة طوال هذا العصر؛ لما لها من أثر كبير في حياة المسلمين، ومهما يكن من أمرٍ فإن ما وصل إلينا من خطب هذا العصر قلّة قليلة مع كثرة خطباء هذا العصر الذين لا تتناسب شهرتهم الخطابية مع ما وصل إلينا من خطبهم، وأول ما نبدأ به من ضروب الخطابة في عصر المماليك[1]:

### أ- الخطابة الدينية:

برزت الخطابة الدينية في عصر المماليك بقوة، وظلت طوال هذا العصر محتفظة بمقومات بقائها ونموها ونشاطها لسيادة الخطاب الديني، بسبب ظروف الحرب التي فرضت خطب المواجهة والمفاصلة، والتي بدورها ركزت على الحث على الجهاد في سبيل الله وانقاذ ما بقي من أراضي المسلمين من ربق التتار والمد الصليبي، وتوضيح تعاليم الدين الإسلامي وعقائده التي تتباين وعقائد الغزاة، والحث على التمسك بالشخصية المسلمة والابتعاد عن التشبه بالغزاة والتطبع بعاداتهم وتقاليدهم هذا من ناحية، من ناحية ثانية إن الخطب الدينية في طبيعتها تقوم على فكرة الوعظ والتذكير كالتحذير من الدنيا، والانسياق وراء مفاتنها، والتذكير بالموت، ووحشة القبر، والاستعداد لليوم الآخر، والتمسك بتقوى الله، والحضّ على العمل الصالح، مما له أعمق الأثر الواضح في النفوس، ومكانته البارزة في حياة المسلمين؛ لهذا ظلّت الخطابة الدينية مزدهرة في هذا العصر. ومن ناحية ثالثة إن الخطب تدخل بصورة أو بأخرى في الممارسة الإيمانية للإنسان المسلم فهي جزءا لا يتجزأ من صلاة الجمعة والأعياد والمناسبات الدينية الأخرى، جاء في كتاب الصناعتين: « والخطابة لها الحظ الأوفر من أمر الدين؛ لأنَّ

[1]- ينظر: عامر فتحي محمد الشيخ أحمد، فإنَّ الخطابةَ في العصريْن الأيّوبي والمملوكي الأوّل- دراسة تحليلية أدبية- ، ص: 142- 160/ وحسين عبد العال اللهيبي، الخطابةُ العربية في العصر الوسيط (656- 1213هـ) - دراسة في الموضوع والفن- ، ص: 341- 345.

الخطبة شطر الصلاة التي هي عماد الدين في الأعياد والجمعات والجماعات، وتشتمل على ذكر المواعظ التي يجب أن يتعهد بها الإمام رعيته؛ لئلاّ تُدرس قلوبهم آثار ما أنزل الله – عزّ وجل – من ذلك في كتابه» [1].

وقد شهد عصر المماليك كثرة الخطباء المصاقع الذين شهروا بالوعظ والتذكير، وتزخر كتب التاريخ والتراجم بأسماء طائفة كبيرةٍ منهم، ممن تألّق نجمهم في هذا العصر، وأكثرهم من خطباء الجوامع، إلاّ أنّ ما وصل إلينا من خطبهم يكاد لا يتناسب مع عددهم.

ومن عيون الخطب الدينية التي وصلت إلينا من عصر المماليك، خطبة ابن منير الاسكندراني (683هـ) التي قالها بعد أن استولى التتار على بلاد الشام (658هـ)، تشحذ الهمم وتذكر الغافل معززة مشاعر الحزن والأسى لما حل بالمسلمين من فضائع على يد التتار، مفتاحه الإيمان بالله واللجوء إليه وحده فلا ناصر غيره، ومما جاء فيها: « **الحمد لله الَّذِي يرحم العيون إذا دمعت، والقلوبَ إذا خَشَعت، والنَفوسَ إذا خَضَعت، والعزائم إذا اجتمعت، الموجود إذا الأسباب انقطعت، المقصود إذا الأبواب امتنعتْ، اللّطيف إذا صدمت الخطوب وصدَّعت... أيها النّاس، خافوا اللَّه تأمنوا فِي ضمان وعده الوفي، ولا تخافوا الخلق وإن كثروا، فإن الخوف منهم شركٌ خفيّ، ألا وإنّ من خاف اللَّه، خاف منه كل شيء، ...فمن كانت الدنيا أكبر همه لم يزل مهموماً، ومن كانت زهرتها نُصب عينه لم يزل مهزومًا.. فالله اللَّه عباد اللَّه، الاعتبار الاعتبار، فأنتم السُّعداء إذا وعظتم بالأغيار، أصلِحوا ما فَسد، فإنّ الفساد مقدّمة الدّمار...اتقوا اللَّه وأصلِحوا تُفْلحوا، وسلموا تَسلموا، وعلى التّوبة صمّموا واعزموا...** » [2].

ومن جيد الخطب خطبة علي بن دواد (745هـ)، خطيب الجامع التنكزي، وهي من خطب الجُمَع، التي تشع بالمعاني الدينية التي تدعو إلى التنافس على فعل الخير والتذكير بعواقب الغفلة والإقبال على الدنيا الفانية؛ ومما جاء فيها: « **أيها الناس تأنسوا في المكارم وسارعوا في المغانم، وجانبوا مكاسب المأثم؛ فإنها معادم. فأيقظوا عيون العزائم فإنها نوائم، واغتنموا أوقات الطاعات فإنها مواسم. هذا، عباد الله شعبان وأخذه بكم ركائبه، مملوءة بمتاجر أعمالكم حقائبه، فالسّعيد من زكى فيه بالإخلاص مكاسب أعماله، والشقيّ من أضحت زيوف المعاصي رأس مال آماله .سحقا له من مغبون. ما أخسر صفقته . ومدلج في دياجي الأطماع ما أبعد شقته. باع الباقي بما يفنى، واعتاض عن النفيس العالي بالأدنى .تبرّجت له الدنيا فأخلد إليها...** ». [3]

كما لا يفوتنا الوقوف عند خطب مجالس الوعظ، التي كانت تلقى في مجالس الوعظ العامة، والتي بدورها شكلت جزء لا يتجزأ من الخطب الدينية، ويعد الشيخ عبد السلام أحمد عزّالدين الأنصاري (678هـ) من أشهر واعظ عصر المماليك على الإطلاق، حيث كان يلقي خطبه على البداهة والارتجال وهو نموذج للخطباء المفوهين الذين استطاعوا الحفاظ على ملكتهم اللغوية وحضورهم اللافت، ومن عيون خطبه في مجلس عقد أمام الكعبة

---

[1]- كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر): أبو هلال العسكري، ص: 136.

[2]- الذهبي: تاريخ الإسلام، تحقيق: بشار عواد معروف، 15/ 491.

[3]- ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، 7/ 203.

وبحضور جمع من العلماء والأعيان يترأسهم ابن دقيق العيد (ت 702هـ)، وأمير مكة، فيها من الوعظ الصادق الرائق، يقول: «**الحمد لله ذي القدرة التي لا تضاهى، والحكمة التي لا تتناهى، والقسمة لا يطيق أحد أن يتعداها...، كيف تعرفه العقول وقد عقلها عن بلوغ مناها؟، وكيف تنكره النفوس وقد ألهمها فجورها وتقواها... من ذا الذي يرحم ذلة الذليل إذا الخطب الجليل و افاها؟ من ذا الذي يستر زلة الخاطئ وغطاها؟.. أنظر إلى الرياض كيف أخباها، فاستخرج منها ماءها ومرعاها، و أنظر إلى الغياض كيف اهتزت رباها إذ هو بلطيف حكمته ربّاها**».[1]

### ب- الخطب الاجتماعية:

لعب الاستقرار النسبي الذي ساد القاهرة ودمشق في تطور الخطابة الاجتماعية، خاصة في النصف الثاني لعهد المماليك البحرية، فقد تحول المماليك من مجرد قوة تقوم بالدفاع والمقاومة إلى جيش يساهم في ردع الأعداء ودحرهم في عقر دراهم، مما حقق مزيدا من الاستقرار والرخاء لحواضر بلاد الشام ومصر، وبالتالي مزيدا من الحرية لممارسة الخطابة الاجتماعية، وإذا كانت هذه الخطب تعبّر عن الظواهر الاجتماعية وما يتعلّق بأحوال المجتمع فإنّها لا تقتصر على موضوعٍ واحد، وقد شملت مجالات عدة، على رأسها:

- **خطب الزواج أو الصداق:** وهذا النوع من الخطب تقليد إنساني عربي قديم، فحواه إقناع أهل الفتاة بمن يرغب في الإصهار إليهم، ومهمة الخطيب في هذه الخطب هو إبراز مزايا الخاطب وفضله؛ وأصبح من سننها أن يطيل الخاطب في خطبته، ويقصّر المخطوب إليه في إجابته، قال الأصمعي (كانوا يستحبّون من الخاطب إلى الرجل حرمته الإطالة، لتدلّ على الرغبة، ومن المخطوب إليه الإيجاز؛ ليدلّ على الإجابة)[2].

وخطب الصداق ثلاثة أنواع في طريقتها؛ الأولى خطب زواج الأمراء وأبناء السلاطين، وثانية خطب الأعيان، ونوع ثالث اقتصر على عامة الشعب، فالنوع الأول من الخطب يأتي مطولا في العادة ومليئا بالألقاب التشريفية، أما ما ذكر لغير الملوك والسلاطين يكون أكثر اختصار من النوع الأول، ويذكر فيه تشريف الخاطب بالمخطوب، أما ما خص به العامة فيكون الأكثر اختصار، ولا يحتون على الألقاب التشريفية، لكن هذا النوع من الخطب يأتي في الغالب حافلا بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

وقد وصلنا عدد كبير من خطب الصداق التي كانت تلقى في مناسبات الزواج، فالقلقشندي أورد وحده سبع خطب من هذا القبيل، بينما أورد ابن الوردي اثنتان في ديوانه[3].

ومن عيون الخطب التي وصلت إلينا من هذا العصر في النوع الأول؛ خطبة **القاضي محي الدين بن عبد الظاهر (692هـ)** للملك" **السعيد بركة بن الملك الظاهر بيبرس**" على "**بنت الأمير سيف الدين قلاوون**

---

[1]- اليونيني، ذيل مرآة الزمان، 4/ 19.

[2]- الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب، 2/ 478.

[3]- ينظر تفاصيل ذلك: القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ص 14، 341- 364/ وديوان ابن الوردي، ص: 95- 96.

**الصالحي الألفي**" الذي أصبح من بعده سلطاناً، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: « وبعدُ؛ فلو كان اتصال كلّ شيءٍ بحسب المتصل به في تفصيله، لما استصلحُ البدر شيئاً من المنازل لنزوله، ولا الغيث شيئاً من الرياض لهطوله، ولا الذكر الحكيم لساناً من الألسنة لترتيله، ولا الجوهر الثمين شيئاً من التيجان لحلوله، لكن ليتشرّف بيت يحلُّ به القمر، ونبتٌ يزوره المطر، ولسان يتعوذ بالآيات والسور، ونثار يتجمّل باللآلئ والدرر؛ ولذلك تجمّلت برسول الله – صلّى الله عليه وآله وسلّم - أصهارُهُ وأصحابُهُ، وتشرّفتْ أنسابهم بأنسابه، وتزوج – صلّى الله عليه وآله وسلّم - منهم، وتمّت لهم مزيّة الفَخار، حتّى رضوا عن الله ورضي عنهم»[1].

أما خير ما يمثل النوع الثاني من خطب صداق الأعيان، خطبة من إنشاء **الشهاب محمود (ت 725هـ)**، وهي نسخة صداق" **ناصر الدين محمد بن الخطيري**": « الحمد لله الذي زاد الأصول الطيبة قربا وزان الأنساب الطاهرة بصلة تتأكد حبا وصان كرائم البيوت القديمة الفخار بمن يناضل عن حسبه ذبا ويناظر العلياء فلم يبن إلا بين منازل النجوم بيوتا ولم يسبل سوى السمر سمر القنا حجبا... وبعد فإن أولى ما اشتبك وشيجه واشتبه في منابت الأيك بهيجه... ما اتبعت فيه الشريعة المطهرة حيث لا تختلف الأئمة والسنة النبوية على من سنها أفضل الصلاة والسلام فيما تأتلف به البعداء وتكثر لمباهاته الأمم يوم القيامة هذه الأمة وتدنو به الأجانب بعضهم من بعض ويجعل بينهم مودة ورحمة.. وهو النكاح الذي تشتد به الأواصر وتعتد به الموارد لتمثيل أكثر الصور من أزكى العناصر... »[2].

أما خطب صداق العامة، فقد كتب **زين الدين بن الوردي (ت 749هـ)** خطبتين في هذا النوع، من ذلك قوله و قد خطب بعض بني النصيبي على بنت عمّه، – بعد أن حمد الله وأثنى عليه –: « فإنّ أولى ما بادر إليه أولو الأحلام، وتنافس فيه كرام الأبناء وأبناء الكرام، ما كان لتكثير الأمة متضمّناً، ولفضيلة العاجل والآجل نافعاً نفعاً بيّناً، وهي سنّة النكاح التي عظمت بها المنّة، وأثنى عليها لسان الكتاب وأشارت إليه يد السنّة، ولاسيّما بنات العمّ التي أرشدت قصّة البتول – عليها السلام – إليها، وحسن أن يتلى لها بطريق الأولى (ومِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا) [ الروم: 21]، فإن بنات العم أجدى بالصحبة وأجدر، وأوفى بالمودة وأوفر، وأصبى إلى العهد وأصبر، ولا سيما من حازت كرم (المفاخر، وأوتيت طيب) الأوائل والأواخر، وجمعت عناصر الكرم وكرم العناصر.»[3]

- **خطب الختمات (التأبين)**: وهي التي كانت تلقى بعد ختمة القرآن على روح أحد الأموات من الأعيان، وابن كثير يورد خبر يؤكد هذه الختمات التي كانت تمارس فيها الخطابة، يقول: «وعمل أهل دمشق ختمة عظيمة

---

[1]- القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا: 14/ 342- 343.

[2]- المرجع نفسه، 14/ 355- 356.

[3]- ديوان ابن الوردي: ص 107- 108.

بالميدان الأخضر إلى جانب القصر الأبلق، فقرئت ختمات كثيرة، ثم خطب الناس بعدها الشيخ عز الدين الفاروثي، ثم ابن البزوري، ثم تكلم من له عادة بالكلام.» [1]

وهذا الخبر يبرز أن هذه الختمات قد جرت في ميدان عام، حيث أضحت أنها ظاهرة مجتمعية تمارس فيها خطب التأبين التي تذكر بفضائل المتوفي. هذا وقد عرف عصر المماليك خطب مناسبات اجتماعية أخرى كخطب المولد النبوي الشريف، وخطب رأس السنة الهجرية...

## 3. خصائص وسمات فن الخطابة في عصر المماليك

على الرغم من الفتور والخمول التي أصاب بعض ضروب الخطابة في عصر المماليك إلا أن هذا الفن له أهميته وحضوره كما أنها لا تختلف عن الخطابة في العصور التي سبقتها من حيث طبيعة بنائها وموضوعاتها، ويمكن ابراز أهم الخصائص والسمات الفنية لفن الخطابة في عصر المماليك بالآتي: [2]

أ- **الطابع الغالب:** على خطب عصر المماليك على الرغم من قلتها الإنشاء؛ أي أنها مكتوبة فهي خطب معدة مسبقا، وهذا النمط يبرز جليا في الخطب الدينية الراتبة كالجمع والأعياد وغيرها من المناسبات الدينية، أو خطب زواج الأمراء وأبناء السلاطين (خطب الصداق)، أما النمط الآخر فهو الخطب التي تلقى شفاهه على البديهة والارتجال، وتلمس هذا النمط خاصة في خطب مجالس الوعظ، والخطب الحربية.

ب- **هيكل الخطب**؛ الالتزام بالبناء الفني للخطابة من حيث المقدمة والعرض والخاتمة، وتناسب المقدمة مع موضوع الخطبة، فالمتأمل لمقدمات خطب عصر المماليك يجدها تتشابه كثيراً فيما بينها من حيث استهلال الخطب بعبارات التحميد والتمجيد وقد جرت العادة « أن تفتتح الخطبة بالتحميد والتمجيد، وتوشح بالقرآن وبالسائر من الأمثال فإنّ ذلك مما يزيّن الخطب عند مستمعيها، وتعظم به الفائدة فيها» [3].

من جيد المقدمات مقدمة زين الدين بن الوردي في خطبة نكاح: « الحمد لله الذي أطلع في منازل الشرف شمساً مصونة البهاء والضياء، وأبدع لشرف تاجه البديع درّة مكنونة في بحر الحبا والحياء، ومنحه عقد عقدٍ زان به جيد الوجود، وجمع الشمس والقمر في سعود الطالع وطالع السعود، نحمده على تأكيد عطف القربى بالمصاهرة، ونشكره على هذه الحركة الجامعة إن شاء الله تعالى خير الدنيا والآخرة، ونشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له شهادة تجمع الشمل وتشمل الجمع، وتهدي أجمل منظر وأحسن حديث، إلى البصر والسمع، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله المرسل بالشريعة المطهرّة والسنة الطولى، التي من استمسك بها ظفر بسعادة الآخرة والأولى، صلّى الله عليه وعلى إله وصحبه المحسنين، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين.» [4]

---

[1]- ابن كثير: البداية والنهاية، 17/ 637.

[2]- ينظر: حسين عبد العال اللهيبي، الخطابةُ العربية في العصر الوسيط (656- 1213هـ) - دراسة في الموضوع والفن- ، ص: 345- 353.

[3]- ابن وهب: البرهان في وجوه البيان، ص: 194.

[4]- ديوان ابن الوردي، ص 62.

ويبدو بوضوح أن المقدمة تليق بالمعنى الوارد بعدها، وقد أردف الخطيب الحمدلة بالشهادة والصلاة على النبي – صلّى الله عليه وسلّم - وهو مما يشوق الحضور، ويحملهم على الإصغاء. ثم ينزع الخطيب من المقدمة إلى الموضوع الرئيس التي بنيت عليه الخطبة، حيث عرض الأفكار والحجج والغايات، ثم الانتهاء بخاتمة يدرك بها الخطيب مراده، وتكون في أغلب الأحيان إما آيات قرآنية، أو استغفارا لنفسه ولصالح المؤمنين أو دعاء؛ من ذلك: ما جاء في خاتمة خطبة يوسف بن سلمان النابلسي (ت 775ه) «جعلنا الله وإياكم ممن ينتهز الفرصة عند إمكانها، ويزجر نفسه عما تزيّنه وسوسة شيطانها.» [1].

ج- **الأسلوب الخطابي:** فقد جمع بين السهولة والركاكة وذلك لفساد السلائق العربيّة، وما اعترها من تشوهات لسانية، فضلاً عن جريهم وراء المحسنات البديعية التي بالغوا في طلبها، فجاءت خطبهم مثقلة بها، يغلب عليها طابع الصنعة والتكلّف، مما أدى إلى انتشار ظاهرة إنشاء الخطابة من الآخرين في عصر المماليك، حيث عمد بعض الخطباء ممن لا تزال في نفوسهم جذوة متقدة من الملكة الفطرية، أن يجمعوا خطباً مختلفة، يكتبونها وينمّقونها، ويراعون فيها متطلبات العصر، وحاجة الخطباء، ومدارك الناس، فتظهر على شكل كتاب أو ديوان، يستعين به غيرهم من الخطباء الذين يفتقرون إلى الملكة الخطابية، ومن هؤلاء الذين ظهرت لهم هذه المؤلفات: تقي الدين محمد بن علي بن دقيق العيد (ت 702ه)، وإبراهيم النحاس خطيب جامع الأزهر (ت 814ه)، وأحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت 852ه)... ومن يتأمل ما وصل إلينا من خطب هذا العصر فإنه يجد استخدام الألفاظ المتداولة والابتعاد عن الألفاظ الصعبة والغريبة التي تحتاج إلى توضيح وتفسير.

د- **المحسنات البديعية:** التزمت خطب هذا العصر بالبديع الذي أضحى سمة بارزة وطابعا مميزا لهذا العصر، فقد أغرق الأدباء في استخدامه وأولعوا به حتى أصبح ضرورة من ضرورات التعبير الفني لديهم في هذا العصر، ويأتي في مقدمتها **السجع**، السمة الغالبة على نتاجهم الأدبيّ، وجوهره الفني الذي إليه النفوس أميل، والآذان لسماعه أنشط [65]، ومن ذلك قول ناصر الدين بن المنير الاسكندري من خطبة له: « أيها الناس قصُر سعي من كانت خطاه معدودة، وخسر رأي من اتخذ هواه معبوده، وذاك ناصر من كانت الأيام جنوده، وقلّ حاصل من كانت الحطام موجودة.» [2] .

فهذه العبارات جميعها تنتهي بفواصل موحدّة (معدودة/ معبوده/ جنوده/ موجودة) وإن بدت ظاهرة التكلف؛ فإننا لا نجدُ أثراً فيها لتكلُّفٍ ممجوج، أو ثقلٍ ظاهر؛ وهي عذبة سائغة تنسجم مع الطبع والذوق.

ومن الخطب الجيدة التي تماشت وطابع العصر بالتزام المحسنات البديعية، فقد روى ابن فضل الله العمري، لعلي بن داود خطبة، وهي من خطب الجمع يشكر فيها كافل المنشآت الشامية، ومما جاء فيها، قوله: «

---

[1]- ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، 13/ 338.

[2]- المرجع نفسه، 13/ 367.

الحمد لله منشئ أصناف الأمم وصانعها، ومؤلف أشلائها بعد العدم وجامعها، ومنطق جوارحها بما اخترجت وسامعها وباعث هممها على الخير ووازعها، ومجرى سوابق آمالها في ميدان آجالها»[1].

**هـ. بروز اتجاه فني جديد في الخطابة** يتبنى الفنيين المذهبيين المشهورين ويتوسط بينها؛ مذهب خطيب ميافارقين **يحيى بن سلامة الحصكفي** (551 هـ) الذي يعني بتعقيد آثاره، وهو تعقيد كان يعتبر الدليل الأول في تلك العصور على مهارة الكاتب، وبلاغته [2]، حيث يهتم بالتأنق اللفظي والمحسنات البديعية حتى ولو كان على حساب المعنى، ومذهب العز بن عبد السلام (678هـ) الداعي إلى التخلص من الصنعة الفنية وإطلا ق الخطابة مسترسلة متدفقة، وهذا الاتجاه الفني الجديد أنتج خطابا مسترسلا متدفقا تظهر في أثنائه اللمسات البيانية التي تخدم المعنى والمحسنات البديعية التي تضفي جرسا موسيقيا ومظهرا أدبيا رشيقا متناغما والسياق، ويلتمس هذا الاتجاه في خطب ابن منير الإسكندراني بشكل أساس.

**و. الخيال والصور الفنية:** استعان خطباء عصر المماليك بالخيال في استمالة النفوس، لما للخيال من قدرة في تأليف الصور، وإبراز المعاني بأساليب جديد، فتنوعت بذلك صورهم الفنية القائمة على الخيال من **تشبيه واستعارة وكناية**، بغية التأثير في نفوس السامعين واقناعهم، ومن التشبيهات قول **تقي الدين عبد الرحمن بن عبد الوهاب** يشبّه مكوث الإنسان في الدنيا بعابر سبيل في قصر مقامه: « **وحقّق في نفسك وطويّتك أنّك في الدنيا كعابر سبيل.**» [3]، ومن **الاستعارات**؛ قول **ناصر الدين بن منير الاسكندري:** « **وينزع عن الو افدين إليه أغلال القلوب، ويطهّر الطائفين به من كلّ دنس وعيب.**» [4] وقول **يوسف بن سلمان النابلسي:** « **قد نُشرت علينا رحمة الرحمن، وبنشرها طويت يد الحرمان.**» [5]، ومن **كناياتهم**؛قول **الحاكم بأمر الله الأول (ت 701هـ)** « **فشمّروا عن ساق الاجتهاد، في إحياء فرض الجهاد.**» [6]

**ز. الاقتباس من القرآن الكريم:** احتشدت خطب عصر المماليك بالاقتباس من القرآن الكريم، وقد عمد الخطباء إلى الاقتباس، حتى ليكون لخطبهم من التأثير وشدة الوقع ما لآيات القرآن الكريم في نفوس الناس من القوة والقداسة، ومن تلك الاقتباسات خطبة تحتشد بآيات القرآن، أوردها عبد الله بن أبيك، ولم يحدد صاحبها بمناسبة زلزال ضرب سنة702هـ، ومما جاء فيها، « **أيها الناس، إن المعاصي قد كثر عمالها، حتى تباهيتم في أعمالها، وفشت في سائر الأرض وأعمالها، ((أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفلها)) فلذلك ((زلزلت الأرض زلزالها))، و ((وقال الإنسان مالها))، فالتوبة التوبة في هذه الأيام الباقية الفانية، واستحيوا ممن لا**

---

[1]- ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، 7/ 205.

[2]- ينظر: شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص: 305- 306.

[3]- ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: 13/ 370.

[4]- المرجع نفسه، 13/ 333.

[5]- المرجع نفسه، 3/ 338.

[6]- ابن كثير، البداية والنهاية: 13/ 238.

**تخفى عليه خافية، واعتبروا بمن هلك تحت ردمها فجأة...فنسأل الله السلامة، إذا حميت سلاسلها وأغلالها ((زلزلت الأرض زلزالها))، ((يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا))**.»[1]

ومن ذلك قول شرف الدين الفزاري في خطبة من إنشائه يوم الجمعة، مما جاء فيها: « أوصيكم عباد الله بتقوى الله، إن أحسن ما وعظ به الإنسان كلام الملك الديّان، ((يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا))، نفعنا الله وإياكم بكتابه، وأجزل لنا ولكم من ثوابه، وغفر لي ولكم وللمسلمين أجمعين»[2].

ناهيك عن سريان العاطفة الدينية الجلية التي تسود سائر ضروب خطب عصر المماليك.

وعليه؛ شهد عصر المماليك (648-923هـ) تراجعاً في فن الخطابة وتحولها إلى "عصر جمود"، نتيجة استفحال العجمة، وابتعاد الحكام عن الاتصال الجماهيري، وبروز الشعر كبديل سياسي وحماسي. ومع ذلك، بقيت الخطابة الدينية مزدهرة لارتباطها بالشعائر (كالجمعة والأعياد) وحاجة المجتمع للوعظ والتحذير من الفتن. وتطورت الخطابة الاجتماعية، لا سيما "خطب الصداق" التي تنوعت بين الأمراء والأعيان والعامة، وخطب التأبين في المحافل العامة. فنياً، اتسمت الخطابة بطابع إنشائي مكتوب، مع التزام صارم بالبناء الفني (مقدمة، عرض، خاتمة) والإغراق في المحسنات البديعية كالسجع. كما ظهر اتجاه يوازن بين تعقيد الصنعة اللفظية واسترسال الوعظ، مع اعتماد كثيف على الاقتباس القرآني والصور البيانية لتأثيرها في النفوس. ورغم تراجع الارتجال، ساهم كبار الخطباء، كابن دقيق العيد والشهاب محمود، في صيانة هذا الفن عبر دواوين وكتب تُعنى بإنشاء الخطب ونماذجها.

---

[1]- الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق: هانس روبرت، القاهرة، 1960، ص: 102- 103.

[2]- اليونيني، ذيل مرآة الزمان، 2/ 188- 190.

# فنُّ الترسّل في العصر الجاهليّ

- فنُّ الترسّل لغة واصطلاحا
- نشأة الترسل في العصر الجاهليّ
- أنماط فن الترسل في العصر الجاهليّ
- الخصائص الفنية لترسل في العصر الجاهليّ

الحصة 8

الترسل والرسالة فن قديم، وأصل من فنون النَّثر لا يقل أهمية وشهرة عن غيره من الفنون الأخرى، وقبل الولوج إلى الحديث عن فن الترسل عبر عصور الأدب العربيّ القديم كان لابد لنا من الوقوف على تحديد ماهية فن الترسل من حيث اللغة والاصطلاح، والمصطلحات المرادفة له في الاستعمال.

## 1. فنُّ الترسُّل لغة واصطلاحا

وبعد تتبع الدلالات اللغوية ل مادَّة «رَسَلَ» في المعاجم العربيّة، فإننا بصدد مادَّة أجمعت أكثر معاجم اللغة على توحد دلالتها، ففي اللسان: الرّسل: القطيع من كل شيء، والقطيع بعد القطيع، والتّرَسُّل: من الرسل في الأمور والمنطق، كالتمهل والتوقر والتثبت، وجمع الرسالة الرسائل، والإرسال: التوجيه، وقد أرسل إليه، والاسم الرِّسالة والرَّسالة والرّسُول والرّسِيل. وفي القاموس المحيط: تراسلوا: أرسل بعضهم إلى بعض، وترسل في قراءته: اتّأد[1].

وجاء في كتاب البرهان في وجوه البيان: « الترسل من ترسلت أترسل ترسلا وأنا مترسل، كما يقال توقفت بهم أتوقف توقفا وأنا متوقف ولا يقال ذلك إلا فيمن تكرر فعله في الرسائل (...) وأرسل يرسل إرسالا وهو مرسل والاسم الرسالة، أو راسل يراسل مراسلة وهو مراسل وذلك إذا كان هو ومن يراسله قد اشتركا في المراسلة، وأصل الاشتقاق من ذلك أنه كلام يراسل به من بعيد فاشتق له اسم الترسل والرسالة من ذلك» [2].

وفي **الاصطلاح فالترسل**؛ لون من ألوان النَّثر الفني الجميل، وضرب من ضروبه التي تنهال على القريحة انهيالا، وهو مخاطبة الغائب بلسان القلم، وهو فن إنشاء الكلام المنثور، وحسن صياغته وتأليفه للوفاء بأغراض المراسلة المختلفة. يقول المرزوقي (421ه): « **إن المقصود من الترسل هو "كتابة الرسائل"، إذ كان مورده على أسماع مفترقة من خاصي و عامي، و أفهام مختلفة من ذكي و غبي، و للمترسل أمور لابدّ من مراعاتها: منها تبيين مقادير من يكتب عنه وإليه حتى لا يرفع وضيعا و لا يضع رفيعا، و أن يعلم أوقات الإسهاب و التطويل، والايجاز والتخفيف، فقد يتفق ما يحتاج فيه إلى الإكثار حتى يستغرق في الرسالة الواحدة أقدار القصائد الطويلة و يتفق أيضا ما تغني فيه الإشارة و يجري مجرى الوحي في الدلالة.**» [3]

والرسالة: القطعة النَّثرية التي يدبجها الكاتب في نسق فني جميل في غرض من الأغراض، ويبعث بها إلى شخص آخر؛أي هي الكلام المرسل من بعد، ولذا كان لابد فيها من وجود طرف منتج لهذا الكلام بمستوى من المستويات الفنية وهو (المرسل) وطرف متلقٍ لهذا الإنتاج وهو (المرسل إليه) وطرف ناقل له هو (المرسل) أو (الرسول). وفائدتها أوسع من أن تحصر من حيث أنها ترجمان الجنان، ونائب الغائب في قضاء أوطاره، ورباط الوداد مع تباعد البلاد.

---

[1]- ابن وهب الكاتب: البرهان في وجوه البيان، ص: 192.

[2]- ابن منظور: لسان العرب، ج: 3 (مادة رسل)/ الفيروز أبادي: القاموس المحيط، ج: 1، ص: 2009.

[3] - المرزوقي: شرح ديوان الحماسة.ج: 1، ص: 18.

وقد شاع استعمال لفظ كتاب وكثر اتخاذ الكتاب المترسلين له في مكاتباتهم المختلفة الرسمية الخاصة، حتى صار مرادفا للفظ رسالة وموازيا له في المعنى والدلالة في القرن الخامس الهجري، وهو الإشارة إلى النص المكتوب الذي يبعث به الكاتب إلى غيره في أي موضوع، وطريقة المكاتبة هي طريقة المخاطبة البليغة مع مراعاة أحوال الكاتب والمكتوب إليه والنّسبة بينهما، [1]**«الترسل أو المراسلة أو المكاتبة ألفاظ مترادفة، إذ أنها جميعا تدل على معنى واحد وهو التخاطب بالكتابة أو بلسان القلم.»** [2]

## 2. نشأة الترسل في العصر الجاهليّ

إن المتصفح لفن الترسل عند العرب في العصر الجاهليّ لا يقف على صورة صحيحة تامة لهذ الفن، لقلة ما وصل إلينا؛ وهذا القدر اليسر الذي أنشأه عرب الجاهليّة التمعن فيه يدرك أن المشافهة تطغى على نصوصه، وهذا ما قرره الباحث **أحمد زكي صفوت** حين جمع رسائل العرب في الجاهليّة في كتابه **"جمهرة رسائل العرب في عصور العربيّة الزاهية" فإنه** لم يعثر إلا على اثنتي عشر رسالة منها أربعٌ شعرية، وقد قال في تقديمه لها: **« إنَّ جمهرة العرب في هذا العصر كانت متبدية، فلم تكن الكتابة فيها فاشية، ولذا كانوا يعتمدون في تراسلهم على المشافهة، فيبعثون برسالاتهم شفهية مع أمناء ينتخبونهم لإبلاغها، وكانوا يحتفظون بآثارهم الأدبيّة، فيستظهر ونها في الصدور، ويتناقلونها على الألسن.»** [3] والرسائل ترافق الحضارة والاستقرار، والتدوين، وقدعرف العرب الكتابة في الجاهليّة على نحو نادر في البادية وبعض المناطق الحضارية، وقد استعملوها في مختلف شؤون حياتهم، كتدوين العقود و المواثيق، والوثائق السياسية و التجارية، ولكن هذا الاستعمال لم يرتق لحفظ نصوصهم الأدبيّة لقلتها و صعوبة وسائل وأدوات الكتابة، من الحجارة والجلود والعظام وجريد النخل وذلك ولم يستخدم العرب الكتابة لحفظ رسائلهم، مما أدى إلى إثارة شكوك الباحثين حول صحة تلك الرسائل المدونة، من ذلك "**طه حسين**" الذي ينفي كلية وصول أي نموذج من النَّثر الجاهليّ [4] و"**زكي مبارك**" حيث يقول: «إن أكثر ما نُسِب إلى الجاهليّين غير صحيح.» ويواصل كلامه و يقول في موضع آخر: « والخطب والوصايا و الرسائل التي نُقلت إلينا على أنها جاهلية هي موضع شك.» [5]، بينما يذهب شوقي ضيف إلى القول بأن: « ليس بين أيدينا وثائق جاهلية صحيحة تدل على أن الجاهليّين عرفوا الرسائل الأدبيّة وتداولوها... وإذا كنا نفتقد الأدلة المادية على وجود رسائل أدبية في العصر الجاهليّ فمن المحقق أنه وجدت عندهم ألوان مختلفة من القصص والأمثال والخطابة وسجع الكهان»[6].

---

[1]- ينظر: فائز عبد النبي فلاح القيسي: أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس، ص: 83، 80.

[2]- الطّاهر توات: أدب الرّسائل في المغرب العربي – في القرنين السّابع و الثّامن الهجريّين –، ج1، ص76.

[3]- أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، ج: 1، ص: 9.

[4]- طه حسين، في الأدب الجاهلي، ص: 289.

[5]- زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع.ص: 38، 47.

[6]- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي –العصر الجاهلي- ، ص: 398- 399.

ومن المسلم به أن الرسائل التي وصلت إلينا من هذا العصر تكون خلاصة لمضمون الرسائل الشفوية، و لاشك في أن المشافهة لا تكفي لحفظ النصوص النَّثرية و نقلها من جيل إلى جيل، لصعوبة ذلك على الذاكرة، ولاختلاطها بالكلام اليومي للمرء، و لتأثرها بأساليب الناقلين المختلفين.

وجاءت الرسائل في العصر الجاهليّ شعرية البناء انسجاما مع المرحلة الشفوية التي نما شعر العرب في ظلها وترعرع، وكانت الرسائل الشعرية تمثل الوجه الحقيقي الأصيل للترسل الجاهليّ، ومن الرسائل الشعرية؛ رسالة **حاتم الطائي إلى وهم بن عمرو**: [الطويل] [1]

**أَلا أَبلِغا وهمَ بنَ عَمرو رِسالَةً فَإِنَّكَ أَنتَ المَرءُ بِالخَيرِ أَجدَرُ**

**رَأَيتُكَ أَدنى مِن أُناسٍ قَرابَةً وغَيرَكَ مِنهُم كُنتُ أَحبو و أَنصُرُ**

**إِذا ما أَتى يَومٌ يُفَرِّقُ بَينَنا بِمَوتٍ فَكُنْ أَنْتَ الَّذِي يَتَأَخَّرُ**

ولقيط بن يعمر الإيادي لقومه، ورسالة عبد العزى بن امرئ القيس الكلبي إلى قومه، وكتاب عدي بن زيد إلى أخيه أبي، ورد أخيه أبي... وعلي نذرت الرسائل النَّثرية المكتوبة،

تعدُّ رسالة **المنذر الأكبر** إلى **أنوشروان** ملك الفرس في صفة جارية أهداها إليه، من أقدم الرسائل النَّثرية وأشهرها، ومما جاء فيها: «**إني قد وجَّهتُ إلى الملك جاريةً معتدلةَ الخَلْق، نقيَّةَ اللون والثَّغر، بيضاءَ قمراء، وطْفَاء كَحلاء، دَعْجاء حَوراء عَيْناء... عزيزة النفس، لم تُغْذَ في بؤس، حَيِية حَصينة رَزينة، حليمة رَكِينة، كريمة الخال، تقتصر على نسب أبيها دون فَصِيلتها، وتستغني بفصيلتها دون جماع قبيلتها..**» [2].

## 3. أنماط فن الترسل في العصر الجاهليّ[3]

أ. **الرسائل الإشارية:** تعد الرسائل الإشارية من أقدم أشكال الرسائل التي عرفها العرب الجاهليّين كأداة للتواصل والإبلاغ، وكانت هذه الرسائل على نوعين: نوع يغلب عليه الجانب **المادي**، ولعل من أبرز أمثلته إشعال النيران في أعالي الجبال و على المرتفعات المشرفة، اعلاماً بشيء ما يتفق عليه عادة بين طرفين؛ يكون أحدهما مرسِلاً و الآخر ملتقياً، من ذلك ما يروى أن يوما معدودا من أيام العرب يُعرَف بـ «يوم خزاز»، واجتمعت قبائل ربيعة ومضر، وعليها كليب بن ربيعة التغلبي، فتوافوا بخزاز- وهو اسم جبل- لقتال جيش من حمير يقوده ملكهم. فوجه كليب السفاح بن عمرو أمامه، وأمره إذا التقى بالقوم أن يوقدوا نارا علامة جعلها بينه وبين الملك،

---

[1]- ديوان حاتم الطائي، تحقيق: أحمد رشاد، ص: 03.

[2]- أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، ج: 1، ص: 10- 12.

[3]- ينظر: محمود المقداد: تاريخ الترسل النثري عند العرب في الجاهلية. ص122- 123. جعفر آجورلو، الترسل في العصر الجاهلي والعصر الأموي(بحث منشور).

فسار السفاح ليلا حتى وافى معسكر الملك بخزاز فأوقدوا نارا، فأقبل كليب في المجموع نحو النار، فوافاهم صباحا، فاقتتلوا فقُتل الملك، وانفضت جموعه[1].

وكذلك اشعال النار للضيافة وإهداء الضالين في الصحراء، و كانت لذلك تدعى "نار القِرى"، نظرا للوظيفة التي تؤديها، وهي في حقيقتها رسالة بصرية بسيطة بمنزلة إرسال دعوة إلى السارين والمنقطعين من أبناء السبيل حتى يقدموا على بيت صاحب هذه النار.

ونوع ثان **لغوي** يعتمد الرمز وسيلة لنقل معانيه، وهومن أنواع الإشارة، إذ يكون ظاهر الكلام فيه عاديا ساذجا، بل يدل أحيانا على هذيان المرسل إلا أن يكون مضمونه عميقا ويحتاج إلى رجل فطن ليستخرج منه المغزى المراد به. ولعل أجمل ما بلغنا من رسائل العصر الجاهليّ تلك الرسائل المرموزة الملغزة، فيها ما فيها من دهاء العرب وذكائهم، وحسن تمرسهم بالمعضلات، وقدرتهم على حلها رسالة **ناشب الأعور العنبري** إلى قومه، لما وقع أسيرا لدى قبائل بكر بن وائل (قيس بن ثعلبة)، وتحذير قومه تميم من غزو وشيك. طلب ناشب إرسال رسول إلى أهله ليوصيهم بمعاملة أسير بكر (حنظلة بن الطفيل) معاملة حسنة، اختبر ناشباً الرسول بسؤاله عن الرمل والشمس، ليثبت كفاءته. فقال ناشب: « اذهب إلى أهلي وأبلغهم سلامي، وقل لهم يحسنوا إلى أسيرهم. فإني عند قوم يحسنون إليَّ ويكرموني. وقل لهم يتركوا جملي الأحمر ويركبوا ناقتي العيساء (لون بين الوضح والشعل). بآية ما أكلتوا معهم حيسًا، وليرعوا حاجتي في بني مالك. وقل لهم أن العوسج قد لأورق وأن النساء قد شكّت، وليعصوا همام بن هشام فإنه مشئوم وليطيعوا هذيل بن الأخنس فإنه حازم ميمون.»

فكَّ هُذَيْلُ بنُ الأَخْنَسِ الشِّفرةَ فورًا، وقال:

«أمَّا الرَّمل؛ فقد أتاكم عددٌ لا يُحصى من الرجال.

وأمَّا الشَّمس التي أومأ إليها؛ فإنَّ الخبر أوضح من الشمس.

وأمَّا الجمل الأحمر؛ فهو دياركم هذه يا بني تميم، ويطلب منكم الرحيل عنها.

وأمَّا الناقة العيساء؛ فهي نفود الدهناء، ويطلب منكم شدَّ الرحال إليها.

وأمَّا بني مالك؛ فكلكم يعلم أنَّه لا أخَ له بهذا الاسم، ولكنَّه قصد جيراننا من بني مالك، فيجب تحذيرهم أيضًا.

وأمَّا العوسج فقد أورق؛ فيقصد أنَّ الرجال قد لبسوا أسلحتهم وتجهَّزوا للحرب.

وأمَّا قوله: النساء شكَّت؛ فيقصد أنَّ النساء قد حاكن الشِّكَّة للرجال استعدادًا للحرب.

وأمَّا قوله: ما أكلتُ معكم من حَيْس؛ فيقصد بالحيس، وهو خليط من التمر والسمن والإقط، أنَّ هؤلاء أخلاطٌ من العرب يريدون حربكم»

[1]- ينظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج1، ص: 407- 408/ خزاز: جبل بطخفة ما بين البصرة إلى مكة، وهو قريب من جبل سالع.

وقد نجحت هذه الرسالة المشفَّرة الذكيَّة في إنقاذ بني تميم يوم الوقيط، مُظهرةً فطنة ناشب وحنكته في إيصال الخبر إلى قومه دون أن يفطن إليه الأعداء.»[1].

**ب. بالرسائل الشفوية:** غلب الطابع الشفاهي على رسائل العرب الجاهليّين واتسع في غياب الخط والتدوين وموادهما، لأنه يعتمد بطبيعته على الألفاظ اللغوية التي تؤلف فيما بينها كلاما مفهوما يحمله رجل بعد أن يحفظه من المرسل ليبلغه إلى المرسَل إليه بنصّه الحرفي الذي قاله المرسِل أو معانيه الجوهرية التي أرادها المرسِل إن أمكن. ومن الرسائل الجاهليّة المنقول مرويا باللسان، لا مكتوبا على الطرس. ما ورد في مظان الأدب أن **مرة أبا جساس** أرسل إلى **المهلل: «إنك قد أدركت بثأرك، وقتلت جساسا، فاكفف عن الحرب، ودع اللجاج والإسراف، واصلح ذات البين، فهو أصلح للحيين، و أنكأ لعدوهم »** [2]

**ج. الرسائل المكتوبة (التدوينية):** يعد هذا النمط مرحلة حاسمة في تاريخ تطور وسيلة الإبلاغ من طريق الرسائل، ولابد من أن يكون ظهوره مرافقا للبدايات الأولى لنشأة الخط، و ازدهار فن الكتابة. وقد سبق الإشارة إلى أن العرب في العصر الجاهليّين قد عرفوا الكتابة، و ربما أنها قد استخدمت في تدوين بعض آثار الأدبيّة، ولكنه استخدام لم يرق إلى درجة الشيوع والكثرة، مما ترتب عن ذلك سقوط عدد كبير من الرسائل في ذلك العصر، حسب ما جمعه أحمد زكي صفوت في كتابه" **جمهرة رسائل العرب في عصور العربيّة الزاهرة**". وظلت الرسائل المدونة أطول بقاء من الرسائل الشفوية و يمكن روايتها و نقلها من جيل إلى جيل، لأن الكتابة كفيلة بحفظها، و هي لذلك أدق رواية و أوثق مضموناً من الشكل الشفوي. ومن نماذج الرسائل المكتوبة على شحتها **صحيفة الملتمس**، التي يأمر فيها ملك الحيرة **عمرو بن هند** عامله في البحرين أن يقتل **المتلمس** ونصها: « **باسمك اللهم، من عمرو بن هند إلى المُكَعْبَر. أما بعد فإذا أتاك كتابي هذا مع الملتمس فاقطع يديه ورجليه وادفنه حيا»** [3]

## 4. الخصائص الفنية لترسل في العصر الجاهليّ:

من أهم الخصائص التي يمكن أن نستخرجها من نصوص الرسائل في العصر الجاهليّ: [4]

أ. قصر الرسائل؛ أغلب رسائل العرب الجاهليّين سواء الشفوية والمكتوبة لم تكن طويلة، فكثيرا ما كانت لا تتجاوز فقرتين أو ثلاث فقرات قصار.

ب. الإيجاز في التعبير؛ رسائل العرب الجاهليّين تؤثر الإيجاز، فتعبر عن الأفكار بأقصر الجمل، وأوضح الأفكار، فإذا قصدت إلى الإلغاز صنعته بلا إغراب.

---

[1]- ينظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج: 1، ص: 497- 500.

[2]- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج: 1، ص: 420.

[3]- أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، ج: 1، ص: 13

[4]- ينظر: غازي طليمات وعرفان الأشقر: الأدب الجاهلي (قضاياه- أغراضه- أعلامه- فنونه)، ص: 575- 576.

ج. خلوها من المقدمات؛ معظم الرسائل الجاهليّة تبدأ مباشرة بدون مقدمات، فيهجم المترسل على الغرض بلا تمهيد، أو التمهيد للغرض بجملة تقليدية مألوفة، هي ذكر اسم الله، وتميزت رسائل قريش بالمقدمة المألوفة "باسمك اللهم" حتى جاء الإسلام، فأبطلها.

يُعد "الترسل" فناً نثرياً يعتمد على مكاتبة الغائب بلسان القلم، وهو أداة تواصل أدبية تتطلب مهارة في الصياغة لمراعاة أحوال المرسل والمتلقي. في العصر الجاهلي، غلبت المشافهة على المراسلات لقلة التدوين، فكانت الرسائل تعتمد على الرواة أو الإشارة الرمزية (مثل النيران أو الشفرات اللغوية) لنقل الأخبار بدقة وإخفائها عن الأعداء. ورغم ندرة النصوص المكتوبة، فقد عرف الجاهليون الترسل الإشاري والشفوي والمكتوب، مع قلة ما وصل منها لضعف أدوات التوثيق. اتسمت هذه الرسائل بالخصائص الفنية المتمثلة في الإيجاز الشديد، وقصر العبارات، والخلو من المقدمات المطولة، حيث كان الكاتب يهجم مباشرة على الغرض. كما تداخل فن الترسل مع الشعر في بداياته، ليجسد بذلك مرحلة أولى من مراحل تطور النثر العربي الذي انتقل لاحقاً من التلقائية الجاهلية إلى التنظيم الفني المكتوب.

# فن الترسل في عصر صدر الإسلام والخلافة الراشدة

- عوامل ازدهار وتطور فن الترسل في عصر الإسلام والخلافة الراشدة
- أنواع فن الترسل في عصر صدر الإسلام والخلافة الراشدة
- خصائص وسمات فن الترسل في عصر الإسلام والخلافة الراشدة
- أشهر المترسلون ونماذج من رسائلهم المشهورة في عصر الإسلام والخلافة الراشدة

الحصة 9

شهد فن الترسل في عصر صدر الإسلام والخلافة الراشدة نقلة نوعية متميزة، وأصبح وجوده ضرورة ملحة بتحول الرسائل إلى أداة سياسية وإدارية لا غنى عنها، سواء في وجوده صلى الله عليه وسلم أوفي رحاب خلفائه الراشدين، ما جعل رسائل هذا العصر نواة حقيقية لفن الترسل العربيّ في العصور اللاحقة، يقول شوقي ضيف: «لا نتأخر بنشأة الكتابة الفنية عند العرب إلى العصر العباسي، عصر التأثر الواضح بالفرس، ولا نتقدم بها إلى العصر الجاهليّ، بل نضعها في مكانها الصحيح الذي تؤيده المستندات والوثائق وهو العصر الإسلامي.»[1]

## 1. عوامل ازدهار وتطور فن الترسل في عصر الإسلام والخلافة الراشدة

عرف فن الترسل بداياته المنظمة وازدهاره الأول في عصر الإسلام والخلافة الراشدة، فقد أتيح لهذا الفن من الدوافع والدواعي بظهور الإسلام ما لم يتح له في العصر الجاهليّ، وأهم هذه العوامل:

أ. **الدعوة إلى الإسلام وإرساء قواعد الدين الجديد**؛ تعود البداية الفعلية القوية لتطور الترسُّل النَّثري المدَّون إلى حقبة حياة النبي صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة، حين اعتمد على الرسائل المكتوبة كوسيلة رسمية لنشر الإسلام والتعريف به، فكثرت رسائل النبي -صلّى الله عليه وسلّم- إلى ملوك الدول المحيطة بشبه جزيرة العرب؛ هرقل (قيصر الروم)، كسرى (ملك الفرس)، المقوقس (عظيم القبط) والنجاشي (ملك الحبشة)، وإلى حكام و رؤساء القبائل العربيّة، يدعوهم إلى الإسلام ويعلمهم تعاليمهم.

من ذلك رسالة النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى **كسرى ملك فارس**: « بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين، أسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس »[2]، وتظهر الرسالة الطابع العالمي للإسلام، فهي لا تخاطب العرب وحدهم، بل الأمم جميعًا، بلغةٍ واثقةٍ من مصدرها الإلهي.

ب. **الاهتمام بفن الكتابة والكتاب**؛ مما أثر إيجابا على انتشار الرسائل وتطورها، فقد أكد الإسلام على أهمية تعلم القراءة والكتابة وأولاها عناية خاصة، واتخذها دعامة من دعائمه، فقد أكد الإسلام على أهمية تعلم القراءة والكتابة، مع نزول أول آية من آيات القرآن الكريم: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ (2) ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ (3) ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ (4) عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ (5)﴾ [العلق: 1 إلى 5]؛ كما حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على نشر الكتابة بين المسلمين، والتشجيع على تعلمها بطرق مختلفة، ففي السيرة النبوية أن المصطفى صلى الله عليه وسلم جعل فداء الأسرى القرشيين الكاتبين في غزوة "بدر" أن يعلم الأسير منهم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة[3].

---

[1]- شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص: 104.

[2]- أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، ج: 1، ص: 40.

[3]- شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص: 96.

حينئذ شاعت الكتابة، و استخدمها الناس في كافة أغراضهم فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يملي رسائله على كتابه، وكان الخلفاء الراشدون من بعده يكتبون أو يستكتبون إلى ولاتهم وعمالهم ورؤساء جيوشهم في مختلف الشؤون، وهؤلاء يردون عليهم، وأغلب الظن أن حركة التدوين والكتابة، قد بدأت منذ القرن الهجري الأول وإن كانت لم تظهر بشكل محسوس إلا في منتصف القرن الثاني، كالكتب التي تبودلت بين عمر بن الخطاب وعماله، وبين علي بن أبي طالب و معاوية، وغيرها من الكتب التي صدرت ودونت آثار مختلفة لرجال، هذا القرن منذ بدايته [1]. من ذلك رسالة علي إلى معاوية ردا على رسالة هذا إليه: « وأما طلبك إلي الشام؛ فإني لم أكن لأعطيك اليوم ما منعتك أمس، وأما قولك: إن الحرب قد أكلت العرب إلا حشاشات أنفس بقيت، ألا ومن أكله الحق فإلى الجنة، ومن أكله الباطل فإلى النار، وأما استواؤنا في الحرب والرجال فلست بأمضى على الشك منى على اليقين، وليس أهل الشام بأحرص على الدنيا من أهل العراق على الآخرة، وأما قولك: إنا بنو عبد مناف! فكذلك نحن، ولكن ليس أمية كهاشم، ولا حرب كعبد المطلب، ولا أبو سفيان كأبي طالب، ولا لمهاجر كالطليق، ولا الصريح كاللصيق، ولا المحق كالمبطل، ولا المؤمن كالمدغل. ولبئس الخلف خلف يتبع سلفا هوى في نار جهنم. وفي أيدينا بعد فضل النبوة التي أذللنا بها العزيز، ونعشنا بها الذليل. ولما أدخل الله العرب في دينه أفواجا، وأسلمت له هذه الأمة طوعا وكرها، كنتم ممن دخل في الدين، إما رغبة وإما رهبة، على حين فاز أهل السبق بسبقهم، وذهب المهاجرون الأولون بفضلهم، فلا تجعلن للشيطان فيك نصيبا، ولا على نفسك سبيلا.» [2]، وهكذا أدى شيوع الكتابة، ومعرفة الناس بها عند منبثق الإسلام إلى ظهور نوع جديد من النَّثر لم يكن معروفا بصفة قاطعة من قبل هذا النوع هو فن الترسل.

ج. **توطيد أركان الدولة الإسلامية الناشئة** بقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم ثم الخلفاء الراشدين الذين أدركوا أهمية المراسلات ودورها في تنظيم شؤون الحكم مع ازدياد متطلبات المسؤوليات السياسية والعسكرية والمالية في ظل تنامي الدولة واتساع رقعتها، سواء المرسلة إلى العمال والأمراء وأصحاب السرايا، فَضْلًا عن كِتابةِ العُهودِ والمَواثيقِ بيْنَ سائِرِ الدُّولِ المُجاورةِ، أو بين أهْلِ الذِّمَّةِ الَّذين يَعيشونَ في بِلادِ الإسْلامِ، من ذلك كتب عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى الناس في الأمصار: « أن ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، ولا يذلّ المؤمن نفسه، فإني مع الضعيف على القويّ مادام مظلوما، إن شاء الله» [3].

---

[1]- ينظر: عبد الحكيم بلبع، النثر الفني وأثر الجاحظ فيه.ص: 62، 70.

[2]- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج: 51، ص: 117.

حشاشات ج حشاشة: بقية الروح. الطليق: الذي أُسر فاطلق بالمنّ عليه أو الفدية، وأبو سفيان ومعاوية كانا من الطلقاء يوم الفتح. الصريح: صحيح النسب. اللصيق: من ينتمي إليهم وهو أجنبي عنهم. المدغل: صاحب الدغل وهو الفساد. نعشنا: رفعنا.

[3]- أحمد زكي صفوت: جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، ج: 1، ص: 260.

وكتب خالد بن الوليد قبل خروجه إلى الأبلّة كتابا إلى هرمز صاحب ذلك الثغر: « أما بعد، فأسلم تسلم، أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة، وأقرر بالجزية، وإلا فلا تلومنّ إلا نفسك، فقد جئتك بقوم يحبّون الموت كما تحبّون الحياة.» [1]

د. **اتساع الفتوحات الإسلامية**؛ والذي فرض بدوره ضرورة التواصل مع الولاة والقادة و الممالك المجاورة، وقد أضحى الاتصال بين أقطارها ضرورة تستدعي وجود كتّاب يوجهون الرسائل إلى العمال و القبائل في مختلف أنحائها، فكان للرسول صلى الله عليه وسلم كتّاب كما كان لخلفائه و ولاتهم من بعده كتّابهم، وقد كان إرسال الرسائل وتلقيها (أي نقلها) يحتاج إلى نظام عفوي من البريد، كان يتمثل آنذاك في نظام الرُّسُل، و في عهد الخليفة عمر بن الخطاب انتظم التراسل واتسع نطاقه باتساع الدولة الإسلامية شرقا وغربا، وأنشأ نظاما ثابتا لنقل الرسائل سمي "بالبريد"، ولم يقصره على البريد الرسمي، بل أباحه لأفراد الشعب كافة، مما سهل عملية التراسل، وكان النواة التي تأسس عليها ديوان الرسائل في زمن معاوية. [2]

## 2. أنواع فن الترسل في عصر صدر الإسلام والخلافة الراشدة

تعدّدت أنواع الرسائل في عصر صدر الإسلام والخلافة الراشدة، فلم تعد رسائل للدعوة فقط، كالدعوة لدخول الإسلام؛، أو دفع الجزية، أو الدعوة للاعتصام بحبل الله، أو الدعوى لتقوى الله، [3]، فعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النجاشي وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله تعالى [4] بل تنوعت موضوعاتها تبعا للتطور الحياة الإسلامية الجديدة في آفاقها السياسية و الاجتماعية والفكرية، فكانت تعالج الموضوعات الرسمية الصادرة عن الخلفاء والولاة وقادة الجيوش، سواء ما تعلق بإرساء الحكم أو إدارة أمور الرعية، أو كل ما تقتاضيه أمور الجهاد والحرب، حيث أن ظهور الإسلام و ما رفقه من الدعوة للكتابة والقراءة، وتوطيد مقومات الدولة الإسلامية منذ نشأتها حتى استقرارها الأمر تطلب حاجة ملحة لكتابة كثير من شؤون المسلمين وتنظيم حياتهم الجديدة، يقول شوقي ضيف: « **الكتابة الرسمية الفنية عند العرب لم تأتها من الخارج فقد نشأت في حجورهم بحكم حياتهم الإسلامية والسياسية الجديدة ومشاكلهم المختلفة**» [5].

ومن تلك الرسائل؛ رسائل لتولية الأمراء على الحكم، ورسائل لعمال الخلفاء على الأقاليم؛ من ذلك، كتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أهل الكوفة: « **إني بعث إليكم عمّار بن ياسر أميرا، وجعلت عبد الله بن**

---

[1]- أحمد زكي صفوت: جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، ج: 1، ص: 124.

[2]- ينظر: منتصر عبد القادر الغضنفري، وماجدة عجيل صالح، الرسائل النثرية قراءة فنية في ذاكرة المصطلح، ص: 166.

[3]- ينظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي - العصر الإسلامي- ، ص: 132.

[4]- محمد بن شرف الدين النووي، شرح النووي على مسلم، ج: 12، ص: 112/ (كتاب الجهاد والسير، باب كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الله عز وجل)

[5]- شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي ص: 111.

**مسعودا معلّما ووزيرا، وولّيت حذيفة بن اليمان ما سقت دجلة، وما وراءها، وولّيت عثمان بن حنيف الفرات وما سقى.»** [1].

وكتب عثمان إلى عماله: « **أما بعد: فقوموا على ما فارقتم عليه عمر ولا تبدّلوا، ومهما أشكل عليكم فردّوه إلينا نجتمع عليه الأمة ثم نرّده عليكم، و إياكم وأن تغيّروا فإني لست قابلا منكم إلا ما كان عمر يقبل»**[2].

ورسائل لقادة الجيوش في ساحات القتال، كتولية القادة، وتسير الجنود وتزويد هم بالتوجيهات و وضع الخطط الحربية، من ذلك روى الطبري أن أول كتاب كتبه الخليفة عمر بن الخطاب حين ولي الخلافة كان إلى أبي عبيدة بن الجراح، يوليه على جند خالد بن الوليد جاء فيه: «**أُوصيك بتقوى الله الذي يبقى ويفنى من سواه، الذي هدانا من الضلالة وأخرجنا من الظلمات إلى النور وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد، فقم بأمرهم الذي لحق عليك، ولا تقدم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة ولا تنزلهم منزلا قبل أن تستريده لهم، وتعلم كيف مأتاه، ولا تبعث بسرية إلا في كشف من الناس، و إياك وإلقاء المسلمين في هلكة، وقد أبلاك الله بي و أبلاني بك فغمض بصرك عن الدنيا وأله قلبك عنها، و إياك أن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك فقد رأيت مصارعهم»** [3].

كما عالجت الموضوعات الشخصية أو الاجتماعية في الرسائل الخاصة التي يتبادلها الناس في أمورهم اليومية من أجل التهنئة أو التعزية أو العتاب وغيرها، حيث إن تفرق العرب في البلاد الإسلامية خاصة في فترة الفتح الإسلامي جعلهم يتكاتبون في شؤونهم الخاصة حيث أضحى الاتصال بينهم ضرورة ملحة، ضف إليه انتشار الكتابة وتطور أدواتها مما دفع بهذه المراسلات الشخصية قدما، ومن رسائل هذا العصر: رسالة تعزية بعث بها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى معاذ بن جبل في موت ابن له، فكتب إليه: « بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى معاذ بن جبل، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فأعظم الله لك الأجر، وألهمك الصبر، ورزقنا وإياك الشكر، فإن أنفسنا وأموالنا وأهلنا من مواهب الله الهنيئة، وعواريه المستودعة، متعك الله به في غبطة وسرور، وقبضه منك بأجر كثير الصلاة والرحمة والهدى، إن احتسبته فاصبر، ولا يحبط جزعك أجرك فتندم، واعلم أن الجزع لا يرد ميتا ولا يدفع حزنا، وما هو نازل فكان قد، والسلام» [4].

## 3. خصائص وسمات فن الترسل في عصر الإسلام والخلافة الراشدة

---

[1]- أحمد زكي صفوت: جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، ج: 1، ص: 241.

[2]- المرجع نفسه، ج: 1، ص: 260.

[3]- المرجع نفسه، ج: 1، ص: 145- 146.

[4]- القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، المطبعة الأميرية، القاهرة- جمهورية مصر العربية، ج: 9، ص: 80- 81.

تكمن أهمية فن الترسل في عصر الإسلام والخلافة الراشدة أنه أَسس لقواعد ثابتة، وتقاليد شبه فنية لفن الترسل لاحقا، وقد تميز بعِدَّةِ سمات فنية اخْتَصَّتْ به، وهي:

أ. من حيث البناء الفني تميّز بدء الرسائل في عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين بالبسملة "بسم الله الرحمن الرحيم" في الأغلب، وأحيانا تبتدأ بعبارة "أما بعد"، ثم ذكر المرسِل والمرسَل إليه: "من محمد رسول الله إلى فلان" وأحيانا "هذا كتاب محمد رسول الله إلى فلان، وتختم: " والسلام، أو السلام على من اتبع الهدى، وأحيانا بدون سلام مطلقا.

وبعد الفراغ من كتابه يثبت الكاتب في آخرها، تاريخ كتابة الرسالة؛ ويعد سيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه- أول من أقر التاريخ الهجري، وذلك لأن أبا موسى كتب إليه: « إنه يأتينا منك كتب ليس لها تاريخ- و كانت العرب تؤرخ بعام الفيل- فجمع عمر الناس للمشورة، فقال بعضهم: أرّخ بمبعث النبي و قال بعضهم بمهاجره، فقال عمر: لا، بمهاجر رسول الله فإن مهاجره فرق بين الحق و الباطل و كان ذلك في سنة سبع أو ثماني عشرة من الهجرة.» [1]، كما يثبت أيضا الختم في آخر الرسالة، ففي عهد النبي ﷺ كانت الرسائل تُختم **بخاتمه الشريف** المكتوب عليه ***"محمد رسول الله"*** ، وقد ا ستمر الخلفاء الراشدين من بعده في استخدامه حتى سقط في بئر من يد الخليفة عثمان بن عفان- رضي الله- ، كلّ ذلك لإضفاء طابع رسمي على الرسالة، وتوثيقا لها.

**ب. الإيجاز والسهولة مع البعد عن الإطناب والمبالغة:** فقد تميزت رسائل الرسول وخلفائه الراشدين بلغة مسترسلة تميل إلى الإيجاز والسهولة مع البعد عن الإطناب و المبالغة، تعتمد على اللمحة و الإشارة دون التفصيل والإسهاب، يقول الجاحظ بعد كلام طويل يصف بيان النبي صلى الله عليه وسلم: « وهو الكلام الذي قل عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجلّ عن الصنعة ونُزه عن التكلف.» [2]، من ذلك رسالة أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه والتي يقولان فيها: « سلام عليك فإنا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فإنا عهدناك وأمر نفسك لك مهم، فأصبحت وقد وليت أمر هذه الأمة أحمرها وأسودها، يجلس بين يديك الشريف والوضيع والعدو والصديق، ولكل حصته من العدل، فانظر كيف أنت يا عمر عند ذلك. فإنا نحذرك يوماً تعنو فيه الوجوه، وتجف فيه القلوب، وإنا كنا نتحدث أن هذه الأمة ترجع في آخر زمانها أن يكون إخوان العلانية أعداء السريرة وإنا نعوذ بالله أن تنزل كتابنا سوى المنزل الذي نزل من قلوبنا، فإنا كتبنا إليك نصيحة لك والسلام.» [3]. وقد مالت هذه الرسالة إلى الاقتضاب، وكانت أبعد عن الصنعة الكلامية، والغرض منها الوصول إلى المعنى عن أقرب الطرق وأيسرها دون تكلف.

**ج. الوضوح والبساطة:** وهي سمة غلبت على رسائل النبوية ومن بعده تِباعًا في عُصورِ الرَّاشِدينَ، لأن الهدف منها كان الإبلاغ والإقناع لا التجميل اللفظي، فلم يعن الرسول صلى الله عليه وسلم في رسائله بتحبير فني

---

[1]- الجهشاري، كتاب الوزراء والكتاب، ص: 20.

[2]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج: 2، ص: 244.

[3]- الباقلاني، إعجاز القرآن، ص: 212.

أو تصنيع بديعي، بل حاول إيصال فكرته بأسلوب سهل جميل، ولعل هذا ما أملته ظروف تلك المرحلة، فضلا عن أن من أرسل إليهم رسائله كانوا من الأعاجم، وفي هذا المقام يشير صاحب كتاب" أمراء البيان" قائلا: « كان الرسول يتوخى إذا كتب لغير العرب أن يوجز القول و يقل من اللفظ الذي لا يتفهمه كل انسان حتى يسهل نقل كلامه إلى ألسن من كتب إليهم من غير العرب، كما كان إذا خاطب قبائل من قريش، أو كاتبهم يستعمل ألفاظا مألوفة لهم لا يعرفها القريشيون، ذلك لأن مقصده الإفهام و البليغ من الكلام ما فهم و أبقى في النفس أثرا.» [1]

**د. هيمنة الخطاب الاقناعي:** قام مضمون الرسائل في هذا العصر على الدعوة بالحجة لا بالجدل أو التعصب؛ فلم تتسم الرسائل بطابع الإكراه، وإنما اتبعت طابعا استدلاليا لتحقيق غايات إقناعيه أو توجيهية على الأغلب، ولعل الجدة في طرح الموضوعات وتقوية الحجة بأدلة نقلية وعقلية كان لها من التأثير شيء كبير، من ذلك رسالة الإمام علي بن أبي طالب- كرم الله وجهه- إلى معاوية بن أبي سفيان، هذه الرسالة مثالٌ على الترسل الجدلي والسياسي، يظهر فيها ثبات الإمام علي على الحق، وفصاحته القاطعة، واستعماله للآيات القرآنية في سياق الحجاج والرد، ومما جاء فيها: « أَمَّا بعْدُ؛ فَقَدْ بَلَغَنِي كِتَابُكَ، وفَهِمْتُ مَا ذَكَرْتَ فِيهِ مِنْ ذِكْرِ اللهِ ورَسُولِهِ، ودَعْوتِكَ إِيَّايَ إِلَى أَمْرٍ كُنْتَ مِنْهُ وأَهْلُهُ أَبْعَدَ، وأَنْتَ إِلَيْهِ أَغْيَرُ... فَدَعْ عَنْكَ مَا لَا تَعْلَمُ، وسَتَعْلَمُ مَنْ يَظْفَرُ بِالْيَومِ غَدًا، وسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ»[2].

**هـ. أما عن الأسلوب الرسائل؛** فهو أسلوب جزل، قوي الأسر، محكم البناء، متين الصياغة خال في عمومه من الصناعة اللفظية التي يتكلف فيها السجع والبديع والزخرف، وتغتصب لها الحلي اللفظية المختلفة، وإذا وقع فيه شيء من ذلك فهو غير متعمد، وإنما آت مع الطبع والفطرة؛ من ذلك ما أثر من رسائل الإمام علي بن أبي طالب- كرم الله وجهه- والتي تحتفي بألوان مختلفة من الفنون البلاغية المختلفة التي لم تتكلف وإنما أوحي بها الطبع السليم، والفطرة الصادقة، فكانت مثلا رفيعا للإنشاء العالي الذي لا تعمل فيه ولا تكلف[3].

**و. التضمين؛** من أبرز ملامح رسائل هذا العهد التأثر بالقرآن الكريم ألفاظا ومعاني وأساليب، كثير من الرسائل تضمنت اقتباسات من القرآن الكريم أو افتتاحات بآياتٍ قرآنية، كما ظهر الاستشهاد بالشعر، ولاسيما في ختام الرسائل، من ذلك رسالة الاستغاثة التي كتبها الخليفة عثمان بن عثمان وهو محصورا بداره إلى الخليفة علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه)، والتي عبرت بإيجاز عن الحال التي وصل إليه الخليفة عثمان، ملائما ذلك بما ضمن من شعر، والذي أضفى بدوره جوا عاطفيا، ناهيك على مَدى البَراعةِ الفَنِّيَّةِ الَّتي وصَلَتْ إليها الرِّسالةُ في عهد الخلفاء الرَّاشِدينَ- رضي الله عنهم- ، قال عثمان: «أَمَّا بعْدُ، فإنَّه قد جاوزَ الماءُ الزُّبَى، وبَلَغَ الحِزامُ الطُّبْيَيْنِ، وتَجاوزَ الأَمْرُ بي قَدْرَه، وطَمِعَ فيَّ مَن لا يَدفَعُ عن نفْسِه: فإنْ كنْتُ مَأكولًا فكنْ خَيْرَ آكِلٍ وإلَّا فأدْرِكْني ولَمَّا أُمزَّقِ»[4].

---

[1]- محمد علي كرد، أمراء البيان، ج: 1، ص: 11- 12.

[2]- علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص: 584

[3]- ينظر: عبد الحكيم بلبع، النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، ص: 92.

[4]- أحمد زكي صفوت: جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، ج: 1، ص: 276.

وهكذا فإن فن الترسل عصر صدر الإسلام والخلافة الراشدة أضحى وسيلة للدعوة وتوطيد أسس الدين الإسلامي وتعزيز وجوده وتنظيم المجتمع الجديد وبنائه، وتحول إلى فنّ دعويّ وسياسيّ ودبلوماسيّ غلب عليه الصدق، الإيجاز، الوضوح، البعد عن الزخرف اللّفظي.

## 4. أشهر المترسلون ونماذج من رسائلهم المشهورة في عصر الإسلام والخلافة الراشدة

يُعد الرسول محمد ﷺ أول المترسلين في الإسلام، امتازت رسائله بالوضوح، والبلاغة، والإيجاز، والصدق في الدعوة، والسمو الروحي، ومن أشهر كتاب رسائل الرسول: زيد بن ثابت، علي بن أبي طالب، العلاء بن الحضرمي، عبد الله بن الأرقم الزهري.، حنظلة بن الربيع...

ومن رسائله المشهورة؛ رسالة النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى هِرَقْلَ ملك الروم، وفيها: «بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، مِن مُحمَّدٍ عبْدِ اللهِ ورَسولِه، إلى هِرَقْلَ عَظيمِ الرُّومِ، سَلامٌ على مَن اتَّبَعَ الهُدى، أمَّا بعْدُ؛ فإنِّي أدْعوك بدِعايةِ الإسْلامِ، أسْلِمْ تَسْلَمْ، وأسْلِمْ يُؤْتِك اللهُ أجْرَك مَرَّتَينِ، فإن تَولَّيْتَ فعليك إثْمُ الأريسيِّينَ، ويَا أهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوا إِلَى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنَا وبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ ولَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ولَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَولَّوا فَقُولُوا اشْهَدُوا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ»[1].

رسالة قصيرة بليغة، تحمل دعوةً مباشرة للإيمان بالله دون تهديد، وتفتتح بالسلام والرحمة، مما يعكس بلاغة الدعوة بالحكمة، وبعده -صلّى الله عليه وسلّم- يعتبر خلفاؤه -رضي الله عنه- ولا سيّما عمر بن الخطاب من أشهر المترسلين في صدر الإسلام والخلفاء الراشدين؛ فقد شهدت خلافته مرحلة النضج الحقيقي لفن الترسل الإسلامي، إذ تجاوزت بساطتها الدعوية الأولى لتصبح وسيلةً من وسائل التنظيم والإدارة والرقابة، من أشهر رسائله؛ **رسالته إلى أبي موسى الأشعري في القضاء** لما ولي عليه في البصرة بالعراق، واعتبرها الأدباء قطعة نادرة وخالدة من أدب القضاء على مر الزمان.

هذا نص **الرسالة** بصيغتها المشهورة في كتب التراث، وفيها: «إن القضاء فريضةٌ مُحْكَمة، وسُنَّة مُتَّبَعة، فافهم إذا أُدليَ إليك؛ فإنه لا ينفع تكلُّمٌ بحقٍّ لا نفاذ له، وآسِ بين الناس في وجهك ومجلسك وقضائك؛ حتى لا يطمع شريف في حَيفِك، ولا ييئس في عدلك، والبيّنة على مَن ادَّعى، واليمين على مَن أنْكَرَ، والصلح جائز بين الناس إلا صلحًا أحلَّ حرامًا أو حرَّم حلالًا، ومَن ادَّعى حقًّا غائبًا أو بيّنَة، فاضرب له أمدًا ينتهي إليه، فإن جاء ببيّنَة أعطيته بحقِّه، فإن أعجزه ذلك استحللت عليه القضية؛ فإن ذلك أبلَغُ في العذر وأجلى للعمى، ولا يمنعك من قضاءٍ قضيته اليوم فراجعتَ فيه رأيَك، وهُديت لرشدك- أن تراجع الحقَّ؛ فإن الحقَّ قديم لا يُبطل الحقَّ شيءٌ، ومراجعة الحقِّ خيرٌ من التمادي في الباطل. والمسلمون عُدُول بعضهم على بعض في الشهادات، إلا مجلودًا

[1]- أحمد زكي صفوت: جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، ج: 1، ص: 37- 39.

في حَدٍّ، أو مدرك عليه شهادة الزور، أو ظنينًا في ولاء أو قَرابة؛ فإن الله عز وجل تولَّى من العباد السرائر، وسَتَرَ عليهم الحدود إلا بالبيِّنات والأيمان.

ثم الفَهمَ الفهمَ فيما أُدلي إليك مما ليس في كتابٍ أو سُنَّة، ثم قايسِ الأمورَ عند ذلك، واعرف الأمثالَ والأشباهَ ثم اعمد إلى أحبها إلى الله فيما ترى وأشبهِها بالحقِّ.

وإياك والغضبَ والقلقَ والضجرَ والتأذِّي بالناس عند الخصومة والتنكُّر؛ فإن القضاء في مَواطِن الحقِّ يُوجب اللهُ به الأجر، ويحسن به الذُّخر، فمَن خلصت نيَّتُه في الحقِّ ولو على نفسه، كفاه اللهُ ما بينه وبين الناس، ومَن تزيَّن لهم بما ليس في قلبه شانه اللهُ تعالى؛ فإن الله تبارك وتعالى لا يقبل من العباد إلا ما كان له خالصًا، وما ظنُّك بثوابِ الله في عاجل رِزْقه وخزائنِ رحمته؟ والسلام عليكم ورحمة الله. »[1]

قامت رسالة عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري في القضاء على إرساء مبادئ العدل والمساواة بين الخصوم، والاعتماد على البيّنة، والتثبت في الحكم، والرجوع إلى الحق عند الخطأ، مع التأكيد على النزاهة والصبر ومراقبة الله في الفصل بين الناس، مما جعلها وثيقة تأسيسية في الفكر القضائي الإسلامي. وتتميّز فنيًّا بالوضوح والإيجاز، وقوة العبارة، والترتيب المنطقي للأفكار، والطابع التوجيهي التشريعي، واللغة الجزلة الخالية من التكلف، وهو ما جعلها نموذجًا رائدًا في النَّثر الإسلامي، المؤسس على العدل والحق والمصلحة العامة.

إذا خلاصة ما تقدّم؛ شهد فن الترسل في عصر صدر الإسلام والخلافة الراشدة نقلة نوعية؛ إذ تحولت الرسالة من مجرد أداة تواصل بسيطة إلى وسيلة سياسية وإدارية حيوية لتدبير شؤون الدولة الإسلامية الناشئة. وقد ساهمت عوامل متعددة في ازدهار هذا الفن، أبرزها الحاجة لنشر الدعوة، والتشجيع النبوي على تعلم الكتابة، واتساع الفتوحات التي استلزمت وجود "كُتّاب" لضبط المراسلات بين القادة والولاة. اتسمت رسائل هذا العصر بالوضوح، والإيجاز، والقوة، والبعد عن التكلف اللفظي، مع هيمنة الخطاب الإقناعي والحجاجي المستمد من القرآن الكريم. كما وضعت هذه المرحلة تقاليد فنية راسخة للرسائل، كالبسملة والتأريخ، وتثبيت الأختام للتوثيق الرسمي. ويعد الرسول ﷺ أول المترسلين، وتلاه الخلفاء الراشدون، خاصة عمر بن الخطاب الذي بلغت الرسائل في عهده درجة عالية من النضج التشريعي والإداري. وتظل رسالة عمر إلى أبي موسى الأشعري في القضاء نموذجاً خالداً للإنشاء النثري القائم على العدل، والترتيب المنطقي، والمتانة اللغوية. بهذا، أرسى هذا العصر قواعد الترسل العربي، محولاً إياه من فطرية الجاهلية إلى أداة تنظيمية مؤسسية.

[1]- ابن القيم: إعلام الموقعين عن رب العالمين، ج: 1، ص: 69- 87.

فن الترسل في العصر الأموي

- عوامل تطور وا زدهار الكتابة الفنية في العصر ا الأموي
- أنواع فن الترسل في العصر ا الأموي
- خصائص وسمات فن الترسل في العصر ا الأموي
- عبد الحميد الكاتب (132هـ) وفنّ الترسل ا الأموي
- نموذج تطبيقي؛ رسالة عبد الحميد الكاتب إلى الكتاب

الحصة 10

لعلنا لا نجانب الصواب إذا اعتبرنا أن التطور الفني الذي أصاب أدب الرسائل يرجع إلى نهاية الدولة الأمويَّة، حيث أخذت الكتابة الفنية فيه تتدرج في التأنق و الصنعة والإطناب وإشراق البيان، حتى صارت صناعة فنية لها أصولها وقواعدها، وكان زمامها بأيدي الموالي المثقفين بثقافة عربية واسعة، إضافة إلى ثقافة بعضهم اليونانية والفارسية، كعبد الحميد الكاتب الذي حمل سيف الرسالة، ونزل إلى ميدان الكتابة الفنية؛ ليحقق مكانة سامقة لم يصل إليها غيره في فن الرسالة، عبر تاريخ الأدب العربيّ من الجاهليّة حتى عصره، وربما حتى بعد ذلك.

## 1. عوامل تطور وازدهار الكتابة الفنية في العصر الأموي[1]

وقد تهيأ في هذا العصر من العوامل والمؤثرات ما نهض بهذا الفن وتطوره لعل أبرزها:

بعد أن كانت الرسائل يغلب عليها الإملاء من الخليفة، والنسخ من الكاتب، أخذ الكاتب في هذا العصر يستقل وتظهر شخصيته، ويتطور الأمر« أواخر العصر الأموي حتى نرى "قبيصة بن ذؤيب" يفحص الكتب الواردة على عبد الملك بن مروان، و يقرؤها قبل عرضها على الخليفة»[2].

ويعد هذا التصرف خطوة هامة في تاريخ تطور كتابة الرسائل والعلاقة بين الكتاب والخلفاء، لأن فيه أهمية لشخصية الكاتب واستقلاليته.

فمنذ قيام الدولة الأمويَّة عام (40هـ) إلى عهد الوليد بن عبد الملك؛ تتعدد المكاتبات، وكثرت الدواوين، فأنشأ معاوية- رضي الله عنه- ديوان الرسائل، وديوان الخاتم؛ فديوان الرسائل كانت تصدر عنه رسائل تفيض بيانا و ينظرها جمال الأسلوب وسحر البلاغة، وديوان الخاتم: مهمة هذا الديوان ضبط المعاملات المالية وصيانة الوثائق الهامة، فإذا صدر توقيع من الخليفة بأمر من الأمور أحضر التوقيع إلى ذلك الديوان وأثبتت نسخته فيه ثم يحزم بخيط ويختم بشمع يطبع عليه وهو طري خاتم الخلافة، فإذا فتحت الرسالة قبل أن تصل إلى مرجعها عرف ذلك، إذ لا سبيل إلى فتحها إلا بتمزيق الخاتم.

وفي عهد الملك بن مروان عربت الدواوين الموجودة في فارس والشام، وفي هذه المرحلة تميزت الكتابة بما كانت عليه في صدر الإسلام من الإيجاز والوضوح والسهولة والبساطة، وقلة التكلف والارتجال. ومن أيام الوليد بن عبد الملك إلى نهاية الدولة الأمويَّة، عرفت الكتابة الفنية قفزة نوعية، ففي عهد الوليد بن عبد الملك عربت دواوين مصر، فامتلأت بالعرب وبمن اجادوا العربيّة، وفي عهد هشام بن عبد الملك اشتهر الديوان بالافتتان الذي يرجع إلى "سالم بن عبد الله مولى هشام"، حتى عد احج البلغاء العشرة في تاريخ العرب وأدبهم، والذي تميز

---

[1]- ينظر: نصار حسين: نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، ص: 70/ محمد عبد المنعم خفاجي: الحياة الأدبية عصر بني أمية، ص: 266- 267/ شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي - العصر الإسلامي ص: 465 وما بعدها.

[2]- نصار حسين: نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، ص: 70.

أسلوبه بالازدواج والترادف الصوتي، وكان يتكئ على الحال اتكاء شديدا، ربما لتأثره باليونانية، والذي تخرج على يديه عبد الحميد الكاتب، أنبه كتاب العصر وأشهرهم.

هذا بالإضافة نمو الثقافة العربيّة في هذا العصر؛ دينية وقوامها القرآن الكريم وتفسيره والحديث وروايته والفقه والتشريع، وأدبية قوامها اللغة والشعر والتاريخ والأخبار و الأنساب، وعلمية تمثلت في الطب والمنطق والكيمياء والنجوم و الملل...، كما لا يفوتنا ازدهار حركة الجدل، بين الأحزاب السياسية المتنافرة وبين الفرق الدينية و المدارس الكلامية، بل وبين المسلمين وأصحاب الديانات الأخرى...كان له أثره في تثقيف الكتاب ومرانهم على القول والاستدلال والمناقشة.

## 2. أنواع فن الترسل في العصر الأموي

تنوعت الرسائل في العصر الأموي تبعًا لوظائف الدولة والحياة الاجتماعية والفكرية، ومن أبرز أنواعها:

أ. **الرسائل السياسية:** نهضت الرسائل السياسية في هذا العصر نهضة واسعة، وهي نهضة ترجع إلى سببين: أما السبب الأول فهو كثيرا ممن كانوا يكتبونها يعدون في الذروة من الفصاحة، والبيان لهذا العصر أمثال زياد والحجاج، وقطري بن الفجاءة والمختار الثقفي، وأما السبب الثاني فقيام ديوان الرسائل، وظهور طبقة من الكتاب المحترفين في هذا الديوان، لا في دواوين الخلفاء وحدهم، بل أيضا في دواوين الولاة، وكان قادة الجيوش أيضا يتخذونهم، ليراسلوا عنهم من يريدون مراسلته، أمثال سالم

وعبد الحميد الكاتب. من ذلك الرسالة التي كتبها **سالم** عن الخليفة **هشام بن عبد الملك** إلى واليه على العراق **خالد القسري**، والتي تعد من نماذج **الرسائل السياسية الأمويَّة** التي تُبرز أسلوب الدواوين في التوجيه والإدارة، ومما جاء فيها: « بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: فقد بلغ أمير المؤمنين عنك أمر لم يحتمله لك إلا لما أحبّ من ربّ الصنيعة قبلك، واستتمام معروفه عندك، وكان أمير المؤمنين أحقّ من استصلح ما فسد عليه منك، فإن تعد لمثل مقالتك، وما بلغ أمير المؤمنين... ولو أراد أمير المؤمنين إفسادك، لجمع بينك وبين من شهد فلتات خطلك، وعظيم زللك، حيث تقول لجلسائك: والله ما زادتني ولاية العراق شرفا، ولا ولّاني أمير المؤمنين شيئا لم يكن من قبلي ممن هو دوني يلى مثله، ولعمرى لو ابتليت ببعض مقاوم الحجّاج في أهل العراق في تلك المضايق التي لقى، لعلمت أنك رجل من بجيلة، فقد خرج عليك أربعون رجلا فغلبوك على بيت مالك وخزائنك، حتى قلت: أطعموني ماء! دهشا وبعلا وجبنا، فما استطعتهم إلا بأمان، ثم أخفرت ذمّتك؛ منهم رزين وأصحابه، ولعمرى أن لو حاول أمير المؤمنين مكافأتك بخطلك في مجلسك، وجحودك فضله إليك، وتصغير ما أنعم به عليك، فحلّ العقدة، ونقض الصّنيعة، وردّك إلى منزلة أنت أهلها، كنت لذلك مستحقّا...

واعلم أن ما بعد كتاب أمير المؤمنين هذا أشدّ عليك وأفسد لك، وقبل أمير المؤمنين خلف منك كثير في أحسابهم وبيوتاتهم وأديانهم، وفيهم عوض منك، والله من وراء ذلك.» [1] وكتب عبد الله بن سالم سنة تسع عشرة ومائة.

**ب. الرسائل الاجتماعية:** وعلى نحو ما نشأت الكتابة السياسية الرسمية، ونمت نشأت الكتابة الاجتماعية، أو الشخصية وأخذت في النمو منذ عصر الفتوح، فإن تفرق العرب في البلدان الإسلامية دفعهم دفعا إلى أن يتكاتبوا في مهامهم، وشئونهم الشخصية وفي التهاني والتعزية وفي العظة والعبرة، ويعد عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر (133ه) من أبرز كتابها، من ذلك رسالته التي بعث بها إلى رجل من إخوانه: «أما بعد فقد عاقني الشك في أمرك عن عزيمة الرأي فيك، ابتدأتني بلطف عن غير خبرة، ثم أعقبتني جفاء عن غير ذنب، فأطعمني أولك في إخائك، وأبأسني آخرك من وفائك، فلا أنا في اليوم مجمع لك اطراحًا، ولا أنا في غد وانتظاره منك على ثقة، فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الرأي في أمرك عن عزيمة فيك، فأقمنا على ائتلاف، أو افترقنا على اختلاف، والسلام.» [2]

**ج. الرسائل الدينية:** إذا تركنا الرسائل الاجتماعية الشخصية، والسياسية الرسمية إلى الرسائل الدينية والجدلية، وجدنا أصحابها هم أنفسهم أرباب البيان والبلاغة من الخطباء المفوهين أمثال الحسن البصري، وغيلان الدمشقي.

أما الكتابة الدينية، فقد أصابها ما أصاب الخطابة الدينية من الرقي والازدهار، لسبب بسيط، وهو أن كتابها كانوا هم أنفسهم الذين مرنوا على الخطابة والجدال، والحوار في المسائل الدينية والمذهبية، فأضفوا على كتابتهم نفس الصورة البيانية التي أضفوها على خطابتهم، مما نجده ماثلا في كتابات الحسن البصري، وغيلان الدمشقي وغيرهما من الوعاظ، وأصحاب النحل الذين نهضوا بتمرين اللغة العربيّة على كثير من المعاني الدقيقة موازيين بين معانيهم، وبين ألفاظهم، وما تحتاجه لتأثيرها على وجدان السامع، والقارئ من حلاوة وعذوبة.

من ذلك ما كتب به الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز في صفة الإمام العادل،: « اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصفه كل مظلوم، ومفزع كل ملهوف، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله، الرفيق بها، الذي يرتاد لها أطيب المراعي، ويذودها عن مراتع الهلكة ويحميها من السباع، ويكنفها من أذى الحر والقر. والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده، يسعى لهم صغارًا ويعلمهم كبارًا، يكتسب لهم في حياته، ويدخر لهم بعد مماته،

---

[1]- أحمد زكي صفوت: جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، ج: 2 (العصر الأموي) ، ص: 345- 351.

[2]- الجاحظ: البيان والتبيين، ج: 2، ص: 84- 85.

والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة بولدها، حملته كراها، ووضعته كراها، وربته طفلا، تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة، وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايته.» [1].

## 3. خصائص وسمات فن الترسل في العصر الأموي[2]

أ. ظهور معالم الصنعة في فن الكتابة: حيث الإطالة، والسجع والمجانسة، والمقابلات والتصوير وحسن النسق ولازمة الحال، وتجاوز الكاتب الإقناع إلى الامتاع وكثرة التفاصيل.

ب. البساطة التي تنزل بها إلى مستوى لغة التخاطب لدى العرب في ذلك الزمن، وإن وشاها في بعض الأحيان الجمال الطبيعي، ولكنه لا يخرج بها عن لغة الحديث، فما كانت تهدف إلا إلى إفهام المرسل إليهم مضمونها..

ج. حسن اختيار الألفاظ، وبراعة أداء المعاني، وأناقة صوغ الكلام، مع التبسط في شرح الأغراض، والاسترسال في تفريغ المعاني.

د. مراعاة الايجاز؛ وفي ذلك قال طه حسين: «**هذه الرسائل كانت تكتب مختصرة لا يقصد منها إلا مجرد الأداء في غير تفنن، أو إثارة لجمال فني خاص، ومن هنا كانت هذه الرسائل قصيرة، وجملها صغيرة، توشك أن تكون رموزا ليس فيها هذا التفصيل، أ و المحاولات الفنية التي نجدها عند الشعراء من حيث الألفاظ.**» [3]

هـ. أصبح فن الترسل قبل أن ينقضي العصر الأموي صناعة ذات قواعد وأصول، وأصبح للرسائل مطالع فيها تحميدات تختلف باختلاف مقام الذين تصدر عنهم أو توجه إليهم، ولها خواتيم تختلف بحسب ذلك، وظل الترسل في العصر الأموي في أغلب الأحيان فنا رسميا يتعلق بأمور الدولة.

## 4. عبد الحميد الكاتب (132هـ) وفن الترسل الأموي

يعد عبد الحميد بدون ريب أبلغ كتاب هذا العصر و أبرعهم، وقد سماه الجاحظ في بيانه عبد الحميد الأكبر [4]، ونصح الكتاب أن يتخذوا كتابته نموذجا لهم، وظلت شهرته مدوية على القرون حتى قيل: «فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد.» [5] وفيه يقول ابن النديم (380هـ) «عنه أخذ المترسلون ولطريقته لزموا، وهو الذي سهل سبيل البلاغة في الترسل.» [6]، وقد أجمع كثيرون على أنه أولُ من استخدم التحميدات في

---

[1]- ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ج: 1، ص: 33- 34.

[2]- ينظر: فيصل حسين طحيمر العلي، فن الترسل عند عبد الحميد الكاتب وابن العميد، ص: 42- 43/ ونصار حسين: نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي: 47.

[3]- طه حسين: من حديث الشعر والنثر، ص: 28 .

[4]- الجاحظ: البيان والتبيين، ج: 1، ص: 208.

[5]- الثعالبي: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج3، ص: 183.

[6]- النديم: كتاب الفهرست، ص: 131.

فصول الكتب [1]، وكأنه تأثر في ذلك بتحميدات واصل وغيره من الوعاظ، وقد احتفظ كتاب (المنظوم والمنثور) لابن طيفور بطائفة منها لا تقل كماً ولا كيفاً عن تحميد واصل، صاحب الخطبة المنزوعة الراء [2].

ولا تلفتنا عند عبد الحميد براعته الأدبيّة في صنع رسائله فحسب، وإنما يلفتنا أيضا أنه تحول بطائفة منها إلى رسائل أدبية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، محاكيا في ذلك ما كان يعرفه من رسائل الفرس الأدبيّة و التي أثرت عن الساسانيين والتي يقال إنه كان أحد نقلها إلى العربيّة. وليس معنى ذلك أنه وقف عند النقل والترجمة، فقد مضى يحاكي هذه الرسائل لا محاكاة طبق الأصل وإنما هذه المحاكاة التي تنتهي إلى التمثل وصنع الأعمال الأدبيّة المبتكرة، فقد تحولت الرسائل عنده إلى رسائل أدبية حقيقية تكتب في موضوعات مختلفة من الإخاء وقيادة الحروب و الصيد، وهي لا تكتب في ذلك كتابة موجزة، فلم تعد الكتابة وحدها كافية، بل أصبح أساسا فيها أن تسند بالتفنن في القول وتشعيب المعاني معتمدة على ثقافات مختلفة: أجنبية وعربية. وأخذت تزحم الشعر وتحاول أن تقتحم عليه ميادينه أو على الأقل بعض هذه الميادين، إذ نرى عبد الحميد يجرى قلمه في وصف الخيل والسلاح ووصف الصيد. ودائما تروعنا براعته البيانية، والحق أن عبد الحميد أوفى بالكتابة الأدبيّة في العصر الأموي على كل ما كان ينتظرها من رقي وإبداع فني. [3]

## 5. نموذج تطبيقي؛ رسالة عبد الحميد الكاتب إلى الكتاب:

وسنقف عند رسالته التي وجهها إلى الكتاب، وهذه الرسالة في فكرها وصوغها وأسلوبها ومضمونها من أروع ما سجلته الكتابة العربيّة في مثل هذا الباب.

**أ. صاحب النص:** يعد عبد الكاتب رائد التَّأليف في الكتابة الفنية وضوابطها وما ينبغي على الكاتب اعداده، فرسالته نموذج فريد وفيها نجد مجموعة من الوصايا والارشادات التي تكفل للكتاب النبوغ في عملهم، وتلك الوصايا تمثل خلاصة تجربته في ديوان الرسائل، وعصارة فكره، يقول القلقشندي أن هذه الرسالة « أصل هذه الآداب الذي ترجع إليه، وينبوعها الذي تفجرت منه» [4]. وهو عبد الحميد بن يحيى بن سعيد العامري بالولاء، نشأ في "الأنبار"، ثم احترف التعليم في "الكوفة"، وما لبث أن اتّصل بمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، حتى انقطع إليه، فعظمت منزلته عنده، فكان كاتباً له وصديقاً، وارتقت على يديه صناعة الكتابة، قُتِلَ مع مروان بن محمد سنة 132هـ.

---

[1]- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج: 3، ص: 207.

[2]- ينظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي - العصر الإسلامي- ص: 474.

[3]- ينظر: شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص: 113- 120.

[4]- القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج: 1 ص: 84.

ولعبد الحميد عدة رسائل، ما بين مطولة ومختصرة، منها: رسالته إلى أهله وهو منهزم مع مروان، ورسالة في الشطرنج، ورسالته إلى الكتّاب...[1]

**ب. حول الرسالة:** تأتي هذه الرسالة في المرتبة الثانية من حيث الحجم بعد رسالة عبد الحميد إلى ولي العهد، وذلك فيما وصل إلينا من رسائله، "فالجهشياري" لا يسوغ لنفسه اسقاط شيء منها بالرغم من طولها، يقول: « وجدت لعبد الحميد كتابا كتبه إلى الكتاب، أطال فيه إلا أنه أجاد، فلم أستجز إسقاط بعضه، وكتبت جميعه على طوله، لأن الكاتب لا يستغني عن مثله.»[2]

وهي رسالة عامة ليست موجهة إلى شخص معين أو كاتب بعينه، إنما هي موجهة إلى هذه الطائفة التي أصبح لها كيان واضح في حياة الدولة، وهي رسالة رائدة لكل من خاطب الكتاب بعده، ولم يحدث في تاريخ الكتابة الفنية- فيما وصلنا من نصوصها- أن خوطبت جماعة الكتاب، قبل عبد الحميد بشيء قليل أو كثير مما خاطبهم به، ولذلك فإن رسالته تعتبر بلا جدال رائدة لكل من خاطب الكتاب من بعده حتى عصر القلقشندي، وهذه الرسالة في فكرها وصوغها وأسلوبها ومضمونها من أروع ما سجلته الكتابة العربيّة في مثل هذا الباب.

**ج. مضمون الرسالة** [3]: يوجه عبد الحميد عبر رسالته النصح إلى الكتّاب، ويرسم لهم الطريق الذي يسيرون عليه ليرتفع شأنهم، كما يتحدث عن مكانتهم من الدولة، وعن ألوان الثقافة التي يجب أن يأخذوا أنفسهم بها، فهي دستور واسع لكتاب يصور واجباتهم الخلقية والثقافية.

وقد استهل رسالته بالحديث عن صناعة الكتابة وشرفها، وتبين مكانة أهل تلك الصناعة وما يعول عليهم في انتظام الملك وإصلاح حال الأمة، يقول: « أما بعد: حفظكم الله يا أهل صناعةِ الكتابة، وحاطَكم وأرشدكم...يحتاج إليكم الملك في عظيم ملكه، والوالي في القدر السني والدني من ولايته، لا يستغنى عنكم منهم أحد»

هذه هي مكانة الكاتب كما وضحه عبد الحميد، وتلك هي خطورة المهمة الملقاة على عاتقه، وتلك هي خطورة الكتابة ودورها في تسيير جميع امور الدولة، وعلى الذي يروم ذلك المركز الرفيع أن يكون« ليس أحدٌ من أهل الصناعات كلِّها، أحوجَ إلى اجتماع خِلالِ الخير المحمودة، وخِصال الفضل المذكورة الممدودة، منكم أيها الكتاب.. فإن الكاتب يحتاج من نفسه، ويحتاج منه صاحبُه الذي يثقُ به في مهمات أموره: أن يكون حليماً في موضع الحلم. فهيماً في موضع الحُكم. مِقداماً في موضع الإقدام .محجاماً في موضع الإحجام. مؤثراً للعفاف، والعدل والإنصاف. كتوماً للأسرار، وفياً عند الشدائد...قد نظر في كل فنٍ من فنون العلم فأحكمه، فإن لم يُحكمه أخذ منه بمقدار ما يكتفي به. يعرف بغريزة عقله وحُسن أدبه، وفضل تجربته، ما يردُ عليه قبل وروده، وعاقبةَ ما

---

[1]- ينظر تفاصيل حياته: ابن خلكان: وفيات الأعيان،ج: 3 ص: 219 وما بعدها/ إحسان عباس: عبد الحميد الكاتب وما تبقى من رسائله ورسائل سالم أبي العلاء، ص: 25- 47.

[2]- محمد بن عبدوس الجهشياري: الوزراء والكتاب، ص: 73.

[3]- المرجع نفسه، ص: 74- 79/ القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج: 1، ص: 85- 89.

يصدر عنه قبل صدوره، فيُمدّ لكل أمر عدّته وعَتاده، ويهيئ لكل وجهٍ هيئته وعادته. »، هذه هي جوانب شخصية الكاتب وما ينبغي عليه أن يتحلى به.

أما ثقافة الكاتب ومؤهلاته؛ فإن عبد الحميد يجملها في كل صنوف العلم والآداب، ثم يبدأ في ترتيب ما يحتاج إليه الكاتب بقوله: «ابدءوا بعلم كتاب الله عزوجل، والفرائض، ثم العربيّة، فإنها ثقافة ألسنتكم، وأجيدوا الخط، فإنه حلية كتبكم، واروا الأشعار، واعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب والعجم، وأحاديثها وسيرَها، فإن ذلك معينٌ لكم على ما تسمو إليه هممكم. ولا يضعفنكم نظركم في الحساب، فإنه قوام كتاب الخراج منكم.»

هذه هي مؤهلات الكاتب عند عبد الحميد، أن يتخلق بخلق الكتاب أولا، ثم يتسلح بما يعينه على أداء رسالته من ألوان الثقافة الإسلامية والعربيّة والتاريخية وغيرها، ثم يستغرق باقي رسالته في ارساء دعائم مجتمع الكتاب، وذلك المجتمع الذي يعول عليه في ادارة الدولة واصلاح حال الرعية، فيحثهم على كريم الأخلاق، ويحذرهم من قبيحها. « وارغبوا بأنفسكم عن المطامع: سنيّها ودنيّها وسفاسف الأمور و محاقرها، فإنها مذلة للرقاب، مفسدة للكتاب. ونزّهوا صناعتكم عن الدناءات، واربؤوا بأنفسكم عن السعاية والنميمة، وما فيه أهلُ الجهالات. وإياكم والكبر والصلف والعظمة فإنها عداوة مجتلبة من غير إحنة. وتحابوا في الله عز وجل في صناعتكم، وتواصَوا عليها بالذي هو أليقُ بأهل الفضل والعدل والنُّبل من سلفكم.»

ثم يوصي الكتاب بالإخلاص لصناعتهم وتقديمها على كل أمورهم، فإن هذه الصناعة لا تلين إلا لمخلص؛ « ولا يجوز الرجل منكم، في هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه وبنائه وخدمه وغير ذلك من فنون أمره، قدر صناعته، فإنكم، مع ما فضلكم الله به من شرف صناعتكم، خدم، لا تحتملون في خدمتكم على التقصير، وخزان وحفظة، لا يحتمل منكم التضييع والتبذير»

وقبل أن يختم رسالته وضع بعض اللمسات الفنية والارشادات المتعلقة بإعداد الرسائل وما ينبغي أن تكون عليه، فيقول: « فليقصد الرجل منكم في مجلس تدبيره قصد الكافي في منطقه، وليقصد في كلامه، وليوجز في ابتدائه، وليأخذ بمجامع حججه حجته، فإن ذلك مصلحة لعقله، ومدفعة للتشاغل عن اكثاره، وإن لم يكن الإكثار عادة ثم وضع موضعه في ابتداء كتاب أو جواب عند الحاجة فلا بأس»

وفي الختام أنهى عبد الحميد رسالته بحكمة يقول فيها: « من يلزم النصيحة يلزم العمل»، وعبد الحميد يؤكد أن الأقوال لا تؤكد إلا بالأفعال، وأنها بالدعاء إلى الله أن يتولى الكتاب بالإسعاد والإرشاد.[1]

د. **دراسة الأسلوب:** ويظهر في هذه الرسالة أسلوب عبد الحميد الكاتب، وخصائصه الأدبيّة والتي منها:

[1]- ينظر: نقد النثر في تراث العرب النقدي حتى نهاية العصر العباسي 656هـ، نبيل خالد رباح أبو علي، ص: 54- 55.

أول ما يسجل أن أسلوب الرسالة متطور حسن الصياغة؛ فألفاظها مختارة سهلة واضحة، خالية من الغريب، وتراكيب الرسالة متماسكة الألفاظ متآلفة فيما بينها، ليس فيها تعقيد يمنع من فهم المعنى، وهي خالية من الحشو والابتذال، يغلب عليها المسحة الإسلامية وكلماتها تدل على ذلك.

وقد أحسن الكاتب عرض أسلوبه فاستهل رسالته بكلمة الفصل: أما بعد، ثم الدعاء بالحفظ للكتاب، وختمها بيان محور الرسالة والهدف الأسمى منها، ثم الدعاء.

ويظهر في أسلوب الكاتب الترادف، سواء بالكلمات من ذلك: العدل والانصاف، السعاية والنميمة، السقطة والزلة، واحتماله وصبره، وبالجمل من ذلك: الرخاء والشدة، والحرمان والمواساة والإحسان، والسراء والضراء. والترادف ناتج عن تطويل الرسائل، فالترادف في الأسلوب وتفتيق المعاني في الأفكار يرجعان إلى طول الرسالة.

وظاهرة أخرى في أسلوب هذه الرسالة وهي كثرة استخدام حروف العطف، وهذا الأمر وإن لم يكن مستحسناً إلا أن حاجة الأفكار إلى هذه الحروف جعلتها مقبولة. وقد استخدم الكاتب السجع كقوله: (فتنافسوا يا معشر الكتاب في صنوف الآداب) وقوله: (فإنها مذلة للرقاب مفسدة للكتاب) ولكن الكاتب لم يكثر منه فجاء مناسباً وخفيفاً على السمع، واستعمل الطباق بين (محمدة- مذمة، الرخاء- الشدة، الحرمان- المواساة، الحسن- القبيح.) ومما نلاحظه في الأسلوب تنويع العبارة ما بين دعاء وأمر وتحذير.

كما تميزت هذه الرسالة بالتقسيم داخل الفقرة الواحدة كقوله (من وفائه وشكره، واحتماله وصبره، ونصيحته وكتمان سره، وتدبير أمره.)، ناهيك عن الإطناب الذي تمثل من خلال عرض الأفكار الآتية: مكانة الكتاب ومنزلتهم في الدولة، وأخلاق الكتاب، وكيف يتعامل الكاتب مع ولي أمره وزميله... وغيرها. كما تعددت أساليب الرسالة بين الخبرية والإنشائية التي تتلاءم مع محتوى وهدف الرسالة، مع اختتام الجمل بضمير الجمع المتصل «كم»

إضافة إلى الإيجاز: وأكثر ما ظهر الإيجاز في الخاتمة، مع ملاحظة أن الرسالة خلت من بعض ما عرف عن عبد الحميد من ذلك خلوها من التحميد، وأن الحال لم يأت إلا نادرا.

شهدت الكتابة الفنية في العصر الأموي تطوراً ملحوظاً، حيث تحولت الرسائل من مجرد أداة إيصال بسيطة إلى صناعة أدبية رفيعة لها قواعد وأصول، مدفوعة بظهور ديوان الرسائل واستقلال شخصية الكاتب. وقد تنوعت أغراضها لتشمل السياسية، والاجتماعية، والدينية، متأثرة باتساع الثقافة وتعدد المدارس الفكرية والسياسية. ويعد عبد الحميد الكاتب الرائد الأبرز لهذا العصر، إذ نقل فن الترسل إلى مستوى "الرسائل الأدبية"، مرسخاً تقاليد فنية جديدة كاستخدام التحميدات. تميز الأسلوب الأموي في بداياته بالبساطة والوضوح، ثم اتجه نحو الإطناب، والتأنق في الصياغة، واستخدام المحسنات البديعية كالسجع والترادف لخدمة الإقناع والإمتاع. وتجسد "رسالة عبد الحميد إلى الكتاب" دستوراً أخلاقياً ومهنياً متكاملاً، حيث جمعت بين

جزالة اللفظ، وعمق الفكر، وتنوع الأساليب الإنشائية. وبذلك، مهّد العصر الأموي الطريق بوضعه لبنات الكتابة الفنية التي استلهمها الأدباء في العصور اللاحقة، جاعلين منها ميداناً للإبداع والتمكن البلاغي.

# فن الترسل في العصر العباسي

- عوامل تطور وا زدهار فن الترسل في العصر العباسي
- موضوعات فن الترسل في العصر العباسي
- سمات وخصائص فن الترسل في العصر العباسي

الحصة 11

يعد العصر العباسي العصر الذهبي للكتابة عامة، ولأدب الترسل على وجه الخصوص، فقد ارتقى فنّ الترسّل من وسيلةٍ وظيفيةٍ للتواصل الإداري إلى فنٍّ نثريٍّ رفيع يجمع بين الدقّة التنظيمية والجمال التعبيري، ويعكس مستوى التقدّم الحضاري الذي بلغته الدولة العباسية.

## 1. عوامل تطور وازدهار فن الترسل في العصر العباسي:

تهيّأت لفن الترسل في هذا العصر، جملة من العوامل الحضارية والسياسية والثقافية، لكي ينمو ويزدهر، ويمكن إجمال أهمّها فيما يأتي:[1].

### أ. الاستقرار السياسي و اتساع الدولة:

أدّى اتساع رقعة الدولة العباسية؛ والتي امتدّت من تخوم الصين شرقًا إلى أطراف المغرب غربًا، إلى تضاعف الحاجة إلى مراسلات منظّمة تتولّى ربط أطراف الدّولة المتشعبة بمركز الخلافة، وتنظيم المكاتبات بين الخليفة و الولّاة والقادة، كما فرض هذا البعد الجغرافي وتنوع الشعوب الخاضعة للدولة إلى ازدياد الحاجة إلى كتّابٍ بارعين يجودون الأسلوب ويهذّبون الصياغة، ليتحول الترسّل إلى وظيفة إدارية مركزيّة تقوم عليها شؤون الدّولة.

### ب. كثرة الدواوين وتنوعها:

شهد العصر العباسي تعدد وتنوعًا في الدواوين الإدارية، فاستُحدِثت دواوين متخصّصة تُعنى بالمال والجند والبريد والرسائل، كالديوان الخراج، وديوان النفقات، وديوان للضياع، وديوان الجيش، وديوان للرسائل وديوان الخاتم، وفوق كل هذه الدواوين ديوان الزمام الذى يشرف عليها. وكان ذلك عاملا قويّا في نشاط الكتابة الفنية حين أضحت الدواوين ميدانا لإظهار براعة الكتاب وتميزهم الفني، مما جعل التنافس على النهوض بالكتابة فيها يبلغ الذروة.

### ج. ازدهار الثقافة والحياة الفكرية:

تميّز العصر العباسي بارتقاء حضاري عظيم ساهم في تغيير الذوق الأدبيّ وتعميق القدرة على التعبير الدقيق المنظّم، خاصة من الناحية العقلية والفكرية، والانفتاح على الثقافات الأخرى؛ ونشاط حركة الترجمة، فقد أسهم الاحتكاك بالحضارتين الفارسية والهندية واليونانية، "وكان تأثُّرهم عميقا بالثّقافات المترجمة" [2] في إدخال أساليب جديدة في الإنشاء والحِجاج وترتيب المعاني، فازداد فن الترسل عمقًا فكريًا وتنوعًا بلاغيًا.

---

[1]- ينظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي - العصر العبّاسي الأول-، ص: 550- 551.

[2]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 1.

### د. تحول الكتابة إلى حِرفةٍ ومهنة في العصر العباسي:

وكان من أبرز مظاهر نضج الحياة الإدارية والثقافية؛ إذ لم تعد الكتابة عملًا عارضًا يقوم به بعض المتعلّمين، بل غدت مهنةً قائمة على التخصّص والدربة والمعرفة الواسعة باللغة والبلاغة وأساليب الإنشاء. وقد أدّى هذا التحول إلى ظهور طبقة من الكُتّاب المحترفين الذين تنافسوا في تجويد الرسائل وإحكام بنائها الفني، حتى غدا الترسّل مهنة تُكتسب بالدُّربة، لا مجرد ملكة فطرية، وارتقى إلى تقليد أدبي تُدرّس نصوصه ويُقتدى بأعلامه، وأصبح للكتّاب مدارس وأساليب، مثل: مدرسة عبد الحميد الكاتب، ومدرسة الجاحظ، ومدرسة ابن العميد.

## 2. موضوعات فن الترسل في العصر العباسي:

تنوع موضوعات فن الترسل في العصر العباسي؛ فلم يعنى فقط بتنظيم شؤون الدولة من رسائل سياسية وإدارية فقط، بل شمل رسائل الإخوانيات وصولا إلى الرسائل الأدبيّة، مما وسّع مجالات فنّ الترسل وأغنى أساليبه. وأشهر أنواع فن الترسل في العصر العباسي الآتي:[1]

### أ. الترسّل الدّيواني:

لعل أول ما يمكن أن يلاحظ حول موضوعات الرسائل الديوانية لهذا العصر تناولها تصريف أعمال الدولة وما يتصل بها من تولية الولاة، وأخذ البيعة للخلفاء وولاة العهود، ومن الفتوح والجهاد ومواسم الحج والأعياد والأمان وأخبار الولايات وأحوالها في المطر والخصيب والجدب، وعهود الخلفاء لأبنائهم، ووصاياهم ووصايا الوزراء والحكام في تدبير السياسة والحكم، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى أن الكتابة الديوانية بلغت الذروة المنشودة في عصر المأمون، فقد تكاثر الكتاب البارعون وتكاثرت آثارهم، واتضح فيها نزعة قوية إلى العناية بالجمال الفني والتدقيق في المعاني أشد التدقيق.

ومن النصوص التي تعالج موضوع البيعة لولي العهد، رسالة المأمون التي علن فيها اختيار علي بن موسى الرّضي وليّا لعهده وخليفة من بعده: «أما بعد: فإن الله عزّ وجلّ اصطفى الإسلام دينا، واصطفى له من عباده رسلا دالّين عليه، وهادين إليه، يبشّر أولهم بآخرهم، ويصدّق تاليهم ماضيهم، حتى انتهت نبوة الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم، ... جعل قوام الدين، ونظام أمر المسلمين، بالخلافة وإتمامها وعزّها والقيام بحق الله فيها، بالطاعة التي تقام بها فرائض الله وحدوده وشرائع الإسلام وسننه، ويجاهد بها عدوه، فعلى خلفاء الله طاعته فيما استحفظهم واسترعاهم من دينه وعباده، وعلى المسلمين طاعة خلفائهم ومعاونتهم على إقامة حق الله وعدله، ... فحقّ على من استخلفه الله في أرضه، وأتمنه على خلقه، أن يؤثر ما فيه رضا الله وطاعته، ويعدل فيما

---

[1]- ينظر: نعمات عوض الطراونة: ديوان الرسائل في العصر العباسي الأول ونشاطه الأدبي، ص: 75- 145.

الله واقفه عليه، وسائله عنه، ويحكم بالحق ويعمل بالعدل فيما حمّله الله وقلّده... ومفزعا في جمع ألفتهم، ولمّ شعثهم، وحقن دمائهم، والأمن بإذن الله من فرقتهم، وفساد ذات بينهم واختلافهم... أنصب بدنه، وأسهر عينه، وأطال فكره فيما فيه عزّ الدين، وقمع المشركين، وصلاح الأمة ونشر العدل، وإقامة الكتاب والسنة... عالمين بإيثار أمير المؤمنين طاعة الله على الهوى في ولده وغيرهم، ممّن هو أشبك به رحما، وأقرب قرابة، وسمّاه«الرّضىّ »إذ كان رضيّا عند أمير المؤمنين. فبايعوا معشر بيت أمير المؤمنين ومن بالمدينة المحروسة من قواده وجنده وعامّة المسلمين« الرّضىّ » من بعده، على اسم الله وبركته وحسن قضائه لدينه وعباده، بيعة مبسوطة إليها أيديكم، منشرحة لها صدوركم...» [1].

## ب. الترسُّل الإخواني:

نمت الرسائل الإخوانية في العصر العباسي نموا واسعا، إذ تهيّأت فيه بيئة ثقافية خصبة، وازدهرت خلاله الحركة العلمية والأدبيّة، وتكاملت فيه المدارس اللغوية والبلاغية. والمقصود بالرسائل الإخوانية؛« تلك التي تصور عواطف الأفراد ومشاعرهم، من رغبة ورهبة ومن مديح وهجاء ومن عتاب واعتذار واستعطاف، ومن تهنئة واستمناح ورثاء أو تعزية» [2]، وكانت هذه العواطف تؤدّى في العصر الأموي بالشعر، وكان من النادر أن تؤدى بالنَّثر، أما في هذا العصر فقد زاحم فيها النَّثر الشعر بمنكب ضخم، وأتاح له ذلك أمران:

أولا: ظهور طبقة ممتازة من الكتّاب الذين يجيدون فيه إجادة رائعة، وخاصة من كان منهم يكتب في الدواوين، إذ كانوا يأخذون أنفسهم بثقافة واسعة وكانوا يعنون بتحبير كلامهم وتجويده وحشد كل ما يمكن فيه من عناية فنية، على نحو ما مر بنا آنفا. والأمر الثاني: مرونة النَّثر ويسر تعابيره وقدرته على تصوير المعاني بجميع تفاريعها قدرة لا تتاح للشعر لارتباطه بقواعد موسيقية معقدة من وزن وقافية. وقد طوع هؤلاء الكتاب الديوانيون أو السياسيون أساليبه ومرّنوها على أن تحمل كثيرا من المعاني الجديدة غير المألوفة.

وفي هذا العصر، اتّسعت موضوعات الرّسائل الإخوانيّة حتى باتت تشمل مختلف شؤون الحياة الاجتماعيّة، فظهرت رسائل التّهنئة بالمناسبات الدينيّة والدّنيويّة، ورسائل التّعزية والمواساة، ورسائل الشّكر والعتاب والاستعطاف، بل تجاوز الأمر ذلك ليشمل رسائل ذات طابع وجدانيّ وروحيّ وفكريّ، ممّا يعكس النّضج الثّقافيّ الذي عاشه المجتمع العباسيّ.

ومن روائع الرسائل الإخوانية التي حفل بها العصر العباسي؛ رسالة للحسن بن وهب كتب بها إلى المتوكل فى عيد نيروز، يهنئه بالعيد، وكلها دعاء وابتهال، يقول: « أسعدك الله، يا أمير المؤمنين، بكر الدهور، وتكامل السرور، وبارك لك في إقبال الزمان، وبسط بين خلافتك الآمال، وخصك بالمزيد، وأبهجك بكل عيد، وشد بك أزر التوحيد، ووصل لك بشاشة أزهار الربيع المونق، بطيب أيام الخريف المغدق، وقرب لك التمتع بالمهرجان

---

[1]- أحمد زكي صفوت: جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، ج: 3، ص: 340- 342.

[2]- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي - العصر العبّاسي الأول- ، ج: 3، ص: 491.

والنيروز، بدوام بهجة أيلول وتموز، وبمواقع تمكين لا يجاوزه الأمل، وغبطة إليها نهاية ضارب المثل؛ وعمر ببلائك الإسلام، وفسح لك في القدرة والمدة، وأمتع برأفتك وعدلك الأمة، وسر بلك العافية، ورداك السلامة، ودرعك العز والكرامة، وجعل الشهور لك بالإقبال متصدية، والأزمنة إليك راغبة متشوقة، والقلوب نحوك سامية، تلاحظك عشقاً، وترفرف نحوك طرباً وشوقا »[1].

وتبرز رسائل العتاب، بوصفها ظاهرة اجتماعية وإنسانية؛ فحيث تكون صداقة وإخوان، يكون العتاب، وهو من أكثر الموضوعات لصوقًا بفن الإخوانيات. ومن ذلك قول أبو الفضل الميكالي معاتبًا صاحبه بأجمل ما يوحي الرفق والحنان: « كتابي، وأنا أشكو إليك شوقًا لو عالجه الأعرابي لما صبا إلى رمل عالج، أو كابده الخِلّ لانثنى على كبدٍ ذات حُرَقٍ ولواعج، وأذم زمانًا يفرّق فلا يُحسن جمعًا، ويخرق فلا ينوي رقعًا، ويوجع القلب بتفريق شمل ذوي الوداد، ثم يبخل عليهم بما يشفي الصدور والأكباد، قاسي القلب فلا يلين لاستعطاف، جائر الحكم فلا يميل إلى إنصاف، وكم أستعدي على صروفه وأستنجد، وأتلظّى غيظًا عليه.» [2]

وتُعدّ رسائل الاستعطاف من أرقى الرسائل الإخوانية؛ ولعل رسالة استعطاف لم تشتهر في هذا العصر كما اشتهرت رسالة إبراهيم بن سيابة الشاعر التي استعطف بها يحيى بن خالد البرمكي، وكان قد أنكر منه شيئًا، فكتب إليه يترضاه: « للأصيد الجواد، الوارى الزناد، الماجد الأجداد، الوزير الفاضل، الأشمّ الباذل، اللّباب الحلاحل، من المستكين المستجير، البائس الضرير؛ فإني أحمد الله ذا العزة القدير، إليك وإلى الصغير والكبير، بالرحمة العامة، والبركة التامة. أما بعد، فاغنم واسلم، واعلم إن كنت تعلم، أنه من يرحم يُرحم، ومن يحرم يُحرم، ومن يحسن يغنم، ومن يصنع المعروف لا يعدم، وقد سبق إليّ، تغضّيك عليّ، واطراحك لي، وغفلتك عني، بما لا أقوم له ولا أقعد، ولا أنتبه ولا أرقد، فلست بحي صحيح، ولا بميت مستريح، فررت بعد الله منك إليك، وتحملت بك عليك...» [3]

ويقول الجاحظ إن عامة أهل بغداد كانوا يحفظون هذه الرسالة، إعجابًا ببلاغتها، وهي بلاغة تردّ إلى ما أجرى فيها ابن سيابة من هذا السجع الرشيق الذي يدل بوضوح على أن العبارات كانت طيعة على لسانه، بحيث يتصرف فيها كما يريد دون أن يستعصى عليه منها شيء، حتى مع ما اختاره لها من ممرّات السجع ودروبه الضيقة.

### ج. الترسُّل الأدبيّ:

---

[1]- الجاحظ: المحاسن والأضداد، دار ومكتبة الهلال، بيروت- لبنان، 1423هـ، ص: 323.

[2]- الحصري: زهرة الآداب ثمرة الألباب، ص: 189.

[3]- الجاحظ: البيان والتبيين، ج: 3، ص: 147.

الترسّل الأدبيّ هو امتداد وتطور للترسّل الإخواني، إذ انتقل من البساطة والعفوية إلى الصياغة الفنية الراقية، وهي كما قال شوقي ضيف: «التي تتناول خصال النفس الإنسانية وتصور أهواءها وأخلاقها وتوضح لها طريقها إلى الخير، حتى لا تسقط في مهاوى الشر»[1].

وقد تفنّن الكتّاب في تطوير الرسائل الإخوانية والارتقاء بها، حتى تحولت تدريجيًا إلى رسائل أدبية خالصة، حيث عملوا على تنميتها والاعتناء بأسلوبها، فغدت رسائل بديعة تجمع بين صدق التعبير وجمال الصياغة، «تدخل في الأدب، وتقبل التّخييل، والصّور البيانيّة، و الصّنعة البديعيّة، وتتحمّل الاقتباس من المنثور وتنافس الشّعر في جلّ أغراضه» [2].

ويُعدّ عبد الله بن المقفع (142هـ) من الذين أصلوا لفنّ الترسّل الأدبيّ؛ إذ ترجم عن الفارسية كثيرًا من الرسائل الأدبيّة التي تتصل بالأخلاق وسلوك الناس مع أولي الأمر في الحياة العامة، كما تناولت قضايا السياسة وتدبير الحكم، ولا سيما ترجمته لكتاب كليلة ودمنة .وقد كان لذلك أثرٌ واضح في الكتّاب الذين جاؤوا بعده، إذ أخذوا يحاكون أسلوبه ويقتدون به، وهو ما يدلّ على أنّ الكتّاب في هذا العصر قد عرفوا الرسائل الأدبيّة التي لم تقتصر على النصح والإرشاد، بل اتجهت أيضًا إلى التفكّه والترويح عن النفس.

## 3. سمات وخصائص فن الترسل في العصر العباسي

امتازت الرسائل في العصر العباسي بمقام رفيع في فن الكتابة، مع الإيجاز البليغ، والصور الأدبيّة المتألقة، والثراء اللفظي، واللغة العذبة السلسة، وبدت جمالية الرسائل جلية لكل مطلع عليها. وأبرز سمات فن الترسل في العصر العباسي كالآتي:

### أ. من الناحية البِنائيّة الفنيّة:

قامت رسائل العصر العباسي – من حيث استهلال الرسالة واختتامها – على بناء تقليديّ متوارث؛ إذ يبدأ عادةً بالبسملة، ثم بالصلاة على النبي ﷺ، يلي ذلك الانتقال إلى ذكر المُرسَل إليه بصيغة تليق بمكانته ومقامه، مع تضمين كلمات الدعاء والثناء التي تُكسب المقدّمة طابعًا أدبيًا وتعبيريًا خاصًا.

وتختتم الرسالة بأسلوب حسن يليق بمقام المرسل والمرسَل إليه على حد سواء، يقول القلقشندي: « واعلم أن ختم الكتاب مما يُعتنى به، فيختم بما يليق بالحال من ألفاظ السلام والدعاء، وبما تُعرف به نهاية الرسالة، وقد جرى الاصطلاح على أن يُذكر التاريخ آخره، ليكون علامةً على تمامه» [3]

### ب. تفنّن كُتّاب العصر العباسي طويلًا في التحميدات التي تُصدَّر بها الرسائل:

---

[1]- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي - العصر العبّاسي الأول- ، ج: 3، ص: 502.

[2]- محمد مسعود جبران، في فنون النَّثر الأدبيّ في آثار لسان الدّين بن الخطيب، ص 149- 150.

[3]- أبو العبّاس القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج1، ص 234.

وهي التي وضع قواعدها عبد الحميد الكاتب، ورسخها المترسلون العباسيون مثل ابن المقفع وابن الزيات، علامة على البلاغة، معتمدين على الإطناب، السجع، والازدواج، والتوازن بين الجمل لتعظيم الشأن. من ذلك تحميد لإبراهيم بن العباس في فتح: «أما بعد، فالحمد لله الذى حمد نفسه، وفرض حمده على خلقه، وأعزّ دينه، وأكرم بطاعته أولياءه، وأكرم طاعته بأوليائه فجعل جنده منهم المنصورين، وحزبه منهم الغالبين ... والحمد لله المعزّ لدينه، المظهر لحقه، الناصر لخلفائه، الممكّن لحزبه، المنتقم بهم ممن صدف عنه، مؤيّدا دينه بالنصر، ليظهره على الأديان، وحقّه بالعز...» [1]

**تحميد لسعيد بن حميد في فتح عن وصيف:** « أما بعد، فالحمد لله الحميد المجيد، الفعّال لما يريد، الذى خلق الخلق بقدرته، وأمضاه على مشيئته، ودبّره بعلمه، وأظهر فيه آثار حكمته التي تدعو العقول إلى معرفته، وتشهد لذوى الألباب بربوبيّته، وتدلّ على وحدانيته...» [2]

### ج. الاقتباس والتضمين:

يشيع الاقتباس والتضمين في متن الرسائل في عصر المماليك، ويأتي في مقدمتها القرآن الكريم، إذ حرص الكتاب على تزيين رسائلهم بالآيات القرآنية الكريمة، واقتباسهم منها، مما أضفى على رسائلهم الرفعة والجزالة، وساعدهم على تأكيد أفكارهم وتأييدها، وقد اتخذ الكتاب عدة صور في اقتباسهم من القرآن، أبرزها اقتباس آية واحدة أو أكثر وتضمينها الرسالة مع دقة متناهية في وضع الآيات في مواطنها الملائمة لمعاني، &وهي الصورة الأكثر شيوعا واستعمالا؛ من ذلك رسالة الخميس لأحمد بن يوسف التي كتبها للمأمون؛وهي نوع من الرسائل يصدر من البيت العباسي يكتبها أبلغ كاتب في الدولة لتوطيد أركان حكمهم، في عهد كل خليفة من أوائل الخلفاء العباسين، في تأييد الدعوة العباسية عامة، وأن أولى الناس بولاية خلافة رسول الله صلى الله عليه وسلم بنو العباس عمه ووارثه من بعده، وفى تأييد الخليفة الحاضر خاصة، والإشادة بذكره، وتعداد مناقبه ومآثره وأنه أولى أهل بيته بالخلافة، يقول: « أما بعد: فالحمد لله القادر القاهر، الباعث الوارث، ذي العزّ والسلطان، والنور والبرهان، فاطر السموات والأرض وما بينهما، والمتقدّم بالمنّ والطّول على أهلهما...فقال عز وجل: «قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى» ودلّ بما أخبر به وأظهره من تطهيره إياهم، وإذهابه الرّجس عنهم على اصطفائه لهم، فقال تعالى: «إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ويُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً» وكان مما أوجب لهم به حقّ الوراثة في محكم تنزيله قوله تعالى «وأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَولى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ» ثم قرن طاعتهم بطاعته فقال: «أَطِيعُوا اللَّهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ» وأحبّهم من النّباهة والصّيت، بالمحلّ الذى أعلى به أمرهم، ورفع به

---

[1]- أحمد زكي صفوت: جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، ج: 4 . ص: 156.

[2]- المرجع نفسه، ج: 4 .ص: 257.

ذكرهم، لما أحبّ من التبيين في الدلالة عليهم، والهداية إليهم، فإنه يقول عزّ وجل: «يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ ولا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ»... [1]

كما ظهر الاستشهاد بالشعر في رسائل العصر العباسي قويًا، فزادها تأثيرًا وإقناعا، ومن ذلك أن أبو جعفر المنصور استهل إحدى رسائله إلى عبد الله بن الحسن ببيت من شعر عمرو بن معد يكرب يقول فيه: «أريد حياته ويريد قتلي ... عذيرك من خليلك من مراد»، وهو استشهاد يعكس حدة الصراع ويقوي المعنى المقصود. وقد جاء رد عبد الله بن الحسن بأسلوب مماثل، إذ استشهد بالشعر قائلاً:

**«وكيف أريد ذاك و أنت مني ... وزندك حين تقدح من زنادي**

**وكيف أريد ذاك و أنت مني ... بمنزلة النياط من الفؤاد؟»** [2]

فكان هذا التبادل دليلاً على براعة الطرفين في توظيف الشعر داخل الرسائل، بما يخدم أغراضهم ويكسب خطابهم قوة تأثير وعمقًا بلاغيًا.

ويظهر الاستشهاد بالشعر واضحًا أيضًا عند الجاحظ، إذ كتب إلى بعض إخوانه في ذم الزمان، فضمّن رسالته أبياتًا شعرية تعبّر عن حاله وتُجسّد معاناته، فقال: « ووجدنا الشّعر ناطقا على الزمان، ومعربا عن الأيام حيث يقول:

**تحامق مع الحمقى إذا ما لقيتهم ... ولا قهم بالجهل، فعل أخي الجهل**

**وخلّط إذا لاقيت يوما مخلّطا ... يخّلط في قول صحيح وفى هزل**

**فإني رأيت المرء يشقى بعقله ... كما كان قبل اليوم يسعد بالعقل»** [3]

ويُبرز هذا الاستشهاد قدرة الكاتب على توظيف الشعر للتعبير عن تجربته وإضفاء بعدٍ حكمي وتأملي على رسالته، مما يزيدها تأثيرًا وعمقًا أدبيًا.

### د. مظاهر الصنعة:

العصر العباسي هو عصر البديع؛ حيث ظهرت أساليب جديدة في الزخرفة اللفظيّة، حيث ازدهر السّجع والطّباق والجناس والمقابلة، وظهرت الرّغبة في تنسيق الفقرات وترتيب الكلمات وتزيين الرسالة، أصبح للكاتب القدرة على الجمع بين جمال اللفظ و إحكام المعنى، يقول شوقي ضيف: « ازدهرت صنعة البديع في العصر العباسي، فمال الكتّاب إلى تنميق الألفاظ وتزويق العبارات، وجرى الترسّل مجرى البديع في السجع والجناس

---

[1]- أحمد زكي صفوت: جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، ج: 3 .ص: 318، 322.

[2]- المرجع نفسه، ج: 3 .ص: 76- 77.

[3]- المرجع نفسه، ج: 4، ص: 50- 51.

والموازنة، حتى غدا الكاتب يُعنَى بزخرف القول عناية تُضاهي عناية الشاعر بديباجة شعره، فارتقى الذوق الأدبيّ واتّسعت ضروب المحسنات في الرسائل.»[1]

يقول الجاحظ في الرسالة السابق الذكر: « كتبت إليك وحالي حال من كثفت غمومه، وأشكلت عليه أموره، واشتبه عليه حال دهره، ومخرج أمره، وقلّ عنده من يثق بوفائه، أو يحمد مغبّة إخائه، لاستحالة زماننا، وفساد أيامنا، ...إن زلّ قيل حكم، وإن أخطأ قيل أصاب... فهذا دليل أن الطّلاح، أجدى من الصلاح، وأن الفضل قد مضى زمانه، وعفت آثاره، وصارت الدائرة عليه، كما كانت الدائرة على ضده، ووجدنا العقل يشقى به قرينه، كما أن الجهل والحمق يحظى به خدينه، ووجدنا الشّعر ناطقا على الزمان، ومعربا عن الأيام» [(2)]

تتجلّى مظاهر الصنعة الأدبيّة في رسالة الجاحظ في شكواه من الزمان، حيث لم يلجأ إلى الزخرف اللفظي لمجرد التزيين، بل وظّفه لخدمة المعنى وإيصال تجربته الشعورية بعمق وتأثير. فقد اعتمد على **السجع** في مثل قوله: «حال دهره، مخرج أمره» و« من يثق بوفائه، أو يحمد مغبّة إخائه»، مما أضفى جرسا موسيقيا وانسجاما في العبارة. كما يظهر **التوازن** في قوله: «استحالة زماننا، فساد أيامنا» و« ناطقًا على الزمان، ومعربًا عن الأيام»، حيث تتقابل التراكيب في نسق متساو يعزز الإيقاع والمعنى. ويبرز كذلك **الطباق** في مثل: «أخطأ – أصاب»، «الطلاح – الصلاح»، و«يشقى – يحظى»، وهو ما يوضح المفارقة ويقوي الدلالة. وهكذا جاءت الصنعة عند الجاحظ وسيلة فنية متكاملة لتحقيق بلاغة النص، وإبراز رؤيته النقدية للزمان بأسلوب يجمع بين الفكر والأدب.

### هـ. التصوير الفني والخيال:

استعان كتّاب العصر العباسي بالخيال في استمالة النفوس، لما له من قدرة على تأليف الصور وإبراز المعاني بأساليب جديدة ومؤثرة، فتنوعت بذلك صورهم الفنية القائمة على التشبيه والاستعارة والكناية، بغية التأثير في المتلقّي، وتقوية المعنى في نفسه، وإضفاء طابع جمالي على الخطاب، يجعل الرسالة أكثر حيوية وإقناعًا، ويقرّب الفكرة إلى الذهن في صورة محسوسة نابضة بالحياة.من ذلك رسالة **يحيى البرمكي** إلى هارون الرشيد: «من شخصٍ أسلمتْه ذنوبُه وأوثقتْه عيوبُه، ورفضَه صديقه، ومالَ به الزمان، ونزل به الحدثان، فحلَّ في الضّيق بعد السّعة، وعالج البؤس بعد الدّعة، وافترش السّخط بعد الرضا، واكتحل السّهاد بعد الهجود، ساعتُه شهر، وليلتُه دهرٌ، قد عاين الموت، وشارف الفوتَ، جزعًا لموجدتك يا أمير المؤمنين وأسفًا على ما فات من قربك [(3)].

تتجلّى الصور الفنية في رسالة يحيى البرمكي إلى هارون الرشيد من خلال توظيف التشبيه والاستعارة توظيفًا مؤثرًا يعكس حالته النفسية، إذ اعتمد على **الاستعارة** في قوله «أسلمته ذنوبه، وأوثقته عيوبه» فصور

---

[1]- شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، القاهرة، ط5، (د.ت) ، ص 112.

[2]- أحمد زكي صفوت: جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، ج: 4، ص: 50- 51.

[3]- ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ج: 4، ص 191- 192.

الذنوب والعيوب كأنها كائنات حيّة تقيده وتتحكم في مصيره، كما تظهر **الاستعارة** في «مال به الزمان» حيث جعل الزمان قوة تدفعه وتصرعه.

أما **التشبيه** فيتجلى ضمنيًا في قوله «ساعته شهر، وليلته دهر» إذ يشبّه شدة معاناته بطول الزمن، فيوحي بامتداد الألم وثقله، وكذلك في «عاين الموت وشارف الفوت» حيث يصور قربه من الهلاك كأنه يراه رأي العين. وقد أسهمت هذه الصور في تجسيد المعاني وتجعلها محسوسة، مما زاد من قوة التأثير وعمق التعبير في الرسالة، ومن الكنايات البليغة الماتعة، كتب **العتابي** إلى بعض أهل السلطان: « أما بعد، فإن سحائب وعدك قد أبرقت، فليكن وبلها سالماً من علل المطل، والسلام»[1].

وقد استخدمت هذه الكناية للمطالبة بإنجاز الوعد وتجنب التأخير والمماطلة (المطل .(تصف العبارة الوعد بـ "السحائب" التي أبرقت (أظهرت بوادر الوفاء)، وتطلب أن يكون "وبلها" (المطر/ التنفيذ) خالصاً من علل التأخير، وتعد مثالاً رفيعاً على البلاغة في طلب الحاج.

**والجدير بالذّكر أنّ الرسائل الإخوانيّة** لم يشترط النقّاد في مضمونها وبأسلوبها وبنائها شروطا دقيقة ملزمة، وإنّما أطلقوا العنان للكُتَّاب للتّعبير عن خواطرهم ومشاعرهم من غير قيد، لأنّه ليس بين الإخوان ما يدعو إلى التكلّف في الخطاب، ممّا جعل النقّاد يفشلون في وضع قواعد وضوابط ملزمة لكتابة الرّسائل الإخوانيّة، كما بيّنه أحمد بدوي قائلا: « وقد حاول النقّاد أن يضعوا معالم يهتدي بها الكُتَّاب في كلّ ضرب من ضروب الرّسائل الإخوانيّة، ولكنّهم في كثير من الأحيان يعترفون بالعجز عن وضع هذه المعالم بدقّة»[2].

يُعد العصر العباسي العصر الذهبي لفن الترسل، حيث تحول من وظيفة إدارية إلى فن نثري رفيع، مدفوعاً بالاستقرار السياسي، وتعدد الدواوين، والازدهار الثقافي الناتج عن حركة الترجمة والانفتاح الحضاري. لم تعد الكتابة ملكة فطرية بل حرفة تخصصية قائمة على الدربة والمدارس البلاغية، مما أدى إلى تنوع أغراضها بين ديوانية رسمية، وإخوانية وجدانية، وأدبية فكرية. تميزت الرسائل العباسية ببناء فني متقن يبدأ بالتحميدات وينتهي بأدعية التوثيق، مع عناية فائقة بالإيجاز البليغ، والاقتباس القرآني، والاستشهاد الشعري لتعميق الإقناع. كما اتسمت بظهور مظاهر "الصنعة البديعية" كالسجع والجناس، وتوظيف الخيال والصور البيانية لتجسيد المعاني، مما جعل الرسالة تضاهي الشعر في جمالها وديباجتها. برز في هذا العصر كُتّاب محترفون أسسوا لمدارس فنية كبرى، جعلت من الترسل وسيلة أدبية تتسم بالثراء اللغوي والعمق الفكري. وبفضل هذه التطورات، أصبحت الرسائل في هذا العصر دستوراً أدبياً وتاريخياً يعكس نضج الذوق والقدرة العالية على التعبير في مختلف شؤون الحياة.

---

[1]- ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ج: 1، ص: 11.

[2]- أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب، ص 32.

# فن الترسل في عصر المماليك

- عوامل تطور وا زدهار فن الترسل في عصر المماليك
- أشهر الكتاب ونماذج من ترسلهم في عصر المماليك
- موضوعات فن الترسل في عصر المماليك
- سمات وخصائص فن الترسل في عصر المماليك

الحصة 12

على عكس فنّ الخطابة، عرف فنّ الترسّل في عصر دولة المماليك تطورًا ملحوظًا، إذ لامست رسائله مختلف مظاهر الحياة، وأصبحت وسيلة أساسية في شؤون الحكم لا يُستغنى عنها، مما أسهم في تطور أسلوبها وبلاغتها. وقد أدى ذلك إلى ازدهار طبقة من الكتّاب المحترفين الذين أتقنوا صناعة الإنشاء وابتكروا صيغًا وأساليب تراعي هيبة الدولة ومكانتها، كانت الكتابة جسراً يرتقي الكتّاب من خلاله إلى مناصب رفيعة في الدولة قد تصل بهم غالباً إلى اعتلاء سُدّة الوزارة.

## 1. عوامل تطور وازدهار فن الترسل في عصر المماليك

تضافرت مجموعة عوامل أدّت إلى ازدهار هذا الفن، من أهمّها:

أ. **اتّساع النفوذ السّياسيّ والعسكريّ للمماليك**؛ لقد مثّل الاتساع الجغرافي الذي بلغته دولة المماليك أحد أهمّ العوامل التي أسهمت في ازدهار فنّ المراسلات، إذ بسط المماليك سلطانهم على رقعة واسعة شملت مصر وبلاد الشام والحجاز وأطراف الأناضول. هذا الاتساع فرض بالضرورة وجود جهاز إداري مُحكَم يقوم على التواصل الدقيق بين مركز الحكم في القاهرة وبين سائر الولايات والأقاليم التابعة لهم.

فضلا أنّ طبيعة الحكم المملوكي التي تقوم على التراتب العسكري واتصال القيادة المركزية بالقيادات الميدانية أدّت إلى زيادة الحاجة إلى رسائل دقيقة وواضحة، سواء في زمن السلم لتنظيم شؤون الدولة، أو في زمن الحرب لإدارة الحملات الكبرى ضد المغول والصليبيين، وقد جعل ذلك من الرسائل الأداة الأساسية لضبط القرار السياسي، وتثبيت أو عزل الولاة، وتوجيه السرايا، وتوثيق المراسلات مع القوى الخارجيّة.

ب. **تثبيت دعائم حكم المماليك وإضفاء الشرعية**؛ كانت الشرعية السياسية إحدى أكثر القضايا حساسية في الدولة المملوكية، نظرًا لخصوصية البنية الاجتماعية والسياسية التي قامت عليها هذه الدولة. فالسلاطين المماليك هم في الأصل طبقة عسكرية وافدة جُلبت صغارًا وتدرّجت في مراتب الخدمة العسكرية حتى وصلت إلى الحكم، لذلك كانت شرعيتهم عرضة للاهتزاز مع كل انتقال للسلطة، خصوصًا في ظلّ كثرة الانقلابات العسكرية، وتنافس الأمراء، وتعدّد المؤامرات التي ميّزت العصر المملوكي وأمام هذا الواقع المضطرب، لجأ السلاطين إلى الرسائل والمراسيم السلطانية بوصفها وسيلة فعّالة لتثبيت شرعيتهم وتعزيز حضورهم السياسي؛ فتحولت إلى خطاب موجّه للرعية يُذكّر بمكانة السلطان الدينية والسياسية، ويُظهره بصورة الراعي والحامي والحكم العادل. كما كانت هذه الرسائل تُشبع بالإشارات إلى حراسة الدين، ونصرة الإسلام، ورعاية مصالح الأمة، وحفظ الحدود والثغور، وهي معانٍ تسهم في ربط الحكم بالمشروعية الدينية، ومن ثمّ غرس صورة السلطان في أذهان الناس باعتباره "السلطان الشرعي" القائم بأمر الله.

كانت الرسائل في العصر المملوكي جزءًا من نسيج الشرعية، ونجحت في تشكيل خطاب سلطاني قادر على تبرير الحكم وتعزيز الاستقرار في دولة طالما عرفت كثرة التغيّرات والانقلابات، يقول شهاب الدين بن تغري (ت

965 هـ): « وكانتِ السَّلطنَةُ في دولةِ المماليكِ لا تستقرُّ على أحدٍ، لكثرةِ ما يَعرضُ من خَلعٍ وتوليةٍ، فكان السلاطينُ يُكثِرون من إظهارِ مراسمِ السلطان، وإرسالِ الكتبِ إلى الأُمراء والولاة، لتأكيدِ الطاعةِ، وتثبيتِ أمرِهم في النّفوس.» [1].

د. **الاتصال بالحضارات المجاورة**؛ شكّل الاتصال بالحضارات المجاورة عاملًا مهمًا في تطور فنّ الترسّل في عصر دولة المماليك، إذ لم تكن هذه الدولة كيانًا منغلقًا، بل انخرطت في شبكة واسعة من العلاقات الإقليمية والدولية بحكم موقعها الجغرافي وسيطرتها على طرق التجارة والحج. وقد أدّى هذا الانفتاح إلى ازدهار المراسلات الدبلوماسية، التي أصبحت أداة استراتيجية لإبراز هيبة الدولة وقوتها، فتنوعت لتشمل المراسلات مع المغول (الإيلخانيين والتتار) باعتبارهم الخصم الأبرز، ومع الدولة العثمانية حيث تراوحت العلاقات بين التنافس والتحالف، ومع الدولة البيزنطية التي اتسمت الرسائل معها بطابع دبلوماسي راقٍ قائم على التفاوض حول الأسرى والتبادل التجاري وعقد الهدن. كما شملت هذه العلاقات إمارات الأناضول، والدولة الحفصية في إفريقية، والدولة المرينية في المغرب، واليمن والحجاز، وهو ما أدى إلى تطور بنية الرسائل، فأصبحت أطول وأغنى مضمونًا، وتنوعت عباراتها الدبلوماسية، وكثر فيها استعمال الألقاب السلطانية، مع ميل واضح إلى الإطناب وتعزيز الصنعة البلاغية، خاصة من خلال السجع المركّب والمقابلات الرفيعة. [2]

**نمو الثقافة الأدبيّة لدى الكتّاب**؛ كان كتّاب العصر المملوكي من أكثر طبقات المجتمع اتصالًا بالعلوم والآداب، فقد تكونت في دواوين الإنشاء طبقة نخبوية من الأدباء الذين يجمعون بين العلم الشرعي والثقافة اللغوية، والتمرس بالشعر والنَّثر، والتضلّع من كتب البلاغة والنحو واللغة. وقد انعكس هذا الثراء الثقافي على طبيعة الرسائل التي صاغوها، فازدادت جمالًا، وتعقيدًا، وصنعةً أدبية راقية. [3]

## 2. أشهر الكتاب ونماذج من ترسلهم في عصر المماليك

ومن مشاهير كتاب العصر المملوكي؛ الذين تمكنوا من الارتقاء والسمو بفن الترسل نذكر منهم[4]:

- **الدين الصفدي (664هـ):** من أبرز أعلام الأدب في عصر المماليك، وهو خليل بن أبيك عبد الله صلاح الدين الصفدي أبو الصفاء، الإمام الشاعر المشهور، المؤرخ الكبير. وقد كثرت وتنوعت مؤلفاته، مما يدل على سعة ثقافته وكثرة ترحاله في طلب العلم، ومن أشهر آثاره كتاب "الوافي بالوفيات" و"لامية العجم." كما اهتم الصفدي بفن الترسل، فاعتنى برسائله عناية كبيرة، واستخدم فيها مختلف ألوان البديع، فأكثر من السجع

[1]- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج 7، ص 112.

[2]- يُنظر: أبو العبّاس القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج 4، ص 10 إلى 25

[3]- المرجع نفسه، ج 1، ص 35 إلى 60.

[4]- ينظر: رشا فخري النحال: فن الرسائل في العصر المملوكي، ص: 32- 42.

والجناس، وحرص على تضمينها آيات قرآنية وأحاديث نبوية وأشعارًا وأمثالًا، مما أكسب أسلوبه قوة وجمالًا وجعله نموذجًا مميزًا في الكتابة الأدبيّة.

- **شهاب الدين محمود الحلبي (725هـ):** هو محمود بن سلمان بن فهد، شهاب الدين أبو الثناء الحلبي العلامة الإمام البارع البليغ الكاتب الحافظ الحلبي الدمشقي، من كبار أعلام الإنشاء في العصر المملوكي، لُقّب بشيخ صناعة الإنشاء في عصره، من أبرز مؤلفاته كتاب "حسن التوسل إلى صناعة الترسل"، الذي يُعد مرجعًا مهمًا في فن كتابة الرسائل. من الملاحظ على رسائله استخدامه للجناس والسجع إلى جانب استخدام التشبيه والاستعارة، وحرصه على تضمين آيات قرآنية، كما اهتم ببراعة الاستهلال بذكر الرتب والألقاب، مع مراعاة مقتضى الحال وانتقاء الألفاظ والمعاني بدقة، مما يعكس أسلوبًا رفيعًا يجمع بين الجمال والوظيفة.
- **ابن فضل الله العمري (ت 749هـ):** أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري (القاضي شهاب الدين، أبو العباس) من أشهر كُتّاب الدولة في العصر المملوكي في القرن الثامن الهجري، وقد نشأ في بيت علم وكتابة، فوالده كان من كبار الكُتّاب. عُرف بمكانته الرفيعة في الديوان، وبموسوعته الشهيرة "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار". ومن أهم رسائله: رسائل السلطان الناصر محمد بن قلاوون، والرسائل الدبلوماسية الموجّهة إلى المغول والإيلخانيين، حيث برزت قدرته على التعبير عن هيبة الدولة وقوتها. وتمتاز رسائله ببلاغة عالية، وسجع متشابك، واستعمال فخم للألقاب الرسمية، مما يعكس أسلوبًا رسميًا مترفًا يعبّر عن مكانة الدولة المملوكية وهيبتها.
- **ابن نُباتة المصري (ت 768هـ):** محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن أبي الحسن بن علي بن يحيى بن ظاهر بن عبد الرحيم جمال الدين أبوبكر ابن نُباتة المصري، أحد أعلام البديع في النَّثر في عصر المماليك، حيث عُرف ببراعته في تنميق الأسلوب وتزيين العبارة. أهم رسائله: الرسائل المزهرية، ورسائل السلطان الناصر. وتمتاز رسائله بكثرة المحسنات البديعية، وخاصة السجع والجناس، مع عناية واضحة بجمال اللفظ ودقة المعنى.
- **القلقشندي (821هـ):** أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل شهاب الدين الفزاري من قبيلة فزارة، القلقشندي القاهري الأصل الشافعي، من كبار كُتّاب الدولة في العصر المملوكي، ومن أبرز أعلام ديوان الإنشاء في الديار المصرية، وقد اشتهر بمؤلفاته، وعلى رأسها كتابه الموسوعي في فنون الكتابة والإدارة "صبح الأعشى في صناعة الإنشاء". ومن خلال رسائله يتبيّن أنه كان يلتزم بالمحسنات البديعية كالسجع والجناس والتورية، سائرًا في ذلك على نهج القاضي الفاضل، مع عناية واضحة بجمال الأسلوب وتنميق العبارة، مما جعله نموذجًا بارزًا في فن الترسل في العصر المملوكي.
- **ابن حِجّة الحموي (ت 837هـ):** هو أبو بكر بن علي بن عبد الله، تقى الدين الحموي الحنفي الأزراري، المعروف بابن حجة بكسر الحاء، أشهر أعلام الترسل في العصر المملوكي، وقد عرف بكونه كاتبا وشاعرا وناقدا، وتولى ديوان الإنشاء، فكان إماما عارفا بفنون الأدب متقدما فيه، طويل النَفس في النَّظم والنَّثر، وحَسن الأخلاق

والمروءة. حيث تكشف رسائله عن عناية كبيرة بالمحسنات البديعية بأسلوب يتسم بالرقة والانسجام، كما حرص على تضمين كتاباته اقتباسات من القرآن الكريم والحديث الشريف، إلى جانب الشعر والأمثال.

## 3. موضوعات فن الترسل في عصر المماليك

تنوعت الرسائل في العصر المملوكي؛ فكان منها السياسية، والاجتماعية، والعلمية، وهي كالآتي:

### أ. الرسائل السياسية:

وهي التي تعرف بأنها الرسائل الخاصة بالشؤون الدولة في الداخل والخارج [1]، وتعددت الرسائل السياسية بما يخدم سياسية الدولة الداخلية والخارجية، ممّا جعلها مصدرًا مهمًّا لدراسة تاريخ الدولة المملوكية وأنظمتها الإدارية. ومن أشهرها الرسائل السياسية، "**الرسائل المملوكيّة**" ويقصد بها الرسائل الصادرة عن السلطان نفسه، أو تلك التي تُبعث باسمه إلى الملوك والأمراء في الداخل والخارج، وتمتاز هذه الرسائل بطابع رسمي صارم، وبنية لغوية محكمة، تبرز فيها سلطة الدولة ومكانة السلطان.

وتُعدّ الرسائل المملوكية جزءًا من التراث السياسيّ للدّولة؛ إذ كانت أداة لإعلان السياسات الخارجية، وتأكيد السيادة، وإرسال التحذيرات أو طلب التحالفات، أو تثبيت الولاة على أعمالهم وعزلهم، كما تبرز في هذه الرسائل نبرة القوة والهيبة، لا سيما أن البيئة السياسيّة في العصر المملوكي كانت بيئة صراعات عسكريّة مستمرّة. [2]

ومن بين الرسائل المملوكية رسائل التقليد (رسائل التولية والولايات) وتُعرف برسائل التعيين أو التقليد، وهي النصوص الموجّهة إلى أصحاب المناصب العليا مثل الوزارة، والقضاء، وقيادة الجند، والإمارة لإعلامهم بمنح الولاية أو تثبيتها أو هي "رسائل تعيين رجال الدولة في المناصب العاليّة"[3].

من ذلك تقليد كتب للقاضي شهاب الدين بن فضل الله وهو لتقليده بكتابة السر، حيث بدئ بخطبة حمد الله عز وجل فيها، وشهد له بالوحدانية، وصلى على رسوله الكريم، ثم أورد بعد الخطبة حاجة الدولة لكاتب السر، وبد الكاتب بمدح شهاب الدين، ثم أورد سبب اختياره لهذه الوظيفة من سعة العلم، وقدرة وقوة النظر، ثم أورد التقليد، وعرفه بالأعمال التي أوكلت له، ولم ينس الكاتب الوصايا، فأوصاه بالتقوى، فهو الذخيرة النافعة، ودعا له بالقوة والنور. ومن نص التقليد:

**« الحمد لله على عناية حفظت ملكنا الشريف بمعقّباتها، وصانته بصاحب تصريف تقوم كتبه وآراؤه مقام الكتائب ورایاتها... نحمده حمدا يهبّ مع الأنفاس في هبّاتها... ونشهد أن لا إلاه إلا الله وحده لا شريك له**

---

[1]- محمد نبيه حجاب، بلاغة الكتاب في العصر العباسي، ص: 54.

[2]- قصي الحسين، الأدب العربي في العصرين المملوكي والعثماني، ص 237.

[3]- سلامة هليل عيد، الرسائل الفنية في العصر المملوكي الأول، ص 31

**شهادة تملأ الصّحف بحسناتها... ونشهد أنّ سيدنا محمدا عبده ورسوله الذي أدّى الرسالة بما تحمّله من أماناتها...صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه... وسلّم تسليما كثيرا... وبعد، فإنّ الملك عمود بناؤه بسرّه وارتفاعه بالتأسيس لمستقرّه... كاتب يخاتل العدو في مكره قبل مكرّه، ويقاتل في الحرب والسّلم بنفّاذ رأيه ونفّاث سحره... إذا جادل فبالحجّة البالغة، وإذا جاوب أبطل الأهوال الزّائغة، وإذا أمرنا بالعدل والإحسان سيّرهما عنّا كالشمس البازغة، كالمجلس العاليّ، القضائيّ، الأجليّ... رئيس الأصحاب، ملاذ الكتّاب... لسان السلطنة، مدبّر الدّول، مشيّد الممالك... فإنّا خطبناه لهذه الوظيفة... وتعيّن علينا أن نحكم له بهذا الاعتبار ونحمله على هذا المقتضى، وأن نطلعه في سماء دستنا الشريف شهابا أضا، وأن نقلّده مهمّا ما زال هو القائم بتنفيذ أشغاله... فرسم بالأمر الشريف العاليّ، المولويّ، السلطانيّ، الملكيّ، الناصريّ... أن يستقلّ المجلس العاليّ، القضائي، الشّهابيّ »أحمد بن فضل الله «المشار إليه بصحابة دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية المحروسة... والتصرّف في المهمّات الشريفة والتصريف؛ وهو المنفرد بتقديم البريد وعرضه، ومباشرة ختمه وفضّه، وقراءته بين أيدينا، واستخراج مراسمنا الشريفة في كل مناب، ومشافهة وخطاب، و ابتداء وجواب، وملطّف ومكبّر... ونحن نختصر له الوصايا لأنّه الذي يمليها، ونقتصر منها على التقوى فإنها الذخيرة النافعة لمن يعانيها، والباقية الصالحة خير لمن يقتفيها، والله تعالى يقوي أسبابه، وينير شهابه... »** [1].

وتشير هذه الرسائل إلى مكانة الدولة المملوكية التي كانت تعتمد على كتاب موهوبين قادرين على صياغة هذه الوثائق بأسلوب يجمع بين الصنعة البلاغية والوظيفة الإدارية، وقد غلب على رسائل التقليد استخدام لغة رفيعة وصور بلاغية قوية، إلى جانب نبرة رسمية توحي بالرهبة والسلطة، وتُظهر في الوقت نفسه هيبة الدولة ورسوخ نظامها السياسي.كما تحمل هذه الرسائل إشارات إلى مسؤوليات المكلَّف، وإلى الواجبات التي ينبغي عليه الالتزام بها، وإلى الثقة التي أولاها السلطان له.

### ب. الرسائل الاجتماعية:

احتلّت الرسائل الاجتماعية مكانة مهمّة في الحياة الأدبيّة عصر دولة المماليك، إذ لبّت حاجات اجتماعية متنوعة وعلاقات إنسانية، فشملت رسائل التهنئة في المناسبات السارّة كالزواج والولادة، ورسائل التعازي في الفواجع والمصائب، فضلًا عن رسائل الودّ و المصافاة، ورسائل العتاب والاعتذار، ورسائل الشكر والزيارة وغيرها. إذ "تُعبِّر عن مشاعر الكتّاب والشّعراء، نثرًا ونظمًا من مدحٍ وهجاءٍ واعتذارٍ وعتابٍ، ورثاءٍ، وفِكرٍ وغير ذلك"[2].

---

[1]- القلقشندي، ج: 11، ص: 292- 298.

[2]- قصي الحسين، الأدب العربي في العصرين المملوكي والعثماني، ص 403.

وتمتاز هذه الرسائل بلغة أدبية رقيقة تعبّر عن المشاعر الإنسانية، فتعكس طبيعة العلاقات بين الكتّاب والشعراء، كما تُظهر مستوى الذائقة البلاغية السائدة آنذاك في عصر دولة المماليك، بما تتضمنه من محسّنات بديعية وصور تعبيرية راقية.

وتُعدّ رسائل المدح من أهمّ الرسائل الاجتماعية في عصر دولة المماليك، إذ لا تكاد تخلو رسالة من مديح، وقد شكّل هذا اللون من الرسائل فرصة للكتّاب لإبراز فضل الممدوح وسمو خصاله، من ذلك رسالة مدح كتبها القلقشندي في الإشادة بقصيدة نظمها شرف الدين عيسى حجاج، الشاعر المعروف بالعالية، في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم؛ حيث أسبغ على ناظمها أجمل عبارات الثناء، ودعا له بالرفعة والسبق، كما وصف القصيدة بأنها بليغة فريدة، يتيمة لا مثيل لها.

« أما بعد الحمد الله الذي أحّل سحر البيان، وأقدر أهل البلاغة من بديع التّخيل على ما يشهد بصحته العيان...فإني وقفتَ على البِديعيّة البَديعِة التي نظمها الفاضل، الأرفع، أديبّ الزُمان، وشاعرُ الأوان، شرفّ الدُّين أبو الروح عيسى العالية- أعلى الله تعالى منار أدبه... وهي اليتيمة التي أعقمت الأفهام عن مثلها، والفريدة التي اعترف كل طويل النجاد بالقصور عن وصلها...إن ذكرت ألفاظها فما الدّر المنثور؟ أو جليت معانيها أخجلت الروض الممطور...فإطنابها لفصاحتها لا يّعد إطنابا، وايجازها- لبلاغتها- يمد على المعاني من حسن السبك أطنابا... »[1]

كما تُعدّ رسائل التهنئة بين الأصدقاء والأحباب تعبيرًا صادقًا عن علاقات المودّة والإخاء والامتنان، وقد حفلت بها المناسبات الاجتماعية في عصر دولة المماليك؛. من ذلك تهنئة كتبها شهاب الدين محمود الحلبي، وهي تهنئة بالبنين، ودعوة بتجديد المسرات والبشائر، ومما جاء فيها: « جدد الله في كل يوم له مسرة وبشرى، وأطاب لعرفه عرفا ونشرا، وشدّ له بولده السعيد الطلعة أزرا، وسرى به الهموم عن القلوب وأصارها لديه أسرى، ورفع درجته إلى سماء المعالي ليقال: سبحان الذي بعبده أسرى. المملوك يِخدم المولى ويهنْيه ويشُكُره ويطلِعه على ما حصل له من الابتهاج...»[2]

كما تبرز رسائل العتاب بين أنواع الرسائل الاجتماعية في عصر دولة المماليك، إذ لا يكون العتاب إلا لمن يكنّ له الشخص محبّة صادقة، ولذلك تأتي ألفاظه – غالبًا – مشحونة بدلالات الودّ والمودّة، تعكس حرص الكاتب على دوام العلاقة وصفاء القلوب، من ذلك رسالة كتبها شهاب الدين محمود، من ذلك رسالة كتبها شهاب الدين محمود، هو ما يكشف عن امتزاج العتاب بالمودّة وحرص الكاتب على استبقاء أواصر الصداقة. وقد ذكر فيها محاسن صديقه الذي يعاتبه، وأثنى عليه ومدحه، يقول: « وينهي إليه أنه مازال يتلو آيات محاسنه وحمده، ويرفع رايات إحسانه ومجده، ويتولاه ولا يتولّى عن مّحبُته، ويَكثر الثناءِ على ألمعّيِ فطنته وجزيل مُروءتُه، وقد

---

[1]- القلقشندي، ج: 14، ص: 337

[2]- المرجع نفسه، ج: 9، ص: 37.

صار يُشاهد من المولى صدودا، واعراضا يغيظ به صديقاً ويُسّرَ به حُسوداً... يوجب إبعاده... ولا يعلم سببا يوجبه سّبه، ولا شيئا يحدث عتبه...» [1].

وتُعدّ الرسائل الاجتماعية ميدانًا رحبًا أظهر فيه الكتّاب قدرتهم على تطويع اللغة للتعبير الوجداني في عصر دولة المماليك، مما جعل هذا الفنّ وثيق الصلة بالنَّثر الأدبيّ الخالص، لا بالنَّثر الإداري.

### ج. الرسائل العلمية:

تمتّع الرسائل العلمية في عصر دولة المماليك بأهمية كبيرة عند العلماء والأدباء، إذ كانت وسيلة دالة على المكانة العلمية والأدبيّة التي بلغوها، واعتُبرت من الأمور المشرفة التي يسعى المرء للحصول عليها بشتى الوسائل. وتنقسم الرسائل العلمية إلى ثلاثة أنواع رئيسية: **إجازات علمية، وإجازات عراضة، وإجازات بالرواية الأدبيّة**، حيث تُعدّ الإجازة رسالة يُرد بها الأديب على من استجازه، فيسمح له ويأذن له برواية الكتب أو التدريس.

وسنقف عند **الإجازات بالرواية الأدبيّة**، لما لها من علاقة وطيدة بالخطاب النَّثري ومجالها الأدب، إذ يعرفها بأنها سعي أديب إلى أديب آخر أوسع شهرة وأعمق أثرًا في الأدب، فيكتب له رسالة يطلب فيها أن يمنحه إجازة برواية آثاره الأدبيّة ومصنفاته ومروياته، سواء كانت شعراً أم نثراً، ليكون أحد رواة أدبه، تشريفًا له أو تحمّلًا لأمانة الرواية عنه.

ومن تلك الإجازات، تبرز **إجازة جمال الدين بن نباتة المصري** التي كتبها لصلاح الدين الصفدي، إذ أرسلها الصفدي إليه بعد أن استجازه، ليمنحه **إجازة خاصة وإجازة عامة**، والسماح له برواية كتبه المختلفة. وقد أوضح الصفدي أنه يرغب بالرواية عنه فيما مضى وحاضر، وهو ما قصده بالإجازة الخاصة، كما عبّر عن رغبته في الرواية عنه كل ما يقع عليه عينه في المستقبل، وهو ما قصده بالإجازة العامة.من تلك الاجازة: «الحمد لله على نعمائه، والصلاة والسلام على خير أنبيائه، محمد و آله وصحبه وأصفيائه، المسؤول من إحسان سيدنا الشيخ الإمام العالم العلامة رحلة الأدب، قبلة ذوي التحصين له في التحصيل والدأب، ... جمال الدين أبي بكر محمد الشيخ الإمام الحافظ شمس الدين محمد بن نباتة جمع الله به شتات الأدب في دوحة هذه الدولة، ولم به شعث أبنائه الذين لا صون لهم ولا صولة، وأقام به عماد أبيات الشعر التي لولاه لما عرفت دار مية من أطلال خولة، بمنه وكرمه، إجازة كاتب هذه الأحرف ما له- فسح الله في مدته- من رواية المصنفات في الأحاديث النبوية، و التَّأليفات الأدبيّة على اختلاف أوضاعها وتباين جناسها وأنواعها، بحسب ما تأدى ذلك إليه واتصل به من قراءة أو سماع أو إجازة أو وصية من مشايخ العلم الذين أخذ عنهم، وإجازة ما ل أحسن إليه من مقول نظما أو نثرا تأليفا أو وضعا إجازة خاصة، وإثبات ما له من التصانيف إلى هذا التاريخ بخطه الكريم وإجازة ما لعلّه يقع له

[1]- القلقشندي، ج: 9، ص: 197

بعد ذلك إجازة عامة، على أحد القولين في المسألة فإن الرياض لا ينقطع زهرها والبحار لا تنفد دررها...، كتبه خليل بيك بن عبد الله الألبكي بالقاهرة المحروسة، وحسبنا الله ونعم الوكيل.» [1]

## 4. سمات وخصائص فن الترسل في عصر المماليك

أبرز الخصائص والسّمات التي اتّسم بها فنّ الترسّل في العصر المملوكي:

### أ. ميل الرّسائل إلى الزخرفة اللّفظيّة وصنعة البديع:

تميّزت الرسائل في عصر دولة المماليك بميلٍ واضح إلى الزخرفة اللفظية وصنعة البديع، حيث اتّسمت بوفرة المحسّنات البلاغية، ولا سيما السجع والجناس والطباق والمقابلة. وقد تعمّد الكتّاب بناء رسائلهم على نسق فني متقن يبرز براعتهم البلاغي وحسن صناعتهم، فأصبحت الزخرفة اللغوية سمة أساسية في مراسلاتهم، يسعون من خلالها إلى إظهار مهارتهم البلاغية وإضفاء الهيبة على الرسالة بوصفها وثيقة سياسية ودبلوماسية. ويرجع هذا الميل إلى طبيعة الثقافة الأدبيّة السائدة التي مجّدت فنون البديع وأساليب التزيين، إضافة إلى حرص الكتّاب على كسب الحظوة لدى السلاطين والأمراء بإظهار قدرتهم الفنية.[2]

### ب. الالتزام بالقوالب الفنية التقليدية في الرسائل المملوكية:

شكّل فنّ الترسّل في عصر دولة المماليك امتدادًا للطراز العباسي المتأخّر، غير أنّه بلغ درجة عالية من الصنعة والإحكام، حتى أصبحت الرسائل تُكتب وفق قالب ثابت يكاد لا يخرج عنه الكتّاب، حفاظًا على جلال الدولة وإبرازًا لهيبتها السياسية والعسكرية، وذلك على النحو الآتي:

- **براعة الاستهلال (التحميد والدعاء):** تبدأ الرسائل عادةً بتحميد مطول يُظهر مقدرة الكاتب البلاغية، ويتضمّن الثناء على الله والدعاء بالنصر والتمكين، ومن ذلك ما ورد في رسالة لابن فضل الله العمر: الحمدُ للهِ الذي نصرَ أعلامَ الدولة، وأعلى راياتِ الملة، وأجرى على أيدي أوليائه من الفضل ما تُخرِسُ به ألسنةَ الأعداء

ويُبرز هذا الاستهلال رصانة الأسلوب، وارتباط الرسالة بالخطاب السياسي والديني، فضلًا عن تأكيد فكرة الشرعية الإلهية للسلطان.

- **إيراد الألقاب السلطانية المطولة:** بلغت الألقاب في عصر دولة المماليك حدًّا كبيرًا من التضخيم، حتى أصبحت فقرة قائمة بذاتها داخل الرسالة، تُبرز هيبة السلطان ومكانته السياسية والعسكرية. يقول

1. صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي: الوافي بالوافيات، ج:1، ص: 235

[2]- ينظر: عبد العزيز يوسف زي، ومحبوب الرحمن صافي، مراحل التّرسّل التاريخيّة للأدب العربي: من نافذة الفنّ والأدب، ص 18.

القلقشندي: "واعلم أن ألقاب السلطنة يجب أن تُساق على نسق يدلّ على الملك والعُلو والقهر، مما يليق بمقام الإمام الأعظم، كقولهم: الملك الظاهر، والناصر، والأشرف..."[1].

ومن أمثلة ذلك ما ورد في مراسلات السلاطين: "المقامُ الشريفُ العالي المولوي السلطاني الملكي، مالكُ رقاب الأمم، وقامعُ جموع الظلم، سلطانُ السلاطين، ناصرُ المؤمنين..."

كان كتّاب الديوان المملوكي مثل القلقشندي، ابن فضل الله العمري، والقاضي الفاضل—ينظرون إلى كتابة الألقاب السلطانية بوصفها معيارًا للحذق في الترسّل. ولهذا نجد في "صبح الأعشى" فصولًا طويلة خصّصها القلقشندي لشرح كيف تُبنى الألقاب، وما ينبغي أن تتضمنه من صفات عسكرية وسياسية.

- **صياغة موضوع الرسالة بأسلوب رسمي دقيق:** تأتي فقرة الغرض في رسائل عصر دولة المماليك بأسلوب مباشر، غير أنّه محكوم بلغة ديوانية رفيعة، يوازن فيها الكاتب بين الوضوح الإداري والجزالة الأدبيّة. ومن ذلك قولهم: "وقد اقتضى نظرُ الدولةِ الشريفة أن تُوجَّه المراسيمُ العاليةُ إلى نواب الثغور ليُعِدّوا ما يلزم من العدد والرجال، اتقاءً لما يلوح من تحرّكات العدو..." ويُلاحظ في هذا الأسلوب: الدقّة في عرض الفكرة، واختيار ألفاظ ذات طابع عسكري وسياسي، إلى جانب استعمال مصطلحات ديوانية مثل: (*المراسيم العالية*، و*نظر الدولة*، و*نواب الثغور*) مما يعكس الطابع الرسمي المنظّم للرسائل.

- **الخاتمة الدعائية وإظهار الولاء:** تُختتم الرسائل في عصر دولة المماليك عادةً بدعاءٍ للسلطان، يعكس خضوع الكاتب أو الجهة المرسلة ويؤكد الولاء له. ومن ذلك قولهم: "جعل اللهُ سلطانَكم المؤيَّدَ ركنًا للدين، وحصنًا للمسلمين، وأقرّ أعينَ الرعيّة بطول بقائكم، وأمدّكم بالنصر المبين".

وتؤدّي هذه الخاتمة الدعائية عدة وظائف، منها: تثبيت ولاء الجهات الإدارية للسلطان، وتعزيز الخطاب السياسي الرسمي، وإضفاء طابع ديني على شرعية الحكم، فضلًا عن كونها مجالًا للتنافس بين الكتّاب في إبداع الصياغة السلطانية وإظهار براعتهم البلاغية.

- **الميل إلى الاستطراد والتفنّن في الوصف:** اتّسمت رسائل عصر دولة المماليك بميلٍ واضح إلى الاستطراد والإطالة، حيث يعمد الكتّاب إلى التوسّع في الوصف وإدراج مقاطع وعظية أو تأمّلية قبل الدخول في صلب الموضوع، ومن ذلك ما ورد في رسائل سلطانية "ولولا عناية الله بالدولة الظاهرة، وإحاطته لها بسياج نصره، وتكفّله بدوام ألطافه، لكان للزمان صولة، وللأيام جولة... ولكن الله يدفع بالملك العادل ما يحدثه الدهر من فتنٍ، ويكفّ بأسَه بما يفيضه على الإمام من سكينةٍ ووقارذ"، ويُلاحظ أنّ هذا المقطع يسبق الغرض الأساسي، ويُعدّ استطرادًا وعظيًا سياسيًا يطيل الرسالة دون حاجة إدارية مباشرة.

- **تعدّد الموضوعات داخل الرسالة الواحدة:** اتّسمت رسائل عصر دولة المماليك بتعدّد الموضوعات داخل الرسالة الواحدة، إذ لم تكن تقتصر على غرض واحد، بل تجمع بين أغراض مختلفة في نصّ واحد، مما

[1]- أبو العبّاس القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج1، ص 175

يُسهم في إطالتها وتعقيد بنائها. ومن ذلك ما نجده في رسائل ابن فضل الله العمري، حيث تتضمّن الرسالة الواحدة عناصر متعدّدة، مثل:

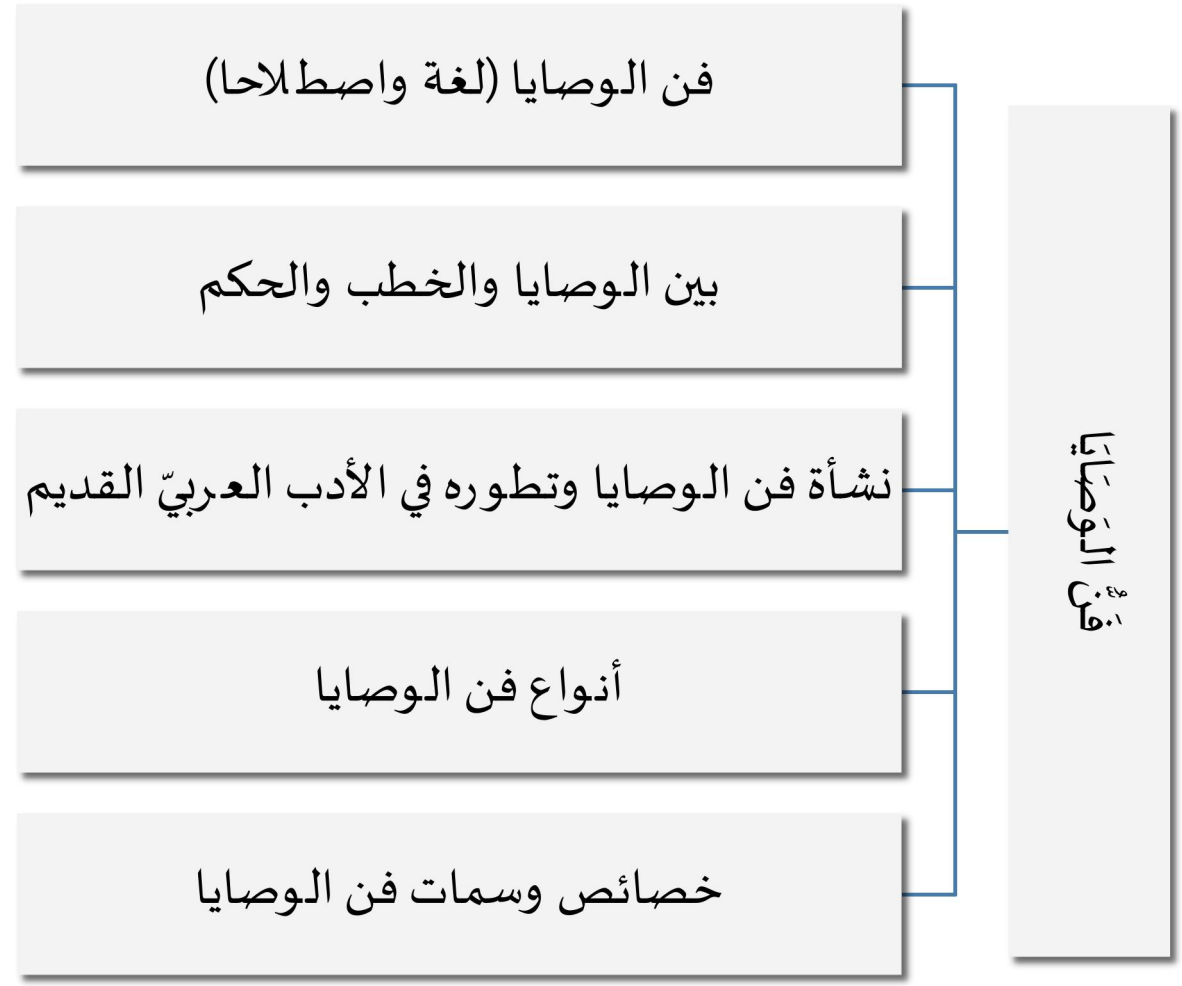
**مدح السلطان:** كقولهم: "أطال الله بقاء مولانا سلطان السلاطين "...

**بيان سياسي:** مثل: "وقد بلغنا ما حدث من اضطراب الأمر بديار الشام بسبب تمرّد طائفة "...

**أوامر إدارية:** كقولهم: "فعليك بحسم مادَّة الفتنة، وضبط أطراف البلاد "...

**شهادة ولاء وخاتمة دعائية:** مثل: "ويسأل المقام العالي دوام التأييد، وأن يقرّ أعين الرعية بعدله..."

وعله؛ شهد فن الترسل في عصر المماليك ازدهاراً كبيراً، متأثراً باتساع الرقعة الجغرافية، وضرورات تثبيت شرعية السلطة العسكرية، والحاجة إلى إدارة دبلوماسية دقيقة. تحول الترسل إلى أداة سياسية حيوية يُصيغها كُتّاب محترفون اتسموا بالثراء الثقافي والمهارة اللغوية، مما جعل الرسالة جسراً للترقي إلى أعلى مناصب الدولة كالوزارة. تنوعت موضوعات الرسائل بين سياسية لإدارة شؤون الحكم والولايات، واجتماعية تعكس مشاعر الود والمدح، وعلمية تجلت في الإجازات الأدبية، لتصبح كل رسالة وثيقة تجمع بين الوظيفة الإدارية والجمال الأدبي. تميز الأسلوب المملوكي بالالتزام بقوالب فنية صارمة، كبراعة الاستهلال بالتحميدات، وتضخيم الألقاب السلطانية، والميل الواضح إلى الزخرفة اللفظية كالسجع والجناس. كما اتسمت الرسائل بالإطناب، والاستطراد الوعظي، وتعدد الأغراض داخل النص الواحد، مع توظيف مكثف للاقتباسات القرآنية والشعرية. وقد أفرز هذا العصر أعلاماً بارزين في ديوان الإنشاء، أمثال القلقشندي وابن فضل الله العمري، الذين رسخوا تقاليد كتابية جعلت من الرسالة المملوكية نموذجاً للبلاغة الرسمية. وبذلك، لم يعد الترسل مجرد وسيلة تواصل، بل فنّاً رفيعاً يُعبّر عن هيبة الدولة المملوكية ويرسخ دعائم نظامها السياسي والاجتماعي.


فن الوصايا
فن الوصايا (لغة واصطلاحا)
بين الوصايا والخطب والحكم
نشأة فن الوصايا وتطوره في الأدب العربيّ القديم
أنواع فن الوصايا
خصائص وسمات فن الوصايا

الحصة 13

يُعَدُّ فنُّ الوصايا من أقدم الفنون النثرية في الأدب العربي القديم، إذ ارتبط بحياة العرب الاجتماعية والأخلاقية، واتُّخذ وسيلةً لنقل التجارب والخبرات والقيم من جيل إلى آخر. وقد تنوَّعت موضوعات الوصايا بين الحثِّ على مكارم الأخلاق، والدعوة إلى الحكمة والتعقُّل، وتوجيه الأبناء والأقارب، فضلًا عن الوصايا السياسية والحربية. وتمتاز الوصية بتركيزها وإيجازها وقوة تأثيرها، مما جعلها مرآةً صادقةً للفكر العربي وتجسيدًا لخبرة الإنسان في مختلف شؤون الحياة.

## 1. فن الوصايا(لغة واصطلاحا)

**أ- لغة:** الوصية في الاستعمال اللغوي مأخوذة من جذر مادَّة " وصَيَ"؛ قال ابن فارس: «الواو والصاد والياء أصل يدل على وصل شيء بشيء، ووصيت الشَّيء وصلته» [1].

والوصايا جمع وصية، وأوصى الرجل ووصّاه: عهد إليه، وأوصيت إليه إذا جعلته وصيّاً، وهذه وصيتي ووصاتي، وقبل الوصي وصايته وأصل الوصية من الوصل، وسميت وصية لاتصالها بأمر الميت؛ ولأن الميت يصل بها ما كان في حياته بعد مماته [2].

**ب- اصطلاحا:** فالوصية فن من الفنون النَّثرية القديمة؛ وهي بمعنى النصح والارشاد والتوجيه، وهي قول بليغ مؤثر، يتضمن حثًّا على سلوك طيب نافع، حبًا فيمن توجه إليه الوصية، ورغبة في رفعة شأنه وجلب الخير له، وهي قول حكيم صادر عن مجّرب خبير يوجهه إلى من يحب لينتفع به، أو من هو أقل منه تجربة [3]، إنه الفن النَّثري الذي ينقل لنا رؤية صاحبه وفلسفته في الحياة والناس فالوصية هي خلاصة تجارب الموصي في حياته، وخلاصة خبرته الطويلة وتفكيره السليم، دافعها المودة الصادقة والحب العميق، يقدمها إلى من يخصه أو يخصونه لتكون بمثابة إرشاد ونصح لهم في أمور كثيرة، وعادة تكون من أولياء الأمور وبخاصة الأب والأم لأبنائهما عند حلول الشدائد، أو حدوث الأزمات أو الإحساس بدنو الأجل.

**فالوصايا:** فنٌّ قولي شفوي الأصل يصدر عن رؤية أو نزعة مثالية في مضمونها وغاياتها، وهي بهذا أداة إبلاغ يدفع بها الموصي إلى الموصي إليه على شكل مجموعة من الأوامر والنواهي، ليقوم الأخير بتنفيذها والالتزام بها، وهي أيضا كل ما يُلفظ أو يُكتب أو يوجَّه إلى الآخرين مشافهة أو تدويناً، ويراد منه الحضّ على أمور كثيرة والالتزام بها أو النهي عنها، دينية كانت أو دنيوية [4].

## 2. بين الوصايا والخطب والحكم:

---

[1]- ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، ص: 1055 (مادة وصى) .

[2]- ينظر: (مادة وصى) ؛ ابن منظور: لسان العرب، مج: 6، ص: 938، الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ج: 6، ص: 2525.

[3]- ينظر: علي الجندي، تاريخ الأدب الجاهلي، مكتبة دار التراث، 1991، ص: 286.

[4]- ينظر: النجار محمد رجب: النثر العربي القديم من الشفاهية إلى الكتابة، ص: 53/ وعبد الرحمان نواف: تاريخ العرب قبل الإسلام، ص: 206.

تتداخل الوصايا مع بعض الفنون النَّثرية ولعل أقرب هذه الفنون الخطب والحكم؛ فالخطابة فن مخاطبة الجماهير لاستمالتهم وإقناعهم فهي كلام يلقى على الجمع من الناس في أمر من أمور العامة الجامعة التي يعود عليهم في معاشهم ومعادهم وذلك للتأثير فيهم وإثارة حماستهم نحو هذا الأمر، أما الوصية فهي قول حكيم لإنسان مجرب، يوصي به من يحب لينتفع به في حياته و غالبا ما تكون عند الاحساس بدنو الأجل أو العزم على الرحلة.

فالوصايا كالخاطبة في جميع مقوماتها الكلامية، بل هناك بعض الباحثين من يعد الوصايا بابا من أبواب الخطب و لونا من ألوانها، فالوصايا في بعض صورها لون من الخطب ولاحقة بها، لما يجمع بينهما من مواجهة المخاطبين بالقول، والقصد فيها إلى الإقناع، إلا أن الخطب تكون في جمع عام، أما الوصايا فتكون محصورة بين فردين غالبا ولناس مخصوصين عادة [1].

إن الخطب والوصايا تتفقان "من حيث توجيه المتلقي إلى الطريق الصحيح، وردعه عن الظلال والفساد، إلا أنهما تختلفان من حيث المتلقي، فالخطبة تكون على ملأ من الناس غالبا، حتى تعم الفائدة، في حين نجد الوصية غالبا توجه إلى إنسان معين في زمن معين، ولا حاجة لوجود جمهور بجانب الموصي إليه، في الوقت ذاته لا يمنع من وجود بعض الناس إذا دعت الضرورة، وربما تكون هذه الوصية صالحة لشخص آخر في زمن آخر إذا توافقت المناسبة" [2]

ناهيك أن الوصايا تمتاز بقوة الألفاظ والعبارات ومتانة الأسلوب ورصانته ووضوح المعاني كالخطب تماما، وتتراوح بين وصايا طويلة وقصيرة كما في الخطب، إلا أن الخطب لم تمتاز جميعا بالسجع، وكأن العرب عرفوا لونين من الخطابة لونا مسجوعا ولونا مرسلا، على العكس من الوصايا، فجل الوصايا التزمت بهذا السجع المحمود الذي يطلبه المعنى لجلب انتباه الموصي له.

وعليه هناك تقارب إلى حد بعيد بين الخطب الوصايا، رغم استقلالية كل الفنين بعضهما عن بعض استقلالا تاما.

إذا انتقلنا إلى الحكم، فنجد أنها أكثر اقترابا من الوصايا، فالحكم "أقوال من جوامع الكلم، تعبر عن موقف من الحياة والناس، وتشمل على توجيه وإرشاد إلى ما فيه الصلاح في القول والعمل" [3]، أو بعبارة أخرى، الحكمة عصارة خبرة في الحياة وفهم لأسرارها، يُدبجها ذهن ذكي فطن [4]

---

[1]- ينظر: فروخ عمر، تاريخ الأدب العربي، ج1 ص: 90/ فارس أحمد، تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي، ص: 394

[2]- النثر في العصر الجاهلي: هاشم صالح مناع، ص: 107- 108.

[3]- صالح محمود عبد الرحيم، فنون النثر في الأدب العباسي، ص: 73

[4]- محمد توفيق أبو علي، الأمثال العربية والعصر الجاهلي، ص: 48.

فالوصايا تشترك مع الحكم بتشابه المضامين في الإرشاد، والنصح، والوصاية إلى ما فيه من خير الفعل والقول. الحكمة تختلف عن الوصية ببعض الفروق، فهي لا تعدو أن تكون إلا جملة قصيرة معبرة، وسجع الحكم ليس بكثير، وجماليته لا تصل إلى جمالية السجع في فن الوصايا.

وعليه إن الحكم أقرب إلى الوصايا وخاصة في المضمون الذي يهتم في النصح والإرشاد في مناحي الحياة الدينية والدنيوية، رغم تميز الوصايا كفن نثري مستقل عن الحكم.[1]

## 3. نشأة فن الوصايا وتطوره في الأدب العربيّ القديم

الوصايا فن موغل في القدم، بداياتها الأولى كانت منذ فجر البشرية، حيث تطالعنا المصادر على نص وصية ينسب إلى سيدنا آدم- عليه السلام- وكان ذلك قبل وفاته؛ يروى عن ابن اسحاق أن آدم لما أحس بدنو أجله جمع بنيه وقال: « يا بنيّ، إن الله منزّل على أهل الأرض عذابا، فليكن جسدي معكم بالمغارة، حتى إذا هبطتم فابعثوا بي، وادفنوني بأرض الشام، فكان جسدهم معهم...»[2]

ورغم ما أثير حول نص الوصية من شكوك حول صحة نسبتها لأدم عليه السلام، تبقى أقدم وصية وصلت إلينا، فهي نتاج علم ودراية وخبرة، صاغها بأسلوب منمق وكلمات بليغة حتى يكون لها وقع؛ فقد أوصي عليه السلام بنيه بأن يبقوا جثته بعد وفاته معهم بالمغارة حرزا من هذا العذاب الذي سيحل على أهل الأرض.

ويكثر ذكر لقمان الحكيم، الذي عرف بالحكمة، واشتهر بوصاياه لابنه التي تعد من أعظم الوصايا الدينية التي وصلت إلينا، فهي تجتمع فيها أمهات الحكم، ومن وصاياه: «يَا بُنَيَّ إِنَّ الدُّنْيَا بَحْرٌ عَمِيقٌ يَغْرَقُ فِيهِ نَاسٌ كَثِيرٌ، فَلْتَكُنْ سَفِينَتُكَ فِيهَا تَقْوى اللَّهِ تَعَالَى، وحَشْوهَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ تَعَالَى، وشِرَاعُهَا التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ لَعَلَّكَ تَنْجُو، ومَا أَرَاكَ بِنَاجٍ»[3]

وفي العصر الجاهليّ نجد أن عرب الجاهليّة اهتموا بفن الوصايا الذي احتل مكانة بارزة بين فنون النَّثر الفني الشائعة في تلك الحقبة، وقد غلب على الوصايا الجاهليّة الشفوية فكانت تلقى إلقاء، ولا تكتب على الرّق إلا ما نذر، وأغلب ما وصل إلينا من تلك الوصايا بعضه موجه إلى الأبناء والبنات، وبعضه الآخر موجه إلى أفراد من القبيلة، وتروى هذه الوصايا عادة على ألسنة طوائف من الحكماء والمعمرين، الذين عرفوا بكثرة تجاربهم وخبرتهم في الحياة، ومن وصايا العرب في العصر الجاهليّ: **وصيَّةُ ذي الأصبع العدو اني لابنه أسيد، وصيَّةُ أمامه بنت الحارث لابنتها ليلة زفافها، ووصيَّةُ زهير بن جناب الكلبي لبنيه، ووصيَّةُ أكثم بن صيفي لبنيه ورهطه، ووصيَّةُ عامر بن الظرب العدو اني لابنته فعمة وقومه...**

---

[1]- ينظر: علاء محمد شدوح، النقد الأدبي في فن الوصايا، ص: 47

[2]- السجستاني، المعمرون والوصايا، تحقيق: عبد المنعم عامر، ص: 3.

[3]- علي محمد جماز، وصية لقمان لابنه، ص: 10.

أَوصَى عَمْرُو بنُ كُلْثُومٍ التَّغْلِبِيُّ بنيه وهو يحتضر- وكان قد عاش مائة وخمسين سنة- ، فقال: «يا بَنِيَّ، إِنِّي قد بَلَغْتُ مِن العُمُرِ ما لم يَبْلُغْ أَحَدٌ مِن آبَائِي وأَجْدَادِي، ولا بُدَّ مِن أَمْرٍ مُقْتَبِلٌ، وأَنْ يَنْزِلَ بي ما نَزَلَ بالآباءِ والأجدادِ والأُمَّهَاتِ والأولادِ، فاحْفَظُوا عَنِّي ما أُوصِيْكُم به: كُفُّوا عن الشَّتمِ؛ فإنَّه أَسْلَمُ لأَعْرَاضِكم، وصِلُوا أرحامَكم تَعْمُرْ دِارُكم، وأَكْرِمُوا جارَكم يَحْسُنْ ثَنَاؤُكم، وزَوجُوا بناتِ العِمِّ بَنِي العَمَّ؛ فإِنْ تَعَدَّيْتُم بِهِنَّ إلى الغُرَبَاءِ فلا تَأْلُوا بِهِنَّ الأَكْفَاءَ، وأَبْعِدُوا بُيوتَ النِّساءِ مِن بُيوتِ الرِّجالِ؛ فإِنَّه أَغَضُّ للبصرِ وأَعَفُّ للذِّكَرِ، ومتى كانتِ المُعَايَنَةُ والِّلقاءُ ففي ذلك دَاءٌ مِن الأدواءِ...» [1]

وكان عامر بن الظرب العدواني سيد قومه؛ فلما كبر وخشي عليه قومه أن يموت، اجتمعوا إليه وقالوا: إنك سيدنا وقائلنا وشريفنا؛ فاجعل لنا شريفًا وسيدًا وقائلًا بعدك، فقال:

«يا معشر عدوان: لا تشمتوا بالذلة، ولا تفرحوا بالعزة، فبكل عيش يعيش الفقير مع الغني، ومن ير يومًا ير به، وأعدوا لكل امرئ جوابه، إن مع السفاهة الندامة، والعقوبة نكال وفيها ذمامة، ولليد العليا، العاقبة، والقود راحة، لا لك ولا عليك، وإذا شئت وجدت مثلك، إن عليك كما أن لك، وللكثرة الرعب، وللصبر الغلبة، ومن طلب شيئًا وجده، وإن لم يجده يوشك أن يقع قريبًا منه» [2]

أما في عصر صدر الإسلام والخلافة الراشدة، فقد أضفى نور الإسلام على فن الوصايا مضامين تتماشى معه ومع تعاليمه السمحة، وقد غلب على موضوعاتها الجانب الديني والتشريعي والأخلاقي، قال تعالى: ﴿**ووصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ ويَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا و أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**﴾ [البقرة: 132].

وقد كثرت الوصايا في كلام الرسول صلى الله عليه وسلم، منه قوله: « أوصاني ربي بتسع، أوصاني بالإخلاص في السر والعلانية، وبالعدل في الرضى والغضب، وبالقصد في الغنى والفقر، وأن أعفو عمن ظلمني، وأعطي من حرمني، وأصل من قطعني وأن يكون صمتي فكرا، ونطقي ذكرا، ونظري عبرا» [3]

ثم يأت عهد الخلفاء الراشدين والذين شكلت وصاياهم نموذجا بارزا في فن الوصايا وقد دارت في غالبيتها حول جانبي؛ أولهما: وصايا الخلفاء لمن ولي الأمر بعدهم، وثانيهما: وصاياهم لقوادهم وعمالهم حين يولونهم حرباً أو عملا؛ من ذلك وصّية أبي بكر الصديق - رضي الله عنه- حين حضره الموت عمر بن الخطاب قائلا: « إني مُستخلفك وموصيك بتقوى الله يا عمر، إن لله عملا بالليل لا يقبله بالنهار، وعملا بالنهار لا يقبله بالليل، واعلم أنه لا يقبل نافلة حتى تُؤدَّى الفريضة، وأنه إنما ثقُلت موازين مَن ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق... .» [4]

---

[1]- صفوت أحمد زكي، جمهرة خطب العرب في العصور العربية الزاهرة، ج: 1، ص: 121.

[2]- المرجع نفسه، ج: 1، ص: 123- 124،

الذمامة بالفتح وبكسر، والذمة: العهد، والكفالة: والحق، والحرمة. اليد العليا المعطية، والسفلى: السائلة. القود: القصاص.

[3]- الجاحظ: البيان والتبيين، ج: 2، ص: 17.

[4]- صفوت أحمد زكي، جمهرة خطب العرب في العصور العربية الزاهرة، ج: 1، ص: 205- 206.

ويشهد فن الوصايا تطورا ملحوظا في العصر الأموي، وتنوعت مضامينها بين أمور السياسة والحكم والحرب والاتجاه إلى الناحية الخلقية وآداب السلوك.

ومن وصايا هذا العصر؛ وصيّة معاوية لابنه يزيد، ووصية زياد بن أبيه لمن يوليه عملا معينا، ووصية عتبة بن أبي سفيان لمؤدب ولده، ووصية عبد الملك بن مروان لبني أمية، ووصية عمر بن عبد العزيز إلى ولي عهده من بعده ورعيته ...

**وصية عمر بن عبد العزيز- رحمه الله- لرعيته**، قال أبو الفرج ابن الجوزي لما ولى عمر بن العزيز حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أوصيكم بتقوى الله، فإن تقوى الله خلف من كل شيء، واعملوا لآخرتكم، فإنه من عمل لآخرته كفاه الله - تبارك وتعالى- أمر دنياه، وأصلحوا سرائركم، يصلح الله الكريم علانيتكم، وأكثروا من ذكر الموت، وأحسنوا الاستعداد قبل أن ينزل بكم، فإنه هادم اللذات، وأنه من لم يذكر من آبائه ما بينه وبين آدم- عليه السلام- أبا حيا لمعرق له في الموت.» [1]

وإذا تجاوزنا العصر الأموي وولجنا إلى العصر العباسي نجد أن فن الوصايا تأثر بأحداث العصر ومعطياته الجديد، فهو عصر الانفتاح والتلاحق الحضاري والتنوع الثقافي، مما أضفى على هذا الفن النَّثري ملامح جديدة ومضامين تتماشى روح التغيير والتجديد «فبالإضافة للوصايا التقليدية التي تصدر بنصائح وتوجيهات من الأب لأبنائه أو من الخليفة أو الحاكم لواليه أو قائده أو من الحكيم أو الواعظ للخليفة أو الحاكم. ظهرت وصايا جديدة صدرت بتوجيهات وإرشادات من إنسان متمرس وخبير في مهنة معينة عالم ببواطنها إلى أصحاب هذه المهنة. وذلك بالإضافة إلى وصايا الكتاب التي صادفناها عند عبد الحميد الكاتب في العصر الاموي، ظهرت في هذا العصر (وصايا المؤدبين والمعلمين) الصادرة من الكتاب والأدباء لهذه الطبقة من المجتمع، ووصايا القواد التي جاء بها الجاحظ، ووصايا الوزراء. وهناك وصايا لم تظهر بوضوح في العصور السابقة كوصايا الصداقة والإخوان» [2].

وعلى الرغم من الأثر البارز للآداب الأجنبية على رأسها الهندية والفارسية وما تحمل من حكم ومواعظ ووصايا في فن الوصايا العربيّ، إلا أن هذه الوصايا العربيّة تمكنت من الحفاظ على خصوصيتها العربيّة، وطابعها الخاص وجمال أسلوبها، وجعلها تنماز عن وصايا وعظات الشعوب الأخرى من حيث المضمون.

ومن أشهر الذين وصوا في العصر العباسي: الخليفة جعفر المنصور، والمهدي وهارون الرشيد، والمأمون والأمين.

ولعل وصيا الخليفة أبي جعفر المنصور العباسي المتعلقة بأصول الحكم لابنه ووليّ عهده محمد المهدي تُعَدُّ من أشهر وصايا الخلفاء العباسيين لأبنائهم، ومن هذه الوصايا قوله: « اتق الله فيما أعهد إليك من أمور

---

[1]- صفوت أحمد زكي، جمهرة خطب العرب في العصور العربية الزاهرة، ج: 2، ص: 203- 204.

[2]- سهام الفريح، الوصايا ومدى تطورها في العصر العباسي الأول، حوليات، ص: 33.

المسلمين بعدي، يجعل لك فيما كربك وحزنك مخرجًا، ويرزقك السلامة وحسن العاقبة من حيث لا تحتسب، احفظ يا بني محمدًا صلى الله عليه وسلم في أمته، يحفظ الله عليك أمورك، وإياك والدم الحرام، فإنه حوب عند الله عظيم، وعار في الدنيا لازم مقيم، والزم الحلال، فإن فيه ثوابك في الآجل، وصلاحك في العاجل، وأقم الحدود، ولا تعتد فيها فتبور...» [1]

وإذا انتقلنا إلى العصر الأندلسي نجد أن فن الوصايا قد تراجع وفتر مقارنة بما كان عليه في العصور السابقة، وأن اهتمام الأندلسيون دار حول فن الترسل (الرسائل) على وجه التحديد، دون إغفال فنون النَّثر الفني الأخرى.

ومن الوصايا الأندلسية التي عثر عليها في هذا العصر ثلاث: وصيّة الحكم بن هشام لابنه عبد الرحمن، ووصيّة الملك المنصور بن أبي عامر إلى ابنه عبد الملك المظفر، ووصيّة الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي يوصي بنيه وأهل دولته، وهي وصايا لبعض حكام الأندلس لأولادهم، جمعت من خلال مخطوط "رونق التحبير في حكم السياسة والتدبير"، تأليف: أبو القاسم محمد بن أبي العلاء بن سماك العاملي المالقي. [2]

أَوصَى **المنصور بن أبي عامر ابنه المظفر عبد الملك** - لما اشتد به مرضه الذي مات منه- ، فبعد أن وطَّد لابنه أمر الدولة، وأرسى قواعدها يوصيه بالحفاظ عليها، بإتباع التوجيهات، وانتهاج السبل الأقرب إلى الاستئثار بالسلطة والحفاظ عليها في الفكر والسلوك، وأهمها النهي عن الإسراف في الإنفاق والقصد في الأمور، فقال: «يا بنى لست تجد أنصح لك منّي، فلا تعديَّن مشورتي .قد جرّدت لك رأيي ورويتي على حين اجتماع من ذهني، فاجعلها مثالاً بين يديك. وقد وطّأت لك مهاد الدولة، وعدلت لك طبقات أوليائها، وغايرت لك بين دخل المملكة وخرجها، واستكثرت لك من أطعمتها وعددها...فلا تطلق يدك في الإنفاق ولا تقيض لظلمة العمال، فيختلّ أمرك سريعاً، وذلك سرف راجع إلى اختلال لا محالة. فاقصد في أمرك جهدك، فاستثبت فيما يرفع أهل السعاية إليك...» [3]

كما لا يفوتنا في هذا المقام لفت الانتباه للعلامة والمؤرخ والأديب والوزير لسان الدين بن الخطيب، ووصاياه وزواجره وعظاته في هذا العصر؛ فهو يعد أشهر الأندلسيين كتابة في فن الوصايا، بألوانها ومضامينها المختلفة، « فلو جمعنا الآثار التي تحتوي على وصايا لهذا الرجل، لوجدنا أن هذه الوصايا تمتزج بين الوصايا العفوية الفطرية، والتي هي كلام يعتمد على خبرة وتجربة عاديتين قريبتين من فطرة الإنسان وما تمليه عليه من أن يقوم بعمل ما أو أن لا يقوم، دون حاجة إلى رصد كبير من التجارب والخبرة. وبين الوصايا المعرفية والتراكمية وهي التي تعتمد كل الاعتماد على كثير من تجارب الحياة بشتى مجالاتها السياسية والاجتماعية والفكرية.» [4]

---

[1]- صفوت أحمد زكي، جمهرة خطب العرب في العصور العربية الزاهرة، ج: 3، ص: 36.

[2]- ينظر: نجاة المريني، وصايا أندلسية، (بحث منشور)

[3]- ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ص: 76

[4]- ينظر: محمد مسعود جبران، فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب، ج: 3، ص: 68- 73.

## 4. أنواع فن الوصايا:

تعددت وتنوعت أنواع الوصايا في الأدب العربيّ القديم، فيمكنا من حيث التصنيف العام أن نجد نوعين أساسين من الوصايا: [1]

### 4.1 الوصايا الأدبيّة:

وهي تشمل الشعر والنَّثر على حد السواء أو الاثنين معا، ويتحدد لنا أسلوبها المتميز بمجموعة من الأوامر والنواهي مضمنه الوعظ والارشاد والتوجيه وهو ما يميز أسلوب الوصايا الأدبيّة وغيرها. وهي بذلك على صنفين؛ وصايا شعرية ونثرية:

أ. **الوصايا الشعرية:** وهي الوصايا التي يقولها الشعراء، وتأت على شكل أبيات متفرقة أو على شكل قصيدة كاملة، وتكون على الأغلب في حالة الإحساس باقتراب الموت، وتحمل في طياتها الكثير من الخبرات والتجارب، و تتضمن الكثير من القيم الإنسانية والخلقية.

ومن وصايا الشعراء يقابلنا لبيد بن ربيعة، الأعشى ميمون بن قيس، النابغة الجعدي، معن بن أوس المزني، الإمام الشافعي، أبو العتاهية... ومن الوصايا الشعرية المأثورة، والتي تعد من روائع وصايا الآباء للأبناء، في الجاهليّة قصيدة للشاعر عَبْد قَيْس بن خُفاف؛ لما قرب موته، أوصى ولده جُبيلًا بوصية جامعة نافعة ماتعة هي من عيون الوصايا، وفيها أتى دُرَرُ الحِكَمِ، وجوامع الأخلاق، ومما جاء فيها[2]:

**أَجُبَيلُ إِنَّ أَباكَ كارِبُ يَومِهِ  فَإِذا دُعيتَ إِلى العَظائِمِ فَاعجَلِ**

**أوصيكَ إيصاءَ امرِئٍ لَكَ ناصِحٍ  بِرَيبِ الدَّهرِ غَيرِ مُغَفَّلِ**

**وصِلِ المُواصِلَ ما صَفا لَكَ وِدُّهُ واحذَر حِبالَ الخائِنِ المُتَبَدِّلِ**

**و اترُك مَحَلَّ السُّوءِ لا تَحلُل بِهِ  وإِذا نَبا بِكَ مَنزِلٌ فَتَحَوَّلِ**

ب. **الوصايا النَّثرية:** وهي أصل فن الوصايا والأكثر حضورا ودورانا، وهي عكس الوصايا الشعرية، مصدرها أديب ناثر مجرب عركته الحياة يوجز تجربته وثمرة علمه إلى شخص أقل خبرة منه، بأسلوب يحمل الجمال الفني المؤثر، وفي ميدان الوصايا النَّثرية يقابلنا؛ وصايا **عبد الله بن المقفع** التي يتضمنها كتابيه "**الأدَبُ الكبير و الأدَبُ الصغير**" والتي تعد من عيون الوصايا في ذلك العصر، منها قوله: «لا تعتذر إلا إلى من يُحبّ أن يجدَ لكَ عذرا، ولا تستعن إلا بمن يحب أن يُظفركَ بحاجتكَ، ولا تُحدِّث إلا من يرى حديثكَ مغنماً»، «حبب إلى نفسك العلمَ حتى تلزمهُ وتألفهُ، ويكونَ هو لهوكَ ولذتكَ وسلوتكَ وبلغتك، واعلم أن العلم علمانِ: علمٌ للمنافعِ، وعلم لتذكيةِ

---

[1]- ينظر: علاء محمد شدوح: قضايا النقد في وصايا النقد، ص: 12- 13/ و توفيق رونال، وصايا الأدباء والخلفاء والحكماء، ص: 13 وما بعدها.

[2]- المفضليات، ص: 384- 385.

العقولِ، وأفشى العلمينِ وأحراهُما أن ينشطَ لهُ صاحبهُ من غيرِ أن يُحض عليه علمُ المنافعِ. وللعلمِ الذي هو ذكاءُ العقولِ وصقالُها وجلاؤها فضيلةُ منزلةٍ عند أهلِ الفضيلةِ والألبابِ. » [1]

**ويتداخل الشعر مع النَّثر في وصايا النَّثر، من ذلك:**

لَمَّا احْتُضِرَ ذو الإِصْبَعِ دعا ابنَه أُسَيْدًا، فقال له: «يا بُنَيَّ، إِنَّ أباكَ قد فَنِيَ وهو حَيٌّ، وعاشَ حتى سَئِمَ العيشَ، وإِنِّي مُوصِيكَ بِمَا إِنْ حَفِظْتَهُ بَلَغْتَ في قومِكَ ما بَلَغْتُهُ، فاحْفَظْ عَنِّي: أَلِنْ جَانِبَكَ لِقَومِكَ يُحِبُّوكَ، وتَواضَعْ لهم يَرْفَعُوكَ، وابْسُطْ لهم وجْهَك يُطِيْعُوكَ، ولا تَسْتَأْثِرْ عليهم بِشَيءٍ يُسَودُوكَ، وأَكْرِمْ صِغَارَهم كما تُكْرِمُ كِبَارَهم يُكْرِمْكَ كِبَارُهم، ويَكْبُرُ على مَودَّتِك صِغَارُهُم، واسْمَحْ بِمَالِكَ، واحْمِ حَرِيْمَكَ، وأَعْزِزْ جَارَكَ، وأَعِنْ مَن اسْتَعَانَ بكَ، وأَكْرِمْ ضَيْفَكَ، وأَسْرِعِ النَّهْضَةَ في الصَّرِيخِ؛ فإِنَّ لكَ أَجَلاً لا يَعْدُوكَ، وصُنْ وجْهَكَ عن مَسْأَلَةِ أَحَدٍ شَيْئًا فَبِذَلِكَ يَتِمُّ سُؤْدَدُكَ. ثم أنشأ يقول: **[من مجزوء الكامل]** [2]

**أأسيد إن مالا ملكت  فسر به سيرا جميلا**

**آخ الكرام إن استطعت  إلى إخائهم سبيلا**

**واشرب بكأسهم وإن  شربوا به السم الثميلا**

**أهن اللئام ولا تكن  لإخائهم جملا ذلولا ».**

## 4.2 الوصايا النقدية:

وهي التي يقصد منها أصحابها التنبيه على قضايا النقد والبلاغة في فنون الأدب العربيّ، فيوصي صاحبها من يريد، بالالتزام في بعض قضايا النقد الأدبيّ وعدم الخروج عليها أو النهي عن الخروج عن بعضها الآخر إن قال شعراً أو نثراً، مثل قضايا اللفظ والمعنى والوزن والقافية والسرقات الشعرية وغيرها، وخير مثال على ذلك وصية أبي تمام للبحتري: «يا أبا عُبادة؛ تخيَّر الأوقاتَ وأنت قليلُ الهُمومِ، صِفْرٌ من الغُمومِ. واعْلَمْ أنَّ العادةَ في الأوقاتِ أن يقصدَ الإنسانُ لتأليفِ شَيْءٍ أو حِفْظِه في وقْتِ السَّحَرِ؛ وذلكَ أنَّ النَّفْسَ قَدْ أَخَذَتْ حَظَّهَا مِنَ الرَّاحةِ، وقِسْطَهَا مِنَ النَّومِ. فإنْ أردتَّ النسيب؛ فاجْعَلِ اللَّفْظَ رَقيقا، والمعنَى رَشيقًا، وأَكْثِرْ فيه مِن بَيانِ الصَّبابةِ، وتوجُّعِ الكآبَةِ، وقَلَقِ الأَشْواقِ، ولَوعَةِ الفِراقِ. وإذا أَخَذْتَ في مَدحِ سيِّدٍ ذي أيادٍ؛ فأَشْهِرْ مَناقِبَهُ، وأَظْهِرْ مناسِبَه، وأَبِنْ مَعالِمَهُ، وشرِّفْ مقامَهُ» [3].

ومن حيث الشكل فنجد نوعين من الوصايا:

**أ. الوصايا الشفوية:** الطابع الغالب على فن الوصايا هو المشافهة؛ وهي كل وصية يقولها الموصي مشافهة لمن يريد مباشرة، دون أن يدونها أو يوثقها في رسالة أو كتاب، فكانت تلقى إلقاء، ولا تكتب، وهذه الوصايا غالباً ما تكون عندما تحضر الوفاة شخصاً معيناً أو في الساعات الأخيرة من عمره. فهو يريد من خلالها أن يوصل

---

[1]- ابن المقفع: الأدب الصغير والأدب الكبير، ص: 112، 115، 116.

[2]- ينظر: الأصفهاني: كتاب الأغاني، تحقيق: إحسان عباس وآخرون، ج: 3، ص: 68- 69.

[3]- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج2، ص: 114- 115.

خبراته وتجاربه في الحياة لأبنائه أو طلابه أو عشيرته بأكملها بأسلوب جميل مؤثر يأخذ بالقلوب عند سماعه، فلا حاجة له أن يوثق وصيته أو أن يدونها. ومثل هذا النوع من الوصايا إن وجدناه مدوناً في رسالة أو كتاب من أمهات الكتب، إنما يكون قد دونها الكُتّاب عن الرواة ولم يدونها صاحب الوصية نفسه. من ذلك وصية **عبد الملك بن مروان** لولده عند وفاته حيث قال: « يا هذا أحنين الحمامة؟ إذا أنا مت فشمر و اتزر، والبس جلد النمر، وضع سيفك على عاتقك، فمن أبدى ذات نفسه لك، فاضرب عنقه، ومن سكت مات بدائه.» [1]

ب. **الوصايا الكتابيّة:** وهي عكس الوصايا الشفوية تعتمد على التدوين والتقيد؛ وهي التي يكتبها موصيها في رسالة، أو كتاب ويبعثها إلى الموصي إليه ليقرأها ويستفيد منها ويلتزم بما جاء فيها. ويتميز هذا النوع من الوصايا بفصاحة أكثر وتركيز أكبر وأسلوب أليق، لأن الموصي يكتبها بأناة وروية دون حاجته إلى القول عفو الخاطر، فيبعثها على شكلها النهائي إلى الموصي إليه مكتوبة بخط يده أو تحبيره.

وخير مثال على هذا النوع **وصية عمر بن عبد العزيز** التي حبرها إلى **ولي العهد بعده:** « بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين إلى يزيد بن عبد الملك، سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فإني كنت وأنا دنف من وجعي وقد علمت أني مسئول عما وليت يحاسبني عليك مليك الدنيا والآخرة، ولست أستطيع أن أخفى عليه من عملي شيئاً... فعليك بتقوى الله، والرعية الرعية فإنك لن تبقى بعدي إلا قليلاً حتى تلحق باللطيف الخبير. والسلام.» [2]

ونلاحظ أن هذه الوصية كتب على شكل رسالة أو كتاب وبعث وهي بالتأكيد تدخل ضمن الوصايا الكتابيّة.

أما من حيث **الموضوع والمضمون**؛ فيمكن إرجاع أنواع الوصايا إلى نوعين اثنين، هما:

أ. **الوصايا الاجتماعية:** هي أشهر أنواع الوصايا وأكثرها شيوعا، وهي تتجه إلى الناحية الخلُقية، وإلى تبصيري الموصي بآداب السلوك؛ فتحّث على التمّسك بمكارم الأخلاق، والتحلي بالسجايا الحميدة، كتهذيب اللسان، وتربية النفس، وغير ذلك من الخلال الكريمة، وتتعلق بأمور الحياة اليومية و ما يواجه الناس من مشكلات، كالوصايا المتعلقة بالزواج، والمال، والصداقة... ومن شواهدها **وصية أمامة بنت الحارث لابنتها أم إياس:** ويمكن أن نعد هذه الوصية من أهم الوصايا التي تقدمها الأم لابنتها قبيل الزواج، تقول أمامة في وصيتها: « أي بنية: إن الوصية لو تركت لفضل أدب، تركت لذلك منك؛ ولكنها تذكرة للغافل، ومعونة للعاقل، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها، وشدة حاجتها إليها، كنت أغنى الناس عنه؛ ولكن النساء للرجال خلقن، ولهن خلق الرجال؛ أي بنية: إنك فارقت الجو الذي منه خرجت، وخلفت العش الذي فيه درجت، إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فأصبح بملك عليك رقيبًا ومليكًا؛ فكوني له أمة يكن لك عبدًا وشيكًا...» [3]

---

[1]- صفوت أحمد زكي، جمهرة خطب العرب في العصور العربية الزاهرة، ج: 2، ص: 198.

[2]- أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج: 4، ص: 303.

[3]- صفوت أحمد زكي، جمهرة خطب العرب في العصور الزاهية، ج: 1، ص: 145.

ب. **الوصايا السياسية:** وهي المتعلقة بشؤون الحكم وتسيس أمور الرعية، وتوجيه القادة ونصحهم، وتكون بين الراعي والرعية، وتعكس هذه الوصايا ما يتحل به الموصيّ من دهاء وبعد نَظَر وحنكة سياسية، وخبرة بنفوس الرعية وطريقة معاملتها، من ذلك أوصى معاوية بن أبي سفيان ابنه يزيد الذي عهد إليه بالحكم من بعده، في وصية حملت عقل معاوية وحنكته في أمور السياسة والحكم، بوضع الخطوط العريضة التي على ولي عهده يزيد أن يسير عليها في سياسته مع أهل الأمصار، يقول: « انظر أهل الحجاز فإنهم أصلك، فأكرم من قدم عليك منهم، وتعهد من غاب، وانظر أهل العراق، فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل، فإن عزل عامل أحب إليَّ من أن تشهر عليك مئة ألف سيف، وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك، فإن نابك شيء من عدوك فانتصر بهم، فإن أصبتهم فأردد أهل الشام إلى بلادهم، فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم...» [1]

## 5. خصائص وسمات فن الوصايا

تقوم الوصايا على ثلاث ركائز أساسية هي: الموصي والوصية والموصي له، وهذه الركائز موجودة في أنواع الوصايا كلها، و تمتع فن الوصايا على خصائص وسمات فنية تميزها عن غيرها من الفنون النَّثرية، مما جعلها سهلة الحفظ، قوية التأثير، وقابلة للتداول عبر الأجيال، لعل أهمها: [2]

### أ. الأسلوب المسجع:

يُعدّ السجع من السمات الأسلوبية البارزة في فنّ الوصايا النَّثر العربيّ القديم، يأتي غالبًا في جمل قصيرة متوازنة، تتسم بالإيجاز والوضوح، دون تكلّف أو غموض، بل جاء وكأنّ الفكرة تستدعيه والمعنى يطلبه، فهو « سجع منظم وهادئ يشبع الدلالات بإيقاعات تميل إلى نوع من السكينة والهدوء.» [3]، له أثرٍ قويّ في ترسيخ المعنى وشدّ انتباه المتلقّي.

### ب. الجمل القصيرة والمتوازنة:

من السهولة على القارئ أن يلمح قصر الجمل في الوصايا مع المحافظة على توازن هذه الجمل، إذ تُصاغ العبارات في تراكيب موجزة متقاربة، واضحة الدلالة، دون إخلال في لفظها أو معناها، مما يضفي عليها رونقاً وجمالاً.

### ج. التراوح ما بين الاسترسال والإيجاز:

---

[1]- صفوت أحمد زكي، جمهرة خطب العرب في العصور الزاهية، ج: 2، ص: 187- 188.

[2]- ينظر: علاء محمد شدوح: قضايا النقد في وصايا النقد، ، ص: 14- 15.

[3]- إبراهيم، عبد الله: الوصايا (بحث منشور)

قد تختلف الوصايا بين التفصيل عند الحاجة لتوضيح المعنى وترسيخ الفكرة، والاختصار حين يقتضي المقام توجيهًا مباشرًا مكثفًا، مما يحقق توازنًا أسلوبيًا يُبقي الوصية واضحة، مؤثرة، وبعيدة عن الإطناب الممل أو الإيجاز المُخلّ، فلو نُظِرَ إلى وصية ذي الأصبع العدواني لابنه، لوجد أنها قصيرة جداً قياساً بوصية عمر بن الخطاب للخليفة من بعده مثلا.[1]

### د. السهولة والوضوح في الألفاظ والمعاني:

يتسم فن الوصية بخلوه من التعقيد والتكلف، فالألفاظ سهلة، والمعاني واضحة، رصينة وقوية في الوقت نفسه، ، مما يعزّز فاعلية الوصية وأثرها في مسمع الموصي له، مما تحثه على الانتباه والتفكّر في مضمون الوصية كاملة ذهنه دون عناء.

### هـ. أسلوب الطلب:

يُعدّ أسلوب الطلب من أبرز أساليب فنّ الوصايا، ويظهر من خلال استخدام الأوامر والنواهي والتوجيهات المباشرة، ويهدف هذا الأسلوب إلى حث المتلقّي على الفعل أو الامتناع عن خطأ معيّن، « وغالباً ما يقترن هذا الأسلوب بالتعليل، وذلك لبيان الهدف الذي يرمي إليه القائل من الأمر والنهي ثم من الوصية بوجه عام»[2] مما يجعل الوصية عملية ومؤثرة، وليست مجرد كلام نظري، بحيث تتحول الكلمات إلى دعوة واضحة للالتزام بالقيم الأخلاقية والاجتماعية.

وبذلك فنّ الوصايا في النَّثر العربيّ القديم يجمع بين الوظيفة التوجيهية والجمالية، حيث تتلاقى الأخلاق، البلاغة، السجع، والوضوح في نصوص قصيرة ومؤثرة، تجعل الوصية سهلة الحفظ وذات وقع نفسي وفكري قوي على المتلقي.

خلاصة ما ألفيناه؛ يُعد فن الوصايا من أعرق الفنون النثرية العربية وأقدمها، وهو قول حكيم بليغ يصدر عن مجرب خبير يوجهه لمن يحب، متضمناً نصائح وتوجيهات وأوامر ونواهي تهدف إلى تقويم السلوك أو نقل خبرات الحياة. يتقاطع هذا الفن مع "الخطابة" في كونهما أدوات للإقناع والتأثير، لكنه يتميز عنها بكونه موجهاً غالباً لشخص أو جماعة محددة، كما يقترب من "الحكمة" في جوامع الكلم، إلا أن الوصية أوسع وأكثر تركيزاً على بناء الشخصية.

وقد نشأ هذا الفن منذ القدم، وتطور عبر العصور؛ ففي الجاهلية كان شفهياً يعكس حكمة المعمرين وتجاربهم، ثم أضفى عليه الإسلام صبغة دينية وأخلاقية سامية، بينما شهد في العصر العباسي تنوعاً كبيراً ليشمل وصايا المهنيين والكُتّاب والقادة بجانب الوصايا السياسية والاجتماعية. وتتنوع الوصايا من حيث الشكل إلى شفوية عفوية (كانت تُلقى عند دنو الأجل) وكتابية مدونة (رسائل أدبية محكمة)، ومن حيث المضمون إلى اجتماعية تهتم بآداب السلوك والمكارم، وسياسية تُعنى بتدبير شؤون الحكم وإدارة الرعية.

---

[1]- ينظر: الأصفهاني: كتاب الأغاني، ج: 3، ص: 68- 69/ الجاحظ، البيان والتبيين.ج: 2، ص: 46.

[2]- صالح محمود عبد الرحيم: فنون النثر في الأدب العباسي، ص40.

ومن الناحية الفنية، يتميز أسلوب الوصايا بخصائص فريدة جعلتها سهلة الحفظ والتداول، منها: الاعتماد على السجع الهادئ غير المتكلف، والجمل القصيرة المتوازنة، والسهولة والوضوح في الألفاظ، مع استخدام أسلوب الطلب (الأمر والنهي) المشفوع بالتعليل لإقناع المتلقي بجدوى النصيحة. وقد برزت في الأدب العربي نماذج خالدة لوصايا الآباء للأبناء، والخلفاء للولاة، والعلماء لطلبتهم، مما جعلها وعاءً أصيلاً لخبرة الإنسان العربي وفلسفته في الحياة.

وبذلك، جمع فن الوصايا بين الوظيفة التربوية الإصلاحية وبين الرصانة البلاغية والجمالية، حيث تتلاقى القيم الأخلاقية مع فصاحة القول لتصنع نصوصاً مؤثرة. فهي ليست مجرد نصائح عابرة، بل هي خلاصة رؤى استراتيجية واجتماعية صاغها الأجداد لتكون بمثابة دستور إرشادي ينظم حياة الأجيال اللاحقة. تظل الوصية بذلك مرآةً صادقة للفكر العربي، وتجسيداً حياً لخبرات تراكمت عبر العصور، وظلت محتفظة بقوتها التوجيهية وتأثيرها النفسي والفكري في وجدان القارئ.

# فن المعاهدات

- تعريف فن المعاهدات، وأهميتها
- نشأة فن المعاهدات وتطوره في الأدب العربي القديم
- موضوعات فن المعاهدات
- خصائص وسمات فن المعاهدات
- نموذج تطبيقي لفن المعاهدات؛ معاهدة صلح الحديبية

الحصة 14

يُعدّ فنّ المعاهدات من الفنون النثرية التي ارتبطت بالحياة السياسية والإدارية، حيث كان يُستخدم لتوثيق الاتفاقات والمواثيق بين الدول أو القبائل أو بين الحاكم ورعيته. وقد ازدهر هذا الفن في عصور مختلفة، خاصة في العصرين الأموي والعباسي، لما شهدهما من تنظيم إداري واتساع في العلاقات السياسية.

## 1. تعريف فن المعاهدات، وأهميتها:

**من الناحية اللغوية**؛ المعاهدة مأخوذة من الجذر اللغوي لمادة (ع هـ د) وهي يأتي بمعنى الوصيّة، والموثِق، والضمان، والميثاق، جاء في لسان العرب: « والعَهْدُ: الموثِقُ، وعَهِدَ إليه أَي أَوصاهُ، والعَهْدُ: الأَمانُ، وعَهِدتُ فلاناً: وثِقْتُ به، وتَعاهَدَ القومُ: عاهَدَ بعضُهم بعضاً »[1]، ويضيف الفيروزآبادي (ت 817 هـ) قائلا: «العَهْدُ: الوصيّةُ، والميثاقُ، والحِفْظُ، والضمانُ، والأمانُ، والمعاهدةُ: المواثقةُ على أمرٍ»[2].

وهذا يدل على أن جوهر المعاهدة يقوم على الالتزام والأمانة في آن واحد، فهي بذلك تمثل اتفاقا رسميا يربط الأطراف المختلفة ويكفل حقوقهم ،ويلزمهم بالوفاء بما تعهّدوا به.

أما من **الناحية الاصطلاحية**؛ لا يبتعد المفهوم اللغوي كثيرًا عن المفهوم الاصطلاحي لفن المعاهدات، على الرغم من أننا لا نجد في التراث العربي تعريفًا حدّيًا مباشرًا له، بل نجد وصفًا وظيفيًا يندرج ضمن الرسائل الديوانية، حيث ارتبط هذا الفن بالدواوين وتطوّر فن الكتابة[3]. وبناءً على ذلك، تُعدّ المعاهدات فنًا نثريًا رسميًا يقوم على تدوين العهود والمواثيق واتفاقات الصلح بين الأطراف السياسية، متضمّنةً شروطًا والتزامات تنظّم العلاقات فيما بينها.

وإذا كانت المعاهدات لا تستمد قوتها من نصوصها، بل من عزيمة عاقديها على الوفاء، فإن الإسلام حث على الوفاء، واعتبر الوفاء بالعهد والميثاق قوة، والنكث فيه أخذاً في أسباب الضعف.

وتنبع أهمية فن المعاهدات من جانبين رئيسين: أولهما جانب الحياة السلمية وإدارة شؤون الدولة، وثانيهما جانب الحياة غير المستقرة، المتمثل في الفتن والحروب والفتوحات وسائر الظروف المضطربة، التي تدفع الدولة إلى اللجوء إلى هذا الفن والإكثار من استخدامه. ومن خلال هذه الأهمية في حالتي الاستقرار والاضطراب، برز عدد من الكتّاب الذين أجادوا فنون وأساليب الكتابة الديوانية، فاتجهوا إلى هذا الفن النثري الرسمي وتخصّصوا فيه،على رأسهم: عبد الحميد الكاتب، ابن المقفع، الجاحظ، ابن العميد.[4]

---

[1]- ابن منظور، لسان العرب،، ج 3، ص 311، مادة (عهد).

[2]- الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص 1040، مادة (عهد).

[3]- ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج:1 ص:52.

[4]- ينظر: معتصم إبراهيم مصلح العبيدي، الاتجاه السياسي في أدب العهود في العصر العباسي الأول، ص:35.

## 2. نشأة فن المعاهدات وتطوره في الأدب العربي القديم:

ولو تتبّعنا إرهاصات فنّ المعاهدات في العصر الجاهلي، فإننا لا نظفر إلا بقدر يسير لا يقدّم صورةً صحيحةً وتامّة لهذا الفن عند العرب، إذ ارتبطت العهود بالرسائل ، ويعود ذلك إلى أن كتابة المعاهدات وتوثيقها يرتبطان بالحضارة والاستقرار، وهي ظروف كانت نادرة نسبيًا في جزيرة العرب آنذاك، ومع ذلك، فقد عرف العرب العهود منطوقةً ومخطوطة[1]،ومن أشهر العهود المكتوبة في الجاهلية الحلف الذي عقده **عبد المطلب بن هاشم مع خزاعة**، حيث يروي الطبري أن المتحالفين دخلوا الكعبة وكتبوا كتابًا منه: « باسمك اللهم، هذا ما تحالف عليه عبد المطلب بن هاشم ورجالات عمرو بن ربيعة من خزاعة، تحالفوا على التناصر والمواساة،ما بلّ بحر صوفة، حلفا جامعا غير مفرّق؛ الأشياخ على الأشياخ، والأصاغر على الأصاغر، والشاهد على الغائب، وتعاهدوا وتعاقدوا أو كد عهد وأوثق عقد، لا ينتقض ولا ينكث، ما أشرقت حلف أبد، لطول أمد، يزيده طلوع الشمس شدّا، وظلام الليل مدّا، وأن عبد المطلب وولده ومن معهم ورجال خزاعة متكافئون متظاهرون متعاونون...» [2]، النصّ يكشف عن وعي مبكر بأهمية التوثيق الكتابي للعهود، رغم محدودية انتشاره في تلك المرحلة.

وما ميّز هذه المعاهدات على قلّتها أنّ نصوصها جاءت قصيرة موجزة، ومقدماتها أشدّ إيجازًا، والسجع والصور والتوازن، والإيقاع الصوتي تضيف إلى فصاحة اللغة زينة رشيقة لا تهظها، ولا تطغى على وضوح الأفكار.[3]

ومع بروز نور الإسلام، اتّسع نطاق الكتابة لتشمل كثيرًا من شؤون المسلمين لتنظيم أمور المجتمع والدولة، فبرزت كتابة العهود والمواثيق والأحلاف بين المسلمين أنفسهم، وبين من دخل الإسلام حديثًا، وكذلك بينهم وبين غير المسلمين كاليهود، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يكتب كثيرًا من عهود الأمان والمعاهدات[4]؛ ومن ذلك معاهداته مع نصارى نجران سنة (10هـ/ 631م) ومما جاء فيها: "«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. هَذَا مَا كتب مُحَمَّد رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأَهْلِ نَجْرَانَ ...ولنجران وحاشيتها جوار الله، وذمّة محمد النبي رسول الله، على أموالهم وأنفسهم، وأرضهم وملّتهم، وغائبهم وشاهدهم، وعشيرتهم وبيعهم ، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، لا يغيّر أسقفّ عن أسقفّيّته، ولا راهب عن رهبانيته، ... فذمّتي منه بريئة، ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر،

---

[1]- ينظر: غازي طليمات وعرفان الأشقر: الأدب الجاهلي (قضاياه- أغراضه- أعلامه- فنونه)، ص:573- 576.

[2]- صفوت أحمد زكي، جمهرة خطب العرب في العصور الزاهية، ج:1،ص: 24-25.

[3]- ينظر: غازي طليمات وعرفان الأشقر: الأدب الجاهلي (قضاياه- أغراضه- أعلامه- فنونه)، ص: 576.

[4]- ينظر: شوقي ضيف ،الفن ومذاهبه في النثر العربي.ص: 96-97.

ولهم على ما في هذا الكتاب جوار الله، وذمة محمد النبي رسول الله أبدا، حتى يأتي الله بأمره ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير منفلتين بظلم.» [1]

واستمرّ هذا النهج في عهد الخلافة الراشدة، حيث برزت المعاهدات بوصفها وسيلةً أساسية لتنظيم العلاقة مع الأقاليم المفتوحة،

كما يتجلّى في المعاهدة التي عُقدت بين الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه والمسيحيين في بلاد الشام، والتي اشتهرت "بعهد عمر" وتكتسب هذه المعاهدة أهميّة كبرى، لما تضمّنته من شروط تنظّم علاقة المسلمين بأهل الذمّة، وتحدّد حقوقهم وواجباتهم داخل الدولة الإسلامية.

وقد أورد سراج الدين الطرطوشي نصّ هذه المعاهدة، إذ يقول:« كتبنا إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين صالح نصارى أهل الشام: بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة الشام، إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا، وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث في مدائننا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة ولا قلية ولا صومعة راهب، ولا نجدد ما خرب منها ولا ما كان مختطاً منها في خطط المسلمين في ليل ولا نهار، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل، وأن ننزل من مر بنا من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم، ولا نأوي في كنائسنا ولا في منازلنا جاسوساً ولا نكتمه عن المسلمين، ولا نعلم أولادنا القرآن ولا نظهر شرعنا ولا ندعو إليه أحداً، ولا نمنع أحداً من ذوي قراباتنا الدخول في الإسلام إن أراده، وأن نوقر المسلمين ونقوم لهم من مجالسنا إذا أرادوا الجلوس....

فلما أتيت عمر رضي الله عنه بالكتاب زاد فيه : ولا نضرب أحداً من المسلمين، شرطنا ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان، فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطنا لكم وضمناه على أنفسنا فلا ذمة لنا » [2]

كما يظهر في عهد عمر بن الخطاب لأهل إيلياء، ومع أتساع رقعة الدولة الإسلامية واشتداد الحاجة إلى الاستقرار على الثغور، ازدادت المعاهدات تعقيدًا وتخصّصًا، في العصر الأموي كما في الهدنات والمعاهدات مع الدولة البيزنطية، التي لم تقتصر على إعلان وقف القتال، بل شملت تحديد المدد الزمنية، وتنظيم تبادل الأسرى، وضبط شؤون الحدود، وهو ما استلزم صياغة أدقّ وأكثر تفصيلًا، وقد انعكس ذلك على لغة المعاهدات، التي اتّسمت بالوضوح والتقسيم، مع الحفاظ على الطابع الرسمي.

أمّا في العصر العباسي، فقد بلغت المعاهدات درجةً أعلى من النضج، إذ اقترنت بازدهار الدواوين وتطوّر فنّ الكتابة. إن ممارسة الكتابة في دواوين الدولة العباسية لم تكن إلا من رغبة الكتاب في الاهتمام بهذا الجنس الأدبي، والإحساس بخطورته وحظوته عند الخلفاء العباسيين وأمرائهم وقادتهم ووزرائهم, لكن في الوقت نفسه لم يغفل أولئك الكتاب عن الاطلاع بكثافة على الكتابات الديوانية عند غير العرب، والإفادة منها في تعزيز

---

[1]- صفوت أحمد زكي، جمهرة خطب العرب في العصور الزاهية، ج:1،ص:77-78.

[2]- أبو بكر الطرطوشي: سراج الملوك، ص:135-136.

الكتابات الرسمية للدولة العباسية، وكذلك أفادوا من حركات الترجمة التي نشطت في بداية هذا العصر. ولم تعد المعاهدة مجرّد وثيقة ظرفية، بل أصبحت أداةً ثابتة من أدوات السياسة، لها أسلوبها المميّز وبناؤها المستقر، الأمر الذي أسهم في ازدهار فنّ المعاهدات بوصفه لونًا راسخًا من ألوان النثر العربي القديم.[1]

## 3. موضوعات فن المعاهدات:

تنوّعت الموضوعات التي عالجها فنّ المعاهدات في الخطاب النثري العربي القديم تبعًا لاختلاف الظروف والملابسات التي أملت إبرامها، سواء في حالات السكون أو التحوّل أو الاضطراب، ومن أبرز أنواع هذه المعاهدات:

أ. **معاهدات الصلح:** تُعدّ معاهدات الصّلح من أكثر أنواع المعاهدات حضورًا وذلك لارتباطها الوثيق بواقع الصراع والحروب التي شهدتها الدولة العربية الإسلامية في مختلف مراحلها التاريخية، وقد وُضعت هذه المعاهدات أساسًا لوقف القتال وإنهاء النزاع بين طرفين متحاربين، إمّا بصورة نهائية تُفضي إلى استقرار طويل الأمد، أو بصورة مؤقّتة تمهيدًا لتسوية أوسع أو إعادة ترتيب موازين القوى، ولهذا اكتسبت معاهدات الصلح أهمية سياسية كبيرة، انعكست بوضوح على عنايتها بالصّياغة الدقيقة والبناء المحكم[2].

ومنذ تأسيس الدولة فرضت الحياة الجديدة معاهدات صلح عقدها الرسول صلى الله عليه وسلم تأتي في مقدمتها صلح الحديبية(6ه)، وصحيفة المدينة. فقد كانت هذه الأخيرة معاهدةً بين الرسول ﷺ ويهود المدينة ومن حولها، وتُعدّ من أوائل المعاهدات السلميّة في الإسلام؛ إذ لم تتضمّن فرض الجزية، بل هدفت إلى تنظيم العلاقة بين الأطراف، وتحديد الحقوق والصلاحيات والامتيازات الممنوحة لليهود داخل الدولة الإسلامية، وقد أسهمت هذه المعاهدة في ترسيخ الأمن والسلام داخل المجتمع، حيث قامت على مبدأ التعايش، ولم يسبقها عداء أو حرب مع اليهود، لولا نكث اليهود لها فيما بعد.

ومما جاء فيها: « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم ، وجاهد معهم ، إنهم أمة واحدة من دون الناس... إن اليهود يُنْفِقُون مع المؤمنين، ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أُمَّة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم؛ مواليهم وأنفسهم، إلاَّ مَنْ ظَلَمَ وأَثِمَ، فإنه لا يُوتِغُ إلاَّ نفسه وأهل بيته، وإن ليهود بني النجار، وبني الحارث، وبني ساعدة، وبني جشم، وبني الأوس، وبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف، وإن بطانة يَهُودَ كأنفسهم، وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على مَنْ حارب هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبِرُّ دون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن الجار كالنفس غير مضارٍّ ولا آثم، وإن الله على أتْقَى ما في هذه الصحيفة وأَبَرّه، وإن بينهم النصر على مَنْ دَهَمَ يثرب، وإذا دُعُوا إلى صلح فإنهم يُصَالِحون، وإذا دُعُوا إلى مثل

---

[1]- ينظر: معتصم إبراهيم مصلح العبيدي، الاتجاه السياسي في أدب العهود في العصر العباسي الأول، ص: 94.

[2]- يُنظر: شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص 218، 220.

ذلك فإنه لهم على المؤمنين، إلاَّ مَنْ حارب في الدين على كل أناس حِصَّتَهم من جانبهم الذي قِبَلَهُمْ، وإنه لا يَحُولُ هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وإن الله جارٌ لمن بَرَّ واتَّقَى... »[1]

يُعدّ دستور المدينة نموذجًا مبكّرًا لتطوّر فنّ المعاهدات، حيث تجاوز مجرد الصلح إلى تنظيم مجتمع كامل، مما يعكس نضج الخطاب النثري الوظيفي في صدر الإسلام.

كما يُمثّل **صلح الرملة** الذي عُقد بين صلاح الدين الأيوبي وريتشارد قلب الأسد سنة 588هـ/1192م نموذجًا متطوّرًا لمعاهدات الصلح في العصر الوسيط، حيث اتّسم بدرجة عالية من التنظيم والدقّة. فقد تضمّن تحديدًا واضحًا للمناطق الخاضعة لكل طرف، وضمانًا لأمن الحجاج المسيحيين إلى القدس، وتنظيمًا لحركة التجارة والسكان،[2] ويصور المقريزي عظمة الفرحة التي عمت المسلمين والمسيحين، يقول:« كان يوم الصلح يوما مشهودا، عم فيه الطائفتين الفرح والسرور لما نالهم من طول الحرب»[3]

ب. **بمعاهدات الأمان:** وهي من أكثر أنواع المعاهدات دورانًا، إذ يُمنح بموجبها الأمان والحماية للنفس والمال والدين، مقابل الالتزام بشروطٍ معيّنة. ويغلب على هذا النوع من المعاهدات التوازن بين الحزم السياسي والبعد الأخلاقي.

ونلحظ في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي كثرةَ ظهور معاهدات الأمان، وتفوّقها عددًا واستعمالًا على سائر أنواع المعاهدات؛ وذلك لأنّ طبيعة تلك المرحلة اقتضت هذا النمط من الاتفاقات، بحكم أنّها كانت عصورَ فتوحاتٍ واتّساع، وعصورَ نشرٍ للدين الإسلامي في أنحاءٍ ورُقَعٍ جغرافيّةٍ واسعة [4].

من أشهر نماذج معاهدات الأمان **عهد عمر بن الخطاب-رضي الله عنه- لأهل إيلياء(بيت القدس) بالجابية في السنة (15هـ)** ؛ والتي سميت بالعهدة العمرية. التي تضمّن ضمانًا للأمان على الأنفس والأموال ودور العبادة، وحدّد التزامات الطرفين ،فقد جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان:أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمهم وبريئهم، وسائر ملّتهم، أنه لا تسكن كنائسهم، ولا تهدم، ولا ينتقص منها، ولا من حيّزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضارّ أحد منهم، ولا يكن بإيلياء معهم أحد من اليهود.

وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية، كما يعطى أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللّصوت، فمن خرج منهم، فإنه آمن على نفسه وماله، حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية.

---

[1]- تهذيب سيرة ابن هشام، ص:101-102.

[2]- ينظر: صفاء محمد صديق خليل: صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد ما بين الحرب ودبلوماسية السلام، ص:435-437.

[3]- المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج:1،ص: 110.

[4]- ينظر: معتصم إبراهيم مصلح العبيدي، الاتجاه السياسي في أدب العهود في العصر العباسي الأول، ص:34 .

ومن أحبّ من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم، ويخلّى بيعهم وصلبهم، فإنهم آمنون على أنفسهم، وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فمن شاء منهم قعد، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله، وذمة رسوله، وذمة الخلفاء، وذمة المؤمنين، إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية»[1].

وقد جاءت معاهدةُ الأمان لأهلِ إيلياء منظَّمةً ودقيقةً، تعكس وعيًا بأهمية الوضوح في النصوص التي تُنشئ حقوقًا دائمة، وتؤسّس لعلاقةٍ مستقرةٍ بين الحاكم والمحكوم.

ج. **معاهدات الهدنة:** تشكّل معاهدات الهدنة مرحلةً متقدّمة في تطوّر فنّ المعاهدات، إذ تعكس قدرة النثر الديواني على التعامل مع أوضاعٍ سياسية غير مستقرة، وصياغة نصوصٍ دقيقة ومرِنة في آنٍ واحد، تُسهم في ضبط الصراع وتقليل حدّته، مع الحفاظ على هيبة الدولة ووضوح الالتزامات.

وقد جاء في كتاب فتوح البلدان: عن يزيد بْن أَبِي حبيب، قال:« ليس بيننا وبين الأساود عهد ولا ميثاق إنما هي هدنة بينا وبينهم.»[2] ،فجوهر معاهدة الهدنة يتمثّل في وقف القتال مدّةً محدّدة، دون أن يعني ذلك إنهاء النزاع نهائيًا، بل يُعدّ حلًّا مرحليًا لتنظيم الصراع.

ويُظهر تاريخ العلاقات بين الدولة الإسلامية والدولة البيزنطية كثرة اللجوء إلى معاهدات الهدنة، ولا سيما في العصرين الأموي والعباسي، حيث كانت المواجهات العسكرية على الثغور الشامية والأناضولية متقطّعة وطويلة الأمد، فقد عُقدت هدنات متكرّرة لتنظيم فترات السلم المؤقّت، وتحديد واجبات كل طرف تجاه الآخر.

ومن أشهر معاهدات الهدنة مهادناتُ معاوية بن أبي سفيان مع الإمبراطورية البيزنطية (الروم)، وذلك لتفرّغ الدولة الأموية الناشئة لترتيب البيت الداخلي وتوسيع الفتوحات في الجبهات الأخرى. وقد تضمّنت هذه المهادنات وقف القتال لفتراتٍ محدّدة، وهدفت إلى تثبيت الحكم وتنظيم الجبهة الخارجية.

وقد عقد معاوية ثلاث مهادنات مع البيزنطيين في القرن الأوّل الهجري/السابع الميلادي:[3]

- **الهدنة الأولى** :سنة 31هـ/651م، حين كان معاوية واليًا على الشام. وجاء طلب الهدنة من جانب الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الثاني، الذي وافق على تقديم رهائن بيزنطيين يُحتجزون في دمشق. وقد استمرّت هذه الهدنة عامين، وانتهت سنة 33هـ/653م، بهجوم قوات معاوية على جزيرة رودس .
- **الهدنة الثانية** :سنة 36هـ/656م، أثناء النزاع بين علي بن أبي طالب ومعاوية رضي الله عنهما. وقد بادر معاوية بطلبها لتجنّب الخطر البيزنطي في تلك المرحلة. وكانت هذه المهادنة في مجملها لصالح البيزنطيين، إذ دفع

---

[1]- صفوت أحمد زكي، جمهرة خطب العرب في العصور الزاهية،ج:1،ص: 175-176.

[2]- البَلَاذُري: فتوح البلدان، ص:235.

[3]- إبراهيم بن حمود المشيقح: المهادنات بين معاوية بن أبي سفيان والبيزنطيين في القرن الأول الهجري/ القرن السابع الميلادي(بحث منشور)

لهم معاوية ألف نوميسماتا، وقدّم خيلًا، وأطلق سراح بعض الأسرى. وانتهت سنة 40هـ/660م بعد استقرار الأمر له .

- **الهدنة الثالثة** :سنة 58هـ/678م، وقد طلبها معاوية من الإمبراطور قسطنطين الرابع لتجنّب خطر جماعة الجراجمة (المردة) في جبل لبنان. وقد دامت هذه الهدنة ثلاثين عامًا، مقابل دفع ثلاثة آلاف نوميسماتا، وخمسين فرسًا أصيلًا، وإطلاق عدد من الأسرى البيزنطيين.

## 4. خصائص وسمات فن المعاهدات

على الرغم من الطابع الرسمي الذي يميّز فن المعاهدات، إلا أنّ ذلك لم يمنعها من التمتع بخصائص فنيّة مميزة، ولم يأتِ هذا الفن في صورة نصوص قانونية جافّة. ومن أبرز سمات وخصائص فن المعاهدات ما يأتي:

أ. **الطابع الرسمي مع مرونة فنية عالية**؛ حيث تُحرّر المعاهدات بأسلوب رسمي يعبّر عن السلطة والسيادة، ويُوثّق الالتزامات بين الأطراف،مما يفرض لغة واضحة ودقيقة، فيستخدم الكتاب ألفاظ محدّدة لتجنب الالتباس وسوء التأويل ، بالرغم من رسميتها، إلا أنّ المعاهدات تتمتع بقدرة على التعبير الفني في الأسلوب، فلا تتحوّل إلى نصوص جافة.

ب. **هيكل المعاهدات**؛ :تميّزت المعاهدات ببنية شبه ثابتة، تشمل افتتاحيةً رسميّة(المقدمة)، ثمّ عرضَ البنود والالتزامات، فخاتمةً تتضمّن التوكيد والتوثيق. وقد أسهم هذا البناء في ترسيخها كنصٍّ نمطيٍّ معترفٍ به في ديوان الإنشاء، ممّا يُيسّر فهم مضمونها واستيعابه.ما يسهل فهم مضمونها واستيعابه .

ج. **ارتباطها الوثيق بالو اقع**؛ تعكس المعاهدات ظروف عصرها السياسية والعسكرية والاقتصادية، فهي نصوص وظيفية وليست أدبية خالصة، ومع ذلك حافظت على حدٍّ أدنى من الصياغة الفنية، ومثال: معاهدات التجارة في العصر العباسي التي تعكس ازدهار الحركة الاقتصادية.

وسنحاول إبراز هذه السمات والخصائص في فن المعاهدات بالاستناد على معاهدة **صلح الحديبية**، والتي عقدت بين الرسول صلى الله عليه وسلم ومشركي مكة؛ قريش في عام السادس للهجرة (627م)، وكانت مواد المعاهدة تتضمن ضماناً من كلا الطرفين بعدم مهاجمة الطرف الآخر.

**د. نص المعاهدة:** «هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو: اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس، ويكفّ بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليّه ردّه عليهم، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردّوه عليه، وأنّ بيننا عيبة مكفوفة وأنه لا إسلال ولا إغلال ، وأنه من أحبّ أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه» [1]

[1]- صفوت أحمد زكي، جمهرة رسائل العرب في العصور الزاهية، ج:1،ص: 36-37.

قال سهيل:« وأنّك ترجع عنّا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك، فدخلتها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثا معك سلاح الراكب، السيوف في القرب لا تدخلها بغير هذا» [1].

**هـ. دراسة المعاهدة:** تنتمي معاهدة صلح الحديبية، من حيث النوع، إلى معاهدات الصلح، وبالتحديد إلى صلحٍ مؤقّت، إذ حدّدت مدّةً زمنيةً واضحةً قُدّرت بعشر سنوات. وتعكس هذه المعاهدة بناءً نمطيًا مبكّرًا لفنّ المعاهدات في الإسلام.

ومن السمات الجوهرية لهذا الفنّ، كما تتجلّى في نصّ هذه المعاهدة، الافتتاح التوثيقي، في قوله" :*هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو*" ، وهي صيغة تقريرية رسمية تُثبت الطابع التعاقدي للنص، مع تحديد واضح لأطراف المعاهدة.

كما يتجلّى عرض البنود في ترتيب منطقي دقيق، يبدأ بوقف الحرب، ثم ينتقل إلى تنظيم شؤون الأفراد، فالعلاقات والتحالفات، ثم مسألة دخول مكة.

أمّا الخاتمة الضمنية، فتُستفاد من اكتمال الشروط ووضوح الالتزامات، بما يعكس طابع الإحكام والتوثيق الذي يميّز هذا النوع من الخطاب.

**أمّا من حيث اللمسات الفنيّة:** فيُظهر هذا النص أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن معنيًّا في هذه المعاهدة بالتحبير الفني بقدر ما كان يهدف إلى أداء غرضٍ سياسيٍّ واضح، في صيغةٍ موجزةٍ دقيقة، تقوم على تحديد الشروط، وتنظيم العلاقات، وتحقيق الأمن والاستقرار، وهو ما يعكس الطابع العام للمعاهدات في العهد النبوي. [2]

ومع ذلك، لا يخلو النص من لمساتٍ فنيّة ذات دلالة، من أبرزها التشبيه التمثيلي في قوله" :*وأنّ بيننا عيبة مكفوفة*" ؛ إذ شبّه العرب الصدورَ بما تحمله من قلوبٍ وأسرارٍ بالعياب التي تُحكم على نفائس الثياب وفاخر المتاع. فجعل النبيّ صلى الله عليه وسلم هذه العياب المحكمة الإغلاق مثالًا للقلوب التي انطوت على ما تعاقد عليه الطرفان، في دلالةٍ على الذمّة المصونة والعهد الذي لا يُنقض.

إنّ معاهدة الحديبية التي بين أيدينا تُعدّ أنموذجًا تأسيسيًا لفنّ المعاهدات، وأصلًا مبكّرًا للنثر الوظيفي؛ إذ شكّلت نصًّا مرجعيًا لدى الخلفاء والفقهاء عند عقد الاتفاقيات، وإجراء المفاوضات، وتحديد مدّة المعاهدات السلميّة مع غير المسلمين.

**وعليه نخلص في نهاية الدرس** إلى أنّ فن المعاهدات من أهم الفنون النثرية العربية الرسمية، التي ارتبطت بالنشاط السياسي والإداري للدولة؛ فهو يعنى بتوثيق المواثيق والاتفاقات الرسمية بين الأطراف لضمان الحقوق

---

العيبة في الأصل: زبيل من أدم، وما يجعل فيه الثياب والجمع عياب بالكسر، وعيبة مكفوفة: مشرجة مشدودة على ما فيها. لا إسلال: لا سرقة، من أسل إذا سرق، وقيل: لا رشوة. ولا إغلال: لا خيانة، من أغل إذا خان.

[1]- صفوت أحمد زكي، جمهرة رسائل العرب في العصور الزاهية، ج:1،ص:37.

[2]- ينظر: شوقي ضيف ،الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص:97.

والوفاء بالالتزامات. جذور هذا الفن ضاربة في القدم، حيث عرف العرب العهود المكتوبة منذ الجاهلية، ثم اتسع نطاقه بظهور الإسلام لتنظيم شؤون المجتمع والدولة، وتطور بشكل كبير في العصرين الأموي والعباسي مع نضوج دواوين الإنشاء وحركات الترجمة.

وتتنوع موضوعات المعاهدات لتشمل ثلاثة أنواع رئيسة: معاهدات الصلح لإنهاء النزاعات، ومعاهدات الأمان لضمان الحماية للنفس والمال، ومعاهدات الهدنة التي تعد حلولاً مرحلية لضبط الصراع وتثبيت الاستقرار. وقد أرسى الرسول ﷺ ودستور المدينة والعهدة العمرية نماذج تأسيسية لهذا الفن، تميزت بالدقة والوضوح والإحكام. أما خصائصها الفنية، فتجمع بين الصبغة الرسمية التي تعكس سلطة الدولة وبين المرونة في الأسلوب، مع الالتزام بهيكل ثابت يبدأ بمقدمة توثيقية، ثم بنود مفصلة، فخاتمة مؤكدة للالتزام.

كما تحرص لغة المعاهدات على الإيجاز والبعد عن التكلف البلاغي، رغم توظيفها أحياناً لصور فنية دقيقة لترسيخ المعاني وتأكيد العهود. وتعد هذه المعاهدات نصوصاً وظيفية تعكس الظروف السياسية والعسكرية والاقتصادية لكل عصر، مما يجعلها وثائق تاريخية وأدبية تعبر عن فلسفة الدولة في إدارة علاقاتها.

إن فن المعاهدات ليس مجرد سرد قانوني جاف، بل هو وعاء لغوي رصين يجسد الحنكة السياسية وبعد النظر في معالجة القضايا الكبرى. وبذلك، ظل هذا الفن ديواناً يوثق ذمة العرب وتاريخهم في الوفاء بالعهود، ويبرز قدرتهم على صياغة نصوص رسمية تجمع بين الوظيفة السياسية الفاعلة والبيان العربي البليغ.

# قائمة المراجع الببليوغرافية


1. القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم، تحقيق ومراجعة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، (د.ت).
2. ابن الأثير: ( أبو الحسن عز الدين الجزري ت: 630 هـ)، الكامل في التاريخ. تحقيق: أبو الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى:1407هـ/ 1987م.
3. أرسطو طاليس، فن الخطابة، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، دار الشؤون الثقافية، د.ط، 1986م.
4. أبو نعيم الأصبهاني: (أحمد بن عبد الله ت:430هـ)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، تحقيق: سامي أنور جاهين، دار الحديث القاهرة، 1430/ 2009م.
5. أبو نعيم الأصبهاني: الإمامة والرد على الرافضة، تحقيق: علي بن محمد بن ناصر، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربيّة السعودية، د.ط، 1407هـ/ 1987م.
6. الأصفهاني: (أبو الفرج الأصفهاني علي بن الحسين ت: 356هـ)، الأغاني، تحقيق: إحسان عباس وإبراهيم السعافين وبكر عباس، دار صادر، بيروت، ط3، 1429هـ/ 2008م.
7. البَلَاذُري: (أحمد بن يحيى بن جابر بن داود ت:279هـ)، فتوح البلدان، دار ومكتبة الهلال، بيروت- لبنان، 1988م.
8. الباقلاني: (أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم ت 403 هـ)، إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف مصر، 1374هـ/ 1954م.
9. الباقلاني، نكت الانتصار لنقل القرآن، دراسة وتحقيق: محمد سلام زغلول، منشأة المعارف بالإسكندرية، جمهورية مصر العربيّة، 1971م.
10. التوحيدي: (أبو حيان علي بن محمد بن العباس ت: 414 هـ)، الإمتاع والمؤانسة، تحقيق: هيثم خليفة الطعيمي، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، 1432هـ/ 2011م.
11. التوحيدي ومسكويه، الهوامل والشوامل، تقديم: صلاح رسلان، شركة الأمل للطباعة والنشر، القاهرة، جمهورية مصر العربيّة. د.ط، د.ت.
12. الثعالبي: ( عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور ت:429هـ)، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1403هـ/ 1983م
13. ابن ثغري بردي: (أبو المحاسنِ جمالُ الدينِ يوسفُ بنُ الأميرِ سيفِ الدينِ ت: 874 هـ) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تقديم وتعليق : محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت –لبان، ط1، 1992م.
14. الجاحظ: (أبو عثمان عمرو بن بحر ت: 255هـ)، البيان والتبيين، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط7، 1418هـ/ 1998م .
15. الجاحظ، الحيوان، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط2، 1387هـ/ 1986م.
16. الجاحظ، المحاسن والأضداد، دار ومكتبة الهلال، بيروت- لبنان، 1423هـ.
17. لجهشياري: (عبدالله محمد بن عبدوس ت:331هـ) الوزراء والكتاب، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري

وعبد الحفيظ شلبي. مطبعة مصطفى البابي الحلبي و أولاده، القاهرة، جمهورية مصر العربيّة، ط1، 1357ه/ 1938م.

18. حاتم الطائي، ديوانه ، تحقيق: أحمد رشاد، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط3، 1423ه/ 2002م.

19. ابن أبي الحديد: (عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين ت: 656 ه)، شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة ،الطبعة الثانية:1967م/ 1387ه.

20. الحصري: (أبو إسحاق إبراهيم بن علي ت: 453ه)، زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط4، 1972م.

21. ابن حنبل: (أبو عبد الله بن هلال بن أسد الشيباني ت:241ه) ، كتاب الزهد، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1420ه.

22. ابن خلكان: (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ت:681ه)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ،تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت-لبنان.

23. ابن الدَّوَاداري: (أبو بكر بن عبد الله بن أيبك كنز الدرر وجامع الغرر ت: بعد عام 736 ه)، تحقيق: هانس روبرت، القاهرة، 1960م.

24. الذهبي: (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز ت:748ه): تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ط1، 2003م .

25. أبو حاتم السجستاني: (ت:250ه)المعمرون والوصايا، تحقيق: عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، جمهورية مصر العربيّة، 1961م.

26. ابن سعد: (محمد بن سعد بن منيع الهاشمي البصري ت:230ه ) الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا،دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، ط1، 1410 ه/ 1990م.

27. السُّكَّرِيُّ: (أبو سَعِيدٍ الحَسَنُ بنُ الحُسَيْنِ بنِ عَبدِ اللهِ العَتَكِيُّ النَّحْوِيُّ ت:275ه)، شرح أشعار الهذليين، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، مكتبة دار العروبة، القاهرة. د.ت.

28. ابن بسام الشنتريني: ( أبو الحسن علي ت: 542ه) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت-لبنان، ط1، د.ت.

29. الصفدي: (صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي ت:764ه) الوافي بالوافيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث ، بيروت-لبنان،1420ه/ 2000م.

30. ابن طَباطَبا العَلَوي: ( أبو الحسن محمد بن أحمد بن محمد الحسني ت:322ه)عيار الشعر، تحقيق: محمد سلام زغلول، منشأة المعارف بالإسكندرية، جمهورية مصر العربيّة، ط3، 1984م.

31. أبو بكر الطرطوشي: (محمد بن الوليد الفهري ت:250 ه) سراج الملوك، حققه وعلق عليه: نعمان صالح الصالح ، دار العاذرية ، الرياض-المملكة العربية السعودية، ط1، 1426ه/ 2005م.

32. ابن عبد ربه: (أحمد بن محمد الأندلسي، ت: 328ه) العقد الفريد، تحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 1404ه/ 1983م.

33. العسكري: (أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل ت: 395ه)، الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق: علي محمد

البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربيّ، ط2، د.ت.

34. ابن فضل الله العمري ( شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري ت:749هـ) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: تحقيق: مهدي النجم، دار الكتب العلمية، بيروت، 2010م.

35. ابن قتيبة: (أبو محمد عبد الله بن مسلم ت: 276هـ) الإمامة والسياسة، تحقيق: الأستاذ علي شيري، دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ط1، 1410هـ/ 1990م.

36. قدامة بن جعفر:(أبو الفرج بن قدامة بن زياد البغدادي ت337هـ) نقد الشعر، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة-مصر، ط3، د.ت.

37. القلقشندي (أحمد بن علي بن أحمد الفزاري ت: 821هـ)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 1407هـ/ 1987م.

38. القيرواني (أبو علي الحسن بن رشيق، ت: 456هـ)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، حققه: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، ط5، 1401هـ/ 1981م.

39. ابن قيم الجوزية: (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي ت: 751هـ) إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد، دار الجيل ، بيروت- لبنان، 1973م.

40. ابن القيم: زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق وتخريج وتعليق: شعيب الأرناؤوط، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، د.ط، د.ت.

41. ابن كثير: (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر ت: 774هـ) البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله التركي، دار هجر للطباعة والنشر، ط1، 1997م.

42. المرزوقي: (أبو على أحمد بن محمد بن الحسن ت:421هـ ) شرح ديوان الحماسة، تحقيق: غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط1، 1424هـ/ 2003م.

43. المسعودي: ( أبو الحسن علي بن الحسين بن علي ت: 346 هـ)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية صيدا، بيروت- لبنان، ط1، 1425هـ/ 2005م.

44. المفضل الضبي: ( المفضل بن محمد بن يعلى بن سالم الضبي ت 168هـ)، المفضليات، تحقيق: أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون، دار المعارف، مصر، ط6، د.ت.

45. المقريزي: (تقي الدين أبو العباس الحسيني العبيدي ت:845هـ) السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القاهر، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، د.ت.

46. ابن المقفع: الأدب الصغير والأدب الكبير، تحقيق ودراسة: إنعام فوال، دار الكتاب العربيّ، بيروت- لبنان، ط3، 1420هـ/ 1999م.

47. ابن النديم: (أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد الوراق ت: 438هـ) الفهرست، تحقيق: رضا تجدد، طبعة: طهران، 1391 هـ/ 1971م.

48.

49. النهشليّ: ( عبد الكريم النهشلي القيرواني ت:405هـ )، الممتع في صناعة الشعر، تحقيق: عباس عبد الساتر، دار العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1983م.

50. النووي: (أبو زكريا محي الدين يحيى بن شرف ت:676ه)، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، المطبعة المصرية بالأزهر، جمهورية مصر العربيّة، ط1، 1349ه/ 1930م.
51. ابن هشام: (عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين ت:213ه)، تهذيب سيرته، تحقيق: عبد السلام هارون، مؤسسة الرسالة بيرو ت- لبنان، ط24، 1423ه/ 2002م
52. ابن الوردي: (زين الدين ابو الحفص عمر بن مظفر بن عمر ت:749ه) ديوانه، تحقيق: أحمد فوزي الهيب، دار القلم، الكويت، 1968م.
53. ابن وهب الكاتب: (أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سلمان ت: 197 ه ) البرهان في وجوه البيان، تحقيق: حقي محمد شرف، مكتبة الشباب القاهرة، مصر، 1996م، ص: 192.
54. أبو يوسف القاضي: (يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد بن حبتة الأنصاري ت:182ه) الخراج، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد وسعد حسن محمد، المكتبة الأزهرية للتراث، د.ت.
55. اليونيني: (قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد اليونيني ت: 726 ه) ذيل مرآة الزمان، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط2، 1992م.
56. إبراهيم علي أبو الخشب: الأدب الأموي صورة رائعة من البيان العربيّ، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
57. إحسان عباس: عبد الحميد الكاتب وما تبقى من رسائله ورسائل سالم أبي العلاء، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، 1988م.
58. أحمد بدوي، أسس النقد الأدبيّ عند العرب، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، (د.ط)، 1964م.
59. أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في العصور العربيّة الزاهرة، المكتبة العلمية بيروت- لبنان، ط4، :1933م.
60. أحمد محمد الحوفي، أدب السياسة في العصر الأموي، دار القلم،بيروت- لبنان، 1965م.
61. توفيق الزيدي: مفهوم الأدبيّة في التراث النقدي إلى القرن الرابع الهجري، منشورات عيون، الدار البيضاء المملكة المغربية، ط1987،2م.
62. توفيق رونال، وصايا الأدباء والخلفاء والحكماء، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى،2007م.
63. خليفة الميساوي: المصطلح اللساني وتأسيس المفهوم، دار الأمان، الرباط-المغرب، ط1، 2014م.
64. زكي مبارك، النَّثر الفني في القرن الرابع، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، جمهورية مصر العربيّة ،القاهرة، 2013م.
65. سلامة هليل عيد، الرسائل الفنية في العصر المملوكي الأول (648ه/ 784)، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2014م.
66. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربيّ ، دار المعارف، القاهرة، جمهورية مصر العربيّة، ط11، د.ت.
67. شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النَّثر العربيّ ،دار المعارف، القاهرة، جمهورية مصر العربيّة، ط10، 1983م.
68. صالح، محمود عبد الرحيم: فنون النَّثر في الأدب العباسي، وزارة الثقافة، الأردن، ط1، 1994.
69. الطّاهر توات: أدب الرّسائل في المغرب العربيّ – في القرنين السّابع و الثّامن الهجريّين – ديوان المطبوعات

الجامعيّة، الجزائر، ط2، 2010م.
70. طه حسين، في الأدب الجاهليّ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، جمهورية مصر العربيّة، ط2، 1927م.
71. طه حسين، من حديث الشعر والنَّثر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، جمهورية مصر العربيّة، 2014م.
72. عبد الحكيم بلبع، النَّثر الفني وأثر الجاحظ فيه، مكتبة الأنجلو المصرية، 1955م.
73. علي الجندي، تاريخ الأدب الجاهليّ، مكتبة دار التراث، د.ط، 1991م.
74. علي محمد جماز، وصية لقمان لابنه، مؤسسة دار العلوم، قطر. د.ط، د.ت.
75. غازي طليمات وعرفان الأشقر، الأدب الجاهليّ (قضاياه-أغراضه- أعلامه-فنونه)،دار الإرشاد بحمص، ط1، 1992م.
76. فارس أحمد، تاريخ الأدب العربيّ في العصر الجاهليّ، دار الأمان- لبنان، ط1، 1999م.
77. فروخ عمر، تاريخ الأدب العربيّ، دار العلم للملايين، بيروت-لبنان، ط5، 1984م.
78. فضل صلاح، نظرية البنائية في النقد الأدبي، دار الآفاق الجديدة، بيروت- لبنان، ط3، 1985م.
79. قصي حسين، الأدب العربيّ في العصرين المملوكي والعثماني، المؤسسة الحديثة للكتاب، ط1، 2006م.
80. كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربيّ، نقله إلى العربيّة: عبد الحليم النجار، دار المعارف، القاهرة، ط5، د.ت.
81. كارلو نالينو، وتاريخ الآداب العربيّة (من الجاهليّة حتى عصر بني أمية)،دار المعرف بمصر1954م.
82. كامل بن حسن الحلبي، نهر الذهب في تاريخ حلب، دار القلم ،حلب- سورية، ط 2، 1419هـ
83. محمد الباردي، إنشائية الخطاب في الرواية العربية الحديثة (دراسة)،منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق-سورية، 2000م.
84. محمد توفيق أبو علي، الأمثال العربيّة والعصر الجاهليّ، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1988م.
85. محمد عبد المنعم الخفاجي، الحياة الأدبيّة بعد ظهور الإسلام، دار الجيل بيروت- لبنان، 1990م.
86. محمد عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبيّة عصر بني أمية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط3، 1973م.
87. محمد علي كرد، أمراء البيان، مطبعة لجنة التَّأليف والترجمة والنشر، القاهرة- جمهورية مصر العربيّة،1937م.
88. محمد مسعود جبران، فنون النَّثر الأدبيّ في آثار لسان الدين بن الخطيب ،دار المدار الإسلامي، بيروت- لبنان، ط1، 2001م،
89. محمد نبيه حجاب، بلاغة الكتاب في العصر العباسي، مكتبة الطالب الجامعي، ط2، 1986م.
90. مرشد أحمد، البنية والدلالة في الرواية ،إبراهيم نصر الله، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت- لبنان. ط2، 2005م.
91. نبيل خالد رباح أبو علي نقد النَّثر في تراث العرب النقدي حتى نهاية العصر العباسي656هـ، دار المقداد للطباعة، غزة- فلسطين، 2005م.
92. النجار محمد رجب، النَّثر العربيّ القديم من الشفاهية إلى الكتابة، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت، ط2، 2002م.

93. نصار حسين، نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربيّ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2002م.

94. نعمان بوقرة: المصطلحات الأساسية في علم النص وتحليل الخطاب-دراسة معجمية- جدار للكتاب العالمي، عمان- الأردن، ط9، 2019م.

95. هاشم صالح مناع ،النَّثر في العصر الجاهليّ: دار الفكر العربيّ، بيروت-لبنان، ط1، 1993م.

96. واضح الصمد، أدب صدر الإسلام، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر والتوزيع، بيروت- لبنان، د.ط، 1994م.

97. إلياس أنطوان إلياس، قاموس إلياس العصري، دار الجليل ،بيروت- لبنان، 1972م.

98. الجوهري: (إسماعيل بن حماد ت: 393ه)، الصّحاح تاج اللغة وصحاح العربيّة، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين. (د.ت).

99. جيرالد برنس، قاموس السرديات، ميريت للنشر والتوزيع، القاهرة- جمهورية مصر العربية، ط1، 2003م.

100. الزمخشري: (أبو القاسم جار الله محمود بن عمر ت:538ه)،أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود ،دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1419ه/ 1998م.

101. ابن فارس: (أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ت: 395ه)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،1399 ه/ 1979م.

102. الفيروز آباديّ: (أبو الطاهر محمد بن يعقوب ت: 817ه)، القاموس المحيط، تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، بيروت-لبنان، الطبعة الثالثة:2003م.

103. ابن منظور: (أبو الفضل جمال الدين بن مكرم ت: 711ه)، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير، ومحمد أحمد حسب الله، وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة- جمهورية مصر العربيّة، (د.ت).

104. جلال يوسف العطاري، النَّثر الفني في العصر المملوكيّ، رسالة دكتوراه الجامعة الأردنية، عمان- الأردن، 1995م.

105. حسين عبد العال اللهيبي، الخطابةُ العربيّة في العصر الوسيط (656- 1213ه) -دراسة في الموضوع والفن، مجلة كلية التربية الأساسية، بابل-العراق، العدد:16،حزيران 2014م.

106. رشا فخري النحال: فن الرسائل في العصر المملوكي، رسالة ماجستير ، الجامعة الإسلامية-غزة-كلية الآداب – قسم اللغة العربيّة،2013م -2014م.

107. سماح محمد سمير الجعبة، نماذج من الخطب والوصايا في العصر الجاهليّ (دراسة بلاغية تحليلية)، ماجستير في اللغة العربيّة وآدابها، جامعة الخليل، 2021م/ 2022م.

108. سهام الفريح، الوصايا ومدى تطورها في العصر العباسي الأول، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الرسالة الثانية والثلاثون، الحولية السادسة، 1405ه/ 1985م.

109. صفاء محمد صديق خليل: صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد ما بين الحرب ودبلوماسية السلام، مجلة كلية الآداب، جامعة سوهاج،العدد: 72،ج2، يوليو 2024م.

110. عامر فتحي محمد الشيخ أحمد، فنّ الخطابة في العصرين الأيوبيّ والمملوكي الأوّل -دراسة تحليلية أدبية-

رسالة ماجستير، كلية الآداب والعلوم- اللغة العربيّة وآدابها، جامعة الشرق الأوسط، آيار 2015م.

111. عبد العزيز يوسف زي، ومحبوب الرحمن صافي، مراحل التّرسّل التاريخيّة للأدب العربيّ: من نافذة الفنّ والأدب، المجلّة الدوليّة لدراسات اللغة العربيّة وآدابها، مجلد 7، عدد 2، 2025م.

112. علاء محمد شدوح، قضايا النقد في وصايا النقد، مجلة جيل الدراسات الأدبيّة والفكرية، مجلة علمية دولية محكمة، تصدر عن مركز جيل البحث العلمي، لبنان، العدد الثالث، أيلول سبتمبر2014م.

113. فائز عبد النبي فلاح القيسي، أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس، دار البشير للنشر والتوزيع، عمان-الأردن، الطبعة الأولى: 1409هـ/ 1989م.

114. فيصل حسين طحيمر العلي، فن الترسل عند عبد الحميد الكاتب وابن العميد، رسالة ماجستير في اللغة العربيّة وآدابها، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، نابلس-فلسطين، 1422هـ/ 2001م.

115. مصطفى عبد الهادي عبد الستار محمد، المعنى في خطبة قس بن ساعدة بين تنوع الأسلوب والجرس الصوتي الموسيقى، مجلة النيل للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية والتربوية.

116. معتصم إبراهيم مصلح العبيدي، الاتجاه السياسي في أدب العهود في العصر العباسي الأول، مجلة التربية للعلوم الإنسانية،المجلد: 3، العدد: 11، 1444هـ/ 2023م.

117. منتصر عبد القادر الغضنفري، وماجدة عجيل صالح، الرسائل النَّثرية قراءة فنية في ذاكرة المصطلح، مجلة جامعة زاخو،المجلد:1، العدد: 02، 2013م.

118. نادية عطا خميس، النَّثر الفني في عهد النبوة، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، جمهورية العراق، العدد:1، مجلد:8، 2009م.

119. نعمات عوض الطراونة: ديوان الرسائل في العصر العباسي الأول ونشاطه الأدبيّ، أطروحة دكتوراه، جامعة مؤتة، قسم اللغة العربيّة وآدابها، 2008م.

120. وليم مارسيه: أصول النَّثر الأدبيّ العربيّ، ترجمة: محمود المقداد، مجلة التراث العربيّ، سورية، العدد: 18، السنة الخامسة، يناير: 1985م.

121. إبراهيم بن حمود المشيقح: المهادنات بين معاوية بن أبي سفيان والبيزنطيين في القرن الأول الهجري/ القرن السابع الميلادي، موسوعة الآجري، 30 ماي 2026م، التوقيت: 10:25 https://www.ajurry.com/apptips/home.html

122. WWW.AlKalema.Us/adab/htm- إبراهيم، عبد الله: الوصايا.

123. التلازم الوثيق بين البنى: بنية المجتمع وبنية النص المكتوب (مقال).13 يونيو2026. https://caus.org.lb

124. جعفر آجورلو، الترسل في العصر الجاهليّ والعصر الأموي، موقع ديوان العرب، تاريخ النشر: 19 نوفمبر 2010م، تاريخ الزيارة: 22 جانفي 2026. diwanalarab.com

125. حسن بن يخلف: إشكالات النَّثر العربيّ القديم وخصائصه (مقالة)، الموقع: https://alantologia.com/blogs/5789

126. نجاة المريني، وصايا أندلسية، موقع قصة الإسلام، 10:00-2026/ 10/ 15. https://www.islamstory.com/ar

# فهرس الموضوعات


| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| معلومات أساسية | أ |
| المقرر البيداغوجي | ب |
| مقدمة | ج |
| **الحصة 1 : مَدْخَلٌ نَظَرِيٌّ إِلَى الفُنُونِ النَّثْرِيَّةِ القَدِيمَةِ** | 01 |
| 1. ماهية بنية الخطاب النثري القديم | 02 |
| 2. تطور الخطاب النَّثري العربيّ القديم | 05 |
| 3. ألوان النَّثر الفني العربيّ القديم | 06 |
| **الحصة 2 : الفُنُونُ النَّثْرِيَّةُ القَدِيمَةُ وَإِشْكَالِيَّةُ الأَسْبَقِيَّةِ** | 08 |
| 1. آراء النقّاد حول أسبقية الوجود النثري | 09 |
| 2. أسباب ضياع الخطاب النثري الجاهلي | 10 |
| **الحصة 3 : فَنُّ الخَطَابَةِ فِي العَصْرِ الجَاهِلِيّ** | 12 |
| 1. دواعي الخطابة في العصر الجاهليّ | 13 |
| 2. أنواع الخطب في العصر الجاهليّ | 14 |
| 3. أشهر الخطباء في الجاهليّة وسننهم | 16 |
| 4. خصائص فن الخطابة في العصر الجاهليّ | 16 |
| 5. نموذج تطبيقي من فن الخطابة في العصر الجاهليّ؛ خطبة قُسُّ بن ساعدة الإيادي. | 17 |
| **الحصة 4 : فَنُّ الخَطَابَةِ فِي عَصْرِ صَدْرِ الإِسْلَامِ وَالخِلَافَةِ الرَّاشِدَةِ** | 20 |
| 1. دوافع ودواعي ازدهار الخطابة في عصر صدر الإسلام والخلافة الراشدة | 21 |
| 2. أغراض فن الخطابة في عصر صدر الإسلام والخلافة الراشدة | 21 |
| 3. خصائص وسمات الخطابة في عصر صدر الإسلام والخلافة الراشدة | 22 |
| 4. نموذج تطبيقي لفن الخطابة الإسلامية؛ خطبة حجة الوداع | 24 |
| **الحصة 5 : فَنُّ الخَطَابَةِ فِي العَصْرِ الأُمَوِيّ** | 29 |
| 1. عوامل ازدهار الخطابة في العصر الأموي | 30 |
| 2. أنواع الخطب في العصر الأموي | 32 |
| 3. هيكل الخطبة في العصر الأموي | 40 |
| 4. الخصائص والسمات الفنية للخطابة في العصر الأموي | 41 |
| **الحصة 6 : فَنُّ الخَطَابَةِ فِي العَصْرِ العَبَاسِيّ** | 46 |
| 1. أسباب ضعف وتراجع فن الخطابة في العصر العباسي | 47 |
| 2. موضوعات فن الخطابة في العصر العباسي | 48 |
| 3. خصائص وسمات الخطابة في العصر العباسي | 52 |
| **الحصة 7 : فَنُّ الخَطَابَةِ فِي عَصْرِ المَمَالِيكِ** | 57 |
| 1. وضع الخطابة العربيّة في العصر المملوكي وأبرز أعلامها | 58 |
| 2. ضروب فن الخطابة ونماذج منها في عصر المماليك | 60 |

| | |
|---|---|
| 3. خصائص وسمات فن الخطابة في عصر المماليك | 64 |
| **الحصة 8 : فَنُّ الترسُّلُ فِي العَصْرِ الجَاهِلِيّ** | 68 |
| 1. فن الترسل لغة واصطلاحا | 69 |
| 2. نشأة الترسل في العصر الجاهليّ | 70 |
| 3. أنماط فن الترسل في العصر الجاهليّ | 71 |
| 4. الخصائص الفنية لترسل في العصر الجاهليّ | 73 |
| **الحصة 9 : فَنُّ التَرَسُّلُ فِي عَصْرِ صَدْرِ الإسْلَامِ وَالخِلَافَةِ الرَّاشِدَةِ** | 75 |
| 1. عوامل ازدهار وتطور فن الترسل في عصر الإسلام والخلافة الراشدة | 76 |
| 2. أنواع فن الترسل في عصر صدر الإسلام والخلافة الراشدة | 78 |
| 3. خصائص وسمات فن الترسل في عصر الإسلام والخلافة الراشدة | 80 |
| 4. أشهر المترسلون ونماذج من رسائلهم المشهورة في عصر الإسلام والخلافة الراشدة | 82 |
| **الحصة 10 : فَنُّ التَرَسُّلُ فِي العَصْرِ الأُمَوِيّ** | 84 |
| 1. عوامل تطور وازدهار الكتابة الفنية في العصر الأموي | 85 |
| 2. أنواع فن الترسل في العصر الأموي | 86 |
| 3. خصائص وسمات فن الترسل في العصر الأموي | 88 |
| 4. عبد الحميد الكاتب (132هـ) وفن الترسل الأموي | 88 |
| 5. نموذج تطبيقي؛ رسالة عبد الحميد الكاتب إلى الكتاب | 89 |
| **الحصة 11 : فَنُّ التَرَسُّلُ فِي العَصْرِ العَبَاسِيّ** | 93 |
| 1. عوامل تطور وازدهار فن الترسل في العصر العباسي | 94 |
| 2. موضوعات فن الترسل في العصر العباسي | 95 |
| 3. سمات وخصائص فن الترسل في العصر العباسي | 98 |
| **الحصة 12 : فَنُّ التَرَسُّلُ فِي عَصْرِ المَمَالِيكِ** | 103 |
| 1. عوامل تطور وازدهار فن الترسل في عصر المماليك | 104 |
| 2. أشهر الكتاب ونماذج من ترسلهم في عصر المماليك | 105 |
| 3. موضوعات فن الترسل في عصر المماليك | 107 |
| 4. سمات وخصائص فن الترسل في عصر المماليك | 111 |
| **الحصة 13 : فَنُّ الوَصَايَا** | 114 |
| 1. فن الوصايا (لغة واصطلاحا) | 115 |
| 2. بين الوصايا والخطب والحكم | 116 |
| 3. نشأة فن الوصايا وتطوره في الأدب العربيّ القديم | 117 |
| 4. أنواع فن الوصايا | 121 |
| 5. خصائص وسمات فن الوصايا | 124 |
| **الحصة 14 : فَنُّ المُعَاهَدَاتِ** | 127 |
| 1. تعريف فن المعاهدات، وأهميتها | 128 |
| 2. نشأة فن المعاهدات وتطوره في الأدب العربي القديم | 129 |
| 3. موضوعات فن المعاهدات | 131 |

| | |
|---|---|
| 4. خصائص وسمات فن المعاهدات | 134 |
| 5. نموذج تطبيقي لفن المعاهدات؛ معاهدة صلح الحديبية | 134 |
| **قائمة المراجع** | 138 |
| **فهرس الموضوعات** | 145 |
| **ملخص بالإنجليزية مع كلمات مفتاحية** | 148 |

## ملخص بالإنجليزية مع كلمات مفتاحية

This pedagogical coursebook is devoted to the module *Structure of Ancient Arabic Prose Discourse*, designed for first-year Master's students specializing in Ancient Arabic Literature. The module is part of the Fundamental Teaching Unit and has been carefully prepared in accordance with the curriculum approved by the Ministry of Higher Education and Scientific Research.

This coursebook seeks to provide students with a clear and in-depth understanding of the major forms of ancient Arabic prose discourse and to examine its linguistic, stylistic, and artistic structure, thereby enabling them to grasp its characteristics and aesthetic features and to analyze its transformations across the various literary periods: the pre-Islamic, Islamic, Abbasid, and Mamluk eras. It also aims to develop students' skills in reading and interpreting ancient prose texts, understanding their stylistic and rhetorical features, and enhancing their abilities in criticism, analysis, and inference through the study of selected models from ancient Arabic prose.

The coursebook adopts a methodology that combines historical presentation with critical and analytical approaches. It traces the development of ancient prose discourse within its historical context, from its emergence to its evolution throughout the different literary periods, while also analyzing its texts and examining their linguistic, stylistic, and rhetorical structures in order to achieve a deeper understanding of their artistic and aesthetic dimensions.

Ultimately, this pedagogical work aspires to promote a conscious and scholarly reading of the structure of ancient Arabic prose discourse, helping students build a solid body of knowledge that enables them to appreciate the richness and complexity of this field and to overcome many of the difficulties they may encounter in their academic research, within a framework that combines clarity, depth, and academic rigor

**Keywords:** Structure, Ancient Arabic Prose Discourse, The Art of Oratory, The Art of Epistolary Writing, The Art of Wills and Testaments, The Art of Treaties